

# السحرية في الأدب العربي

تأليف

دكتور نعمان محمد أمين طه

أستاذ الأدب العربي  
كلية البنات - جامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة لل المؤلف

١٢٩٩ هـ • ١٩٧٩ م

# السخرية في الأدب العربي

حتى نهاية القرن الرابع الهجري

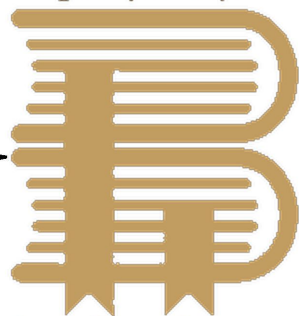
تأليف

الدكتور نعمان محمد ربيع طه

أستاذ الأدب العربي المساعد  
كلية البنات - جامعة الأزهر

حقوق الطبع محفوظة المؤلف

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابط يديل < mktba.net

الطبعة الأولى  
١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م

دار التوفيقية  
للطباعة بالأزهر

## تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وبعد :

فقد راودت نفسي فكرة معالجة هذا الموضوع منذ أمد ، منذ أن قرأت  
الأدب العربي دارساً ومدرساً . وألمت بتلك النظريات التي دارت حول  
مناهج البحث فيه : تلك التي تعددت بين مدرسية ، وإقليمية ، ونفسية ،  
وغيرها (١) .

وقد ران على نفسي صراب دراسة شخصيات الأدب دراسة متأنة  
دقيقة فاحصة شاملة من جهة ، ودراسة موضوعات الأدب أثره وشعره من  
جهة أخرى .

وقد أخرجت من قبل - لكي أحقق ما أصبو إليه من معالجة - دراستي  
عن « جرير » الشاعر الأموي المشهور .

وهاذا اليوم أقدم دراستي عن غرض من أخطر أغراض الأدب العربي  
شعره ونثره : ألا وهو « السخرية » ، التي ظلت موضع اهتمام الأوربيين  
والأمريكيين وغيرهم منذ أمد طويل ، معالجة وممارسة وتالياً ، حتى بلغت  
كتبهم في ذلك المئات ، وظلت أيضاً تعالج بحثاً في دوائر معارفهم تحت ألقاظ  
متعددة منها Hnmour , Irony, Satire, Sarcasm, Laughter, Comedy, Caticature ,,, etc ... وغيرها ، بينما لا نكاد نعتز على مؤلف عربي يضارع  
أو يقارب ما هو موجود لدى هؤلاء القوم .

والعلل قد استطلعت - في بحثي هذا عن السخرية - أن أملاً الفجوة التي

---

(١) مناهج الدراسات الأدبية للدكتور شكري فيصل .

نفسر بعينها : سواء في محاولة استكناه هذا الموضوع ، أو في دراسة طائفة من الساعرين الذين يذبشون في أدبنا العربي هنا وهناك .

ولقد ضربت صفحا من فصل طويل كنت قد عقدته للتعريف بالساعرين في الآداب الأجنبية متبعا لإيام تنبأ تاريخيا ، ومفصلا القول في مؤلفاتهم وفي قيمة عملهم الأدبي حتى نستطيع أن نحسن تصور هذا الموضوع في أدبنا العربي مقارنا بمثله في الآداب الأجنبية تصورا أميناً دقيقاً ، ولكنني خشيت الإطالة ، فعزلت على أرجاء هذا الفصل ونشره في طبعة أخرى إن شاء الله .

والله أسأل هونه وهدايته وتوفيقه ، وأن يحضني الزال ، مرددا في خضوع وخضوع دائما دعاءه الكريم :

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطانا ، ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ، واعف عنا ، واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين .

وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

د نعمان محمد أمين طه

العباسية في شعبان ١٣٩٨ هـ

يوليو ١٩٧٨ م

١ - حاجة الإنسان إلى الضحك :

لكل إنسان حى فى هذا الوجود حاجات مادية كثيرة ، يستطيع فى أكثر الأحياء الوصول إليها ، وقد تحول فى بعض الأحيان بينه وبينها الحوائل والموانع ، فلا يصل إلى بغيته : إما لأسباب مادية تجعل ما يبنى تحقيقه أمراً صعباً أو مستحيلاً ، وإما بسبب طبيعة المجتمع الذى يعيش فيه ؛ إذ تحتلط رغباته برغبات غيره ، وتصطدم مطالبه بمطالبهم ، فيتوقف وصوله إلى أهدافه على مقدار علاقته بهم ، وعلاقتهم به .

فإذا أخفق الإنسان فى الوصول إلى غاياته ، امقلات نفسه أحقاداً ، ما تلبث أن تؤثر فى جسمه وجهازه العصبى تأثيراً سيئاً ، ويزداد هذا التأثير سوءاً حتى ينتهى إلى أحد أمرين :

إما أن يصاب بعلل فى عضو من أعضائه ، أو ينتابه فتور عام يفضى به إلى الجمم وهزل .

وقد يحاول المرء أن يخفف عن نفسه ما يفرضه من آلام فينجح فى التخلص منها أو من بعضها نجاحاً ما ، بالنسبة عن نفسه أو بالاختلاط بأفراد جنسه ، شاكياً بثه وهمه ، أو مستمعاً إلى ما يشبه آلامه ، فتخف تلك بمثلاتها تأسيماً . . . وهكذا تحدث شبه حركة داخلية فى الجسم ، يفضن إليها الإنسان بطبيعته ، فيزاولها ، وكذلك قد يكون للحركة الخارجية التى تهتز بها أعضاء الجسم ، كاتقاله من مكان إلى آخر مغاير لما كان فيه ، قد يكون لهذه الحركة تأثير قوى فى فصله شيئاً فشيئاً وإلى حد ما ، مما يعافى من الآلام (١) .

(١) وأستطيع أن أسوق دليلاً على ذلك تلك الحركات العنيفة التى تقوم بها بعض المريضات حينما يسمعن دقات بعض الآلات الموسيقية الصاخبة أو بعض =

إذن ، فالحركة - داخلية نفسية أو خارجية عضوية - هي من أقوى الدعام التي يحاول الإنسان بها مراجعة عوامل الهدم في الطبيعة ، بالتخلص مما يعكر مزاجه من شوائب مادية أو نفسية ، وقد عبر أرسطو عن الجانب النفسى من تخلص الإنسان من آلامه بقوله : « إنه يطهر عواطفه »<sup>(١)</sup>.

والطفل - بمحض غريزته - لا يستطيع إلا أن يقضى طفولته وصباه متحركا في كل الأمكنة التي تستطيع أن تحتل حركته ، وتتسع لها ، وعناية نموه في الحقيقة ما هي إلا حركة مستمرة . وما الحياة إلا حركة دائبة تؤدي نطاقها داخل العالم الأكبر المتحرك بأجرامه المختلفة المتعددة ، سواء منها الذي وصل إلى علم الإنسان ، أو ما لم يصل إليه بعد ، بأبحاثه العلمية .

إذن : فالجانب المادى الداخلى من جسم الإنسان يفشد الحركة الخارجية لمعالجة الرواسب المتعددة والتخلص منها ، كذلك الجانب الذهنى من الإنسان يحاول بالحركة أن يطرد الآلام التي هي أفكار ذهنية وعواطف لا يحبها ، بل يمتقتها كل المقت ، ويحاول أن يتخلص منها .

ولست هناك وسيلة للتخلص من العواطف المؤلمة المختلفة إلا بحركة ذهنية داخلية تطرد هذه الآلام خارجا ، ولا تولد هذه الحركة إلا بالضحك .

\* \* \*

== أنواع الموسيقى الراقصة المحركة كالرومبا والسامبا ، فيتخلص مما يكن قد أصيب به من أمراض عصبية : كنتلك الفتاة العانس التي أشار عليها أحد الأطباء النفسيين بجماع تلك الموسيقى - وكانت مصابة بمرض عصبى - فشفيت منه .

(١) كتاب الشعر لأرسطو ترجمة إحسان عباس ص ٦ .

## ٢ — محاولة تعريف الضحك :

والضحك استعداد فطرى فى الإنسان ، لا يكتسبه بالتجربة ، وهو انفعال إنسانى خاص يتميز به عن بقية الحيوانات ، ولذلك عرف الإنسان بأنه حيوان ضاحك . وله - ككل الغرائز - أركان ثلاثة : مؤثر أو باعث يستثيره ، وحالة انفعالية مصاحبة ، ووظيفة أو غاية يسعى إلى تحقيقها . ولذلك فالمقصود بالدراسة ذلك الضحك العميق الذى ينتهى بالإنسان إلى حالة الانشراح المعروفة لا مجرد السمات الخاصة التى تظهر على الفم وأساور الوجه .

وما الضحك إلا حركة داخلية وخارجية ، لها سماتها المعروفة بإخراج صوت خاص من جهة ، وباهتزاز الجسم هزات تختلف وقوة الضحك من جهة ، وطريقة الأشخاص وعاداتهم من جهة أخرى .

وإذا تأملنا الضاحك فى أثناء ضحكه ، واستبطنا أنفسنا فى أثناء عملية الضحك تبيننا - لأول وهلة - انفراج الفم وإخراج هذا الصوت الذى يبدأ بحرف ( ه . . . ) والذى يخرج من الجوف فى صورة أمواج متتابعة كأنه تيار من الهواء يجتذب معه آلام الضاحك إلى الخارج . وكذلك تحريك أعضاء الجسم كالرأس إلى الوراء والرجلين واليدين . ويقال إن هذه العملية - عملية الزفير والشهيق فى أثناء الضحك - تؤثر فى الحجاب الحاجز ، فيؤثر - باهتزازه - فيما تحته من أعضاء داخلية ، فيدفع نشاطها ، وبذلك يمكن أن يكون هذا الوصف ، هو ما يحدث من تأثير للاهتزاز العضوى الداخلى فى الاهتزاز النفسى ، فينتج ما يسمى السرور أو الانشراح Euphoria أو الارتياح أو الابتهاج أو ما يمكن أن نسميه الانتماش الجسمى النفسى .

وقد حاول العالم الإنجليزى ، سبنسر تفسير الضحك بما يشبه تفسيرنا



السابق ويعرف تفسيره بنظرية الطاقة<sup>(١)</sup> . وبذلك كان سبندر من يفسرون الضحك بتفسير فسيولوجي ، وهناك بعض الفلاسفة يحاولون تفسيره تفسيراً نفسياً محضاً ضارين صفحا عن الناحية الفسيولوجية التي يحسها الإنسان في أثناء الضحك . وهكذا انقسم الفلاسفة منذ فجر الإنسانية إلى فريقين: أحدهما يفسر ذلك التفسير الفسيولوجي ، والآخر ذلك التفسير السيكولوجي ، وأخيراً حاول بعضهم الربط بين التفسيرين فيما سمي بالسيكوفسيولوجي . ولعل الفلاسفة الوجوديين هم أقرب الناس إلى فهم هذه الظاهرة الإنسانية فحاولوا الابتعاد عن محاولة تفسيرها قائلين : « يحسن بنا أن نفلح عن محاولة تفسير الضحك أو البحث عن علل للضحك ، لكي تقتصر على النظر إلى الملابس أو الذرائع التي تكتنف تلك الظاهرة ولو أننا حاولنا أن نفهم الضحك باعتباره ظاهرة نفسية ذات دلالة إنسانية ، لتبين لنا أن هناك من أفانين الضحك بقدر ما هناك من مواقف بشرية<sup>(٢)</sup> . من العبث أن نجتزئ في فهمنا للضحك بتطبيق نظرية واحدة نحاول عن طريقها أن نتناول شتى المواقف البشرية للضحك ، لأن الحياة البشرية أكبر من أن تحيط بها نظرية تقوم بتأويل ما تنطوي عليه مراقبها الكثيرة من قيم ومدلولات<sup>(٣)</sup> .

## ٢ - الضحك وأنواعه :

وليس للضحك أنواع مختلفة متباينة كما يفهم من عنوان هذه الفقرة ، ولكنها أوجه مختلفة لذلك الجسم الحي المسمى بالضحك<sup>(٤)</sup> ، وذلك لأن الحدود التي تفصلها هي من اللطف بحيث قد تخفى على عين الإنسان

(١) هربرت سبنسر : كتابه فسيولوجية الضحك .

(٢) ذكرى إبراهيم : سيكولوجية الفكاهة والضحك ص ٨٩ و ٩٠

(٣) المرجع السابق

(٤) المرجع السابق

ولا يستطيع التمييز بينها تميزاً تاماً . غير أننا يمكن أن نعد من حالات الضحك أو ما يضحك : الفكاهة والسخرية . وكثيراً ما يخطئ الناس بينهما ولا يكادون يفرقون بينهما حين يشملهم الجو المرح الضاحك وتنبعث من أفواههم النكات التي يمكن أن تكون مجرد الإضحاك فحسب وحينئذ فهي الفكاهة ، وقد تكون بقصد اللذع والإيلاام فهي سخرية ، وقد تجمع بين الغرضين .

فن النكت الفكاهية ما يروى عن أحد المفرطين في شرب الخمر أنه قال له أحدهم : إن الخمر انتحار بطيء .

فأجاب : ولماذا تريدونني على أن أنتحر بسرعة ؟

ومن النكت الساخرة نادرة تروى عن أحد الأمراء ، فقد التقى يوماً بغريب يشبهه تمام الشبه ، فابتدعه بقوله :

— هل كانت أمك يا هذا تقيم في البلاط الملكي ؟

فأجاب الغريب ببديهة الجاضرة : كلا ياسيدي ، بل أبي (١) !

وإذا روى أحد الأشخاص النكتة السابقة لبعض الجالسين يقصد الضحك فهي فكاهة ، أما إذا حدث فعلاً في مجلس من المجالس فيعد الرجل ساخرًا بالأمير ، ولذلك تسمى سخرية .

ومثلها ما يروى عن الممثل الساخر شارلي شابلن حين سئل عن المرأة الطيبة في العالم ، فقال : امرأتان طيبتان في العالم . . . إحداهما ماتت ، والثانية مفقودة .

وهكذا نرى أن كل ما يضحك ، فهو هزل ، ولكنه ينقسم قسمين :

(١) وقد روت كتب الأدب هذه النادرة بين الخطيئة والفرزدق .

أحدهما ليس له غرض أو هدف إلا الإضحاك فحسب وهو ما يطلق عليه الفكاهة ، والآخر له غرض هادف واضح - سواء أ كان معيناً أو غير معين حين إلقاء النكتة - وهو السخرية .

ولذلك كان المزاح يشمل النوعين : التفكه والسخرية أى الإضحاك والالذع ، ويكون المزاح فى أول أمره لإشاعة جو مرح ضاحك بين الجالسين ولكنه كثيراً ما ينقلب فى النهاية إلى سخرية يتضرر منها بعض الأفراد وقد يعقبها الشجار ، ولهذا اشتملت كتب الأدب القديمة على النص على كراهية المزاح<sup>(١)</sup> .

#### ٤ - السخرية والهجاء :

عرفنا فى الفقرة السابقة أن السخرية تلتقى مع الفكاهة فى المنبع الذى تنبعان منه ، وقد تختلط إحداها بالآخرى كما مزاج رحيق فاكهتين مختلفتين ، وقد يفترقان ، كذلك تبرز السخرية بالهجاء من ناحية الوظيفة ولكنهما يفترقان من ناحية المادة أو الطبيعة التى يشتمل عليها كل منهما . فالهجاء طريقة مباشرة فى الهجوم على العدو ، ولكن السخرية طريقة غير مباشرة فى الهجوم<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

#### ٥ - ألفاظ السخرية وتعريفها :

والموضوع الذى نحاول بحثه عدة ألفاظ فى اللغة العربية سنحاول

(١) أدب الدنيا والدين للماء ردى ، وحاسة ابن الشجرى وغيرهما .

(٢) Edgar Johnson : A Treasury of Satire, P, 13



أما السخرية : فن مادة ( س خ ر ) وأصل السخيرة : التذليل ، جاء في ( اللسان : سخر ) سخرته : أى قهرته وذلالته . وسخره تسخيرا : كلفه عملا بلا أجره ، وكل مقهور مدبر لا يملك لنفسه ما يخلصه من القهر فذلك : « مسخر » وتسخرت دابة لفلان : أى ركبتها بغير أجر . وأصل المادة في المعجم تدور بعامة حول « اللين » ، من الناحية للصوتية فإذا تتبعناها عرفنا مقدار ذلك <sup>(١)</sup> ، سواء أكان الحرفان ( س ، خ ) متواليين كما ذكرنا في الهامش ، أو متفصلين <sup>(٢)</sup> ، ومن هذا يتبين لنا أن الحرفين ( س ، خ ) في كلمة ( سخر ) يوحيان باللين ( التذليل ) والخفاء ، وعدم الإبانة بطريقة مباشرة .

وتذكر هذه الألفاظ في المعاجم مترادفة بمعنى السخرية ، ولم تحاول

---

(١) سحوا : تدوير حول لين الطبع ، من « السخاوى » الأرض اللينة التراب والسخواء الأرض السهلة الواسعة .

- سخب : قلادة تتخذ من قرنفل وسك ومحب ، أو هى خوط ينظم فيه خرز : فخيوط هذه القلادة وما ينظم فيها كله لين توحى به العدين والخفاء .
- السخب : أول ما يخرج من بطن ذى الحنف ساعة تضعه أمه .
- السخايج : الأرض الحرة اللينة .
- السخند : دم وماء فى الساياء ، وهو السلى الذى يكون فيه الولد .
- سخم : شجر إذا طال تدلت رموه وانحنى .
- السخط : ضد الرضا .
- السخف : رقة العيش ، وبالضم رقة العقل . وثوب سخيف : رقيق النسيج .
- السخلة : من أولاد الممز والضأن سادة يولد .
- والساخن : الماء الساخن : الخفيف المرتفع . . . ( انظر اللسان في المواد التى سبقت ) .

(١) في اللسان : سبخ و السباخ ( يكون تحتهما الأرضية ، سبخ ، سبخ ، سبخ : السخ : الأصل ، وهو مختلف تحت الأرض ، ، ساخ فى الأرض : اختفى .

للتفريق بين معانيها الدقيقة ، بل لم تنم بإيراد شواهد كثيرة لكل كلمة ، وقد تركت أيضا المعنى العام الذى شمل السخرية والاستهزاء ولتمتكم بدون تعريف يقر به من الأذهان ، يدل على ذلك ما جاء فى اللسان فى مادة ( عنظ ) قال : عنظى به : سخر منه وأسمعه القبيح وشتمه ، وفى مادة ( فليح ) التفليح : المكر والاستهزاء ، وقد فليحوا به : أى مكروا به ، وفليح بهم تفليحا مكر وقال غير الحق .

\* \* \*

ومما يمكن من أمر ، فقد اخترنا كلمة « سخرية » عنوانا لبحثنا ، لأنها أقرب الكلمات دلالة على الموضوع : إذ ورد معناها فى اللغة مشتملا على التذليل ، والسخر - فى الحقيقة - يحاول إخضاع خصمه له ، وفى هذا ما فيه من تشف عميق ، وإراحة لنفسه المتعبة المكدودة ، وكذلك لاشتغال الكلمة على السين والحاء : وهما الحرفان اللذان يعبران عن اللهن والطراوة والخبث والدهاء ، بعكس لفظة « تهكم » التى تدل على محاولة الهدم المفاجيء ، أو كلمة « الهزء » التى تدل على السخرية الصريحة السريعة العابرة فهى أشبه بالجملة العارضة منها بالروح الذى وطد العزم وكرس قواه لهذا الصنيع : وهو الاشتغال من الناس - بسبب ما - بالسخرية منهم : فى السخرية أين أشبه بلين الأفاعى ، والسخر أفعى ليس له صوت حين يسير أو حين يسخر ، ولكنه يقتل بسخريته . وهنا يلتقى المعجم العربى مع الكتاب الأوربيين فى محاولتهم تعريف السخرية حين يقول أحدهم : « طريقة من طرق التعبير ، يستعمل فيها الشخص ألفاظا تقلب المعنى إلى عكس ما يقصده المتكلم حقيقة . وهى صورة من صور الفكاهة تعرض السلوك المعوج أو الأخطاء ، التى إن فطن إليها وهرفها فنان موهوب تمام المعرفة ، وأحسن عرضها ، تكون حيث تد فى يده سلاحا ممتعا » (١) .

وقال آخر : د. . . . . وهى طريقة فى التحكم المرير ، والتندر أو الهجاء الذى يظهر فيه المعنى بعكس ما يظنه الإنسان ، وربما كانت أعظم صور البلاغة عنفا وإخافة وفتكا ، (١) .

وقال ثالث : « السرية سلاح شائع عند جميع الكتاب ، والمؤلفون الكبار يأخذون أنفسهم بممارستها ، وهى تظهر فى شعر الملاحم وفى التراجميدا علاوة على الكوميديا ، والخطباء يستمدون منها الثبرات المؤثرة وكذلك تتخذ البلاغة منها سلاحا أشد فتكا لا يمكن إغفاله أو الاستهانة به . وتكون السخرية - فى بعض الأحيان - سمة دالة على قوة اليأس ، (٢) .

ويمكن تعريف السخرية بعامة بأنها: النقد المضحك أو التجريح الهازي . وغرض الساخر هو النقد أولا والاضحاك ثانيا ، وهو تصوير الإنسان تصويرا مضحكا : إما بوضعه فى صورة مضحكة بواسطة التشويه - الذى لا يصل إلى حد الإيلام - أو تكبير العيوب الجسمية أو العضوية أو الحركية أو العقلية أو ما فيه من عيوب حين سلوكه مع المجتمع ، وكل ذلك بطريقة خاصة غير مباشرة .

ولا نرى بالتعرف السابق - من المضحك أو السخرية فى تعريف لأن عمله السخرية وكيفية شئ حتى قبل كل شئ : دوهما يمكن هذا الشئ خفيف الوزن ، فإننا نعامله بما تستحقه الحياة من احترام ، (٣) وقد أصاب علم المنطق الحديث والباحثون فيه بقولهم : لا يمكن تعريف شئ من الأشياء على وجه الأرض تعريفا جامعاً مانعاً ، لأن الشئ الحى لا يمكن الإحاطة به وتصويره ببعض ألفاظ قاصرة إذ هو حى متحرك ، والألفاظ - مهما تكن -

Americana V. 15 P. 390

(١)

La Rousse V. 20 P. 793

(٢)

Henry Bergeson, Le Rire P. 13

(٣)

جامدة ساكنة ، فكيف يمكن وضع الحى في قوالب جامدة ساكنة ؟ فهو إما أن يوضع فيها فيموت وإما أن يحطمها ويخرج إلى متنفس الحياة لكي يبقى حيا خالدا في الانفس الحية الخالدة ، ومصدقا لهذا جاء في كتاب علم النفس : «... إننا لو حاولنا حصر الانفعالات التي تدخل في تكوين انفعال ما - على ما يظهر لنا - لبقيت بقية تقصر اللغة عن تسميتها ووصفها... ففهما يبلغ الانفعال من التحقد والتركيب ، فلا بد أن يدخل في تركيبه عنصر نفسى خاص ، ليس من المستطاع تسميته »<sup>(١)</sup> .

والسخرية يحسها المتفنن وقارئ الفن معا ، يتفقان في الاحساس بها والاحتفاء بها دون أن يعنهما تعريفها ، لأنهما في الحقيقة ربما عجزا عن تعريف ، ولذلك حاول أدلر Adler تحليل السخرية - بصفتها انفعالا مركبا - فقال إنها مركبة من غرائز ثلاث : الغضب ، والانتقام ، والخضوع ، ثم قال بعد هذا صادقا : « ولست مقتنعا إلى اليوم بأى تعريف لها فيما قرأته إلى الآن »<sup>(٢)</sup> وقال عن اللعب والمجاجة - وهما عنصران من عناصر السخرية : « وهما من الانفعالات والغرائز التي يصعب تعريفها »<sup>(٣)</sup> وقال كاتب مادة « فكاهة » Humour في دائرة المعارف البريطانية : « وهى أى الفكاهة - إحدى صفات الساخر التي تسيطر عليه ، وهى اصطلاح لا يابى أن يعرف فحسب ، بل بمعنى آخر ، تتعالى عن التعريف ، ويمكن أن يعد من علامات النقص في روح الفكاهة أن تبحث عن تعريف للفكاهة »<sup>(٤)</sup>

(١) حامد عبد القادر وآخرون : علم النفس ٣ - ١٧٦ .

(٢) أدلر : العقل الباطن ص ٨٣ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٨ .

Encyclopaedia Britannica; Humour

(٤)



وعلى هذا ، يكون توضيح السخرية بمحاولة وصف الفضاء الساخر ،  
واستبطان نفسه ، ووصف وقعها على الإنسان ، لا بمحاولة تعريفها  
بمبارات منطقية محدودة .

\* \* \*

### أسباب السخرية :

والساخر هو ذلك المتعالي بنفسه عن المجتمع الذي يضحك منه أو من  
أحد أفراده لأسباب ترجع إلى حقده على المجتمع ، لما يشعر به من نقص  
يخلق أو حرمان ويتقد - بما منعه الله من موهبة السخرية - الأفراد  
أو المجتمع لإخفاء هذا النقص .

وقد ترجع إلى عداوة بينه وبين الشخص الذي ينقده لسبب من الأسباب  
التي تنجم عن الاحتكاك الدائم بين الناس ، لمفرض الانتقام .

وقد ترجع إلى تعالي شخص ناقص لا يحس ما فيه من نقص ، فوضر  
الأديب الساخر إلى أن يرده إلى صوابه أو إلى منطقته ، كما يقول برجسون  
Bergeson ويحاول حينذاك أن يحث عن عيوبه فيضحكها ويكبرها ، ويجعل  
مضجها بفتنه أداة للضحك ، وقد صدق أدلر Adler حينما قال : « البغض  
والانتقام هما الشيطانان اللذان يولدان السخرية » (١) .

وقد تنوله عن تعالي الشخص الساخر نفسه ، ولشموه بالغرور ، فهو  
لا يفتأ ينقد ما في المجتمع من نقائص أو مفارقات ولذلك قال العقاد :  
« . . . فالعبث والغرور بابان من أبواب السخر ، بل هما جع أبوابه  
كافة » (٢) .

(١) أدلر : العقل الباطن ص ١٠٧

(٢) عباس محمود العقاد : مطالعات في السكتب والحياة ، طبعة التجارية سنة

وقد تكون زابعة من حساسية الناقد نفسه ، فهو يكون ذا عين بظيرة  
نفاذة : يحس نقائص المجتمع ، ثم يكون ذا روح مرح ضاحك يتناول العالم  
وما فيه تناولا بأساليب السخرية المختلفة ، يقصد من وراء ذلك الإصلاح ،  
وفي طيات ذلك الإضحاك ، أو يقصد معالجة هذه الحساسية - إن صح هذا  
القول - لأن الحساسية مرض ، قد يتناهى حتى يتعب صاحبه فيجعله لا يرضى  
عن شيء في الحياة ، ويهديه الإحساس بوجوده الطبيعي وحب البقاء ، إلى  
الظئنة لهذه الوسيلة في علاج نفسه ، أو التنفيس عما يشعر به ، ولذلك قال  
جورته الشاعر الألماني قوله المشهورة : « السرور يولد القوة » . والناس في  
الحقيقة يذهبون لإحدى سبيلين في موقفهم من الحياة : إما أن يستبد بهم  
الغضب إلى النهاية ، وإما أن يحولوا هذا الغضب إلى سخرية من الناس . وقد  
حاول أدلر Adler أن يرجع السخرية أو يحللها - كما نفع - إلى مركب - إلى  
الغرائز البسيطة التي تتركب منها ، فقال : « هي خليط من انفعالين هما الغضب  
والاشمئزاز : فمن إذ تثور فينا غريزة النفور نشمئز ، فإذا عدا الشيء الذي  
أثار اشمئزازنا على صفاء عيشنا ، من أية ناحية من النواحي ، بعثت فينا  
غريزة المقاومة والانفعال المقترن بها ، وهو الغضب ، فدفعنا بنا إلى السخرية  
كما بعث اشمئزازنا أو بمن أناره في نفوسنا . ولا يخلو هذا من عنصر الزهو ،  
لأننا ننزع إلى الرضا عن أنفسنا والاسترواح إلى شعورنا ، عقب مطاوعة  
السخرية والانسحاق معها ، » (١) .

وقد ترجع الرغبة في السخرية من الغير إلى استعداد الفنان المزاجي  
الذي يكون ذهنه مهيئاً دائماً إلى التعريض بالغير ، والسخرية من الناس ، مع  
انتفاء دافع شخصي معين ، يدفعه إلى ذلك (٢) . ويمكن أن يصل حد هذا

(١) أدلر : العقل للباطن تعريب حافظ محمود ص ٧٦

(٢) المرجع السابق ص ٢٠٠

الدافع أو الوازع إلى أن يكون الشخص نفسه ميالا إلى الشر بطبعه ، يميل إلى أغاظة الناس والتشفي منهم ، اضعفة أصله ومحاولة الانتقام من الناس كرها وحقدا ، وهذا متأصل في الطفولة الإنسانية حينما نرى بعض الصبية يقذفون الحيوانات بالحجارة أو يعتدون عليها من غير مारحة أو شفقة ، لغير سبب ظاهر . و نرى بعض الناس قد تأصل فيهم الميل إلى المشاكسة وجرى في طبعهم إلى حد مضايقة غيرهم ، والشعور باللذة حينما يرون غيرهم يتألمون (١) ، وأوضح مثال على ذلك الحطيفة ، في الأدب العربي و دبرناردشو ، في الأدب الإنجليزي ، فقد كان الأول مغموز النسب محروم الميراث ، لقي بين القبائل ، ونشأ الثاني في بيئة اجتماعية منحلة : فكان أبوه يدمن الخمر ولا يحفل بشيء ، وإذا أصيب بكارثة أو محنة ، رفه عن نفسه بالضحك والسخرية ، كما أن أمه تركت زوجها ، وعاشت مع معلم الموسيقى دون أن تحفل بمهام البيت ، ودون أن تلتق بالآ إلى شئون الزوجية .

\* \* \*

#### ٦ - مقومات السخرية :

ترتبط السخرية في أعماقها بالمجانة ، التي يمكن أن تكون صنو اللامبالاة ، لأن الساخر يجب أن يكون ماجنا - ولو في أعماقه - ويجب أن يكون مباليا بمن أمامه ، وإلا ما استطاع أن يجرؤ تلك الجراءة ، وأن

---

(١) وللتدليل على ذلك : نذكر حادثة الخادمة التي روع لها الناس ونشرتها الصحف ، وملخصها أن خادما عملت بمنازل مصر الجديدة وأخذت تعتدى على بنات مخدومها الصغيرات بأن تفرض بكاثرهن ، ولماسسات في أثناء التحقيق معها قالت : إن أشعر بلذة في ذلك انتقاما عن اعتدى علي وأنا صغيرة .

يضحك منه بالتقليد والمحاكاة ، أو بالحركات ، أو بالألفاظ (في فن الأدب) أو بالرسم (من ناحية فن الكاريكاتور) . ولقد عدّ أدلو Adler المجانة - حين محاولته تحليل العواطف إلى الانفعالات البسيطة التي تتركب منها - عاطفة تتركب من : الزهو ، والمنافسة ، والغرور ، والاعتداء<sup>(١)</sup> .

قال : « المجانة أساسها - على الأرجح - الانفعال المسمى بالزهو مقترنا بالاعتداد بالذات ، ولا نزاع في أننا نحس أننا أسمى من الشخص الذي يشير فينا المجنون ، وإن كان عنصر الدهش أيضاً عاملاً من العوامل التي تبعث على الضحك والمزاح ، كما تتطوى المجانة على عنصر المنافسة ، وأدخل ما تكون الذمكة الطيبة على مشاعرنا حين نتغلب على أصحابنا ، ونتفوق بها على أهل مودتنا<sup>(٢)</sup> » .

وكما أن الساخر يجب أن يكون قوى الأعصاب ، يحمل في طياته روح - اللامبالاة ، أو المجنون ، كذلك لا بد له من أن يكون على قدر كبير من الذكاء وقوة المخيلة أو الخيال الهازل الذي يمكنه من اقتناص أو ابتداء الصرر النادرة التي يستطيع بها إغاطة خصمه من جهة ، وإضحاك نفسه والنام منه ، من جهة أخرى ، ولذلك ارتبط معنى الذكاء بمعنى الفكاهة في لفظه Wit الإنجليزية .

والحق أن الإنسان الذي حرم الذكاء لا يستطيع أن يدفع عن نفسه غائلة الأعداء المعتدين ، فيأخذ في كبت شعوره بالضيق والكراهية والألم ، حتى يخلخل - أو يكاد - أعصابه ، كما حدث لبطل رواية Wuthering Heights المشهورة في الأدب الإنجليزي :

أما إذا كان على جانب من الذكاء والفطنة في تخير الإجابة عما يسد

---

(١) العقل الباطن : لادلر : ترجمة عباس حافظ .

(٢) المرجع السابق .

إليه من سهام النقد أو التحقير والازدراء ، وكل ما يثير الغضب والألم والحق بكلمات لاذعة فكلمة ، فإنها تسرى عنه من جهة ، وتفعل فعلها في عدوه أو خصمه من جهة أخرى ، وتشيع فيما حولها جو المرح الذي يؤمن الشخص الضعيف من غائلة المعتدى ، فتخف وطأة غضبه - ولو إلى حين - بسبب السخرية .

ولعل من أسباب ارتياح الساخر إلى نجاح سخريته ، وإلى أنها سلاح أقوى من « السب » أو « الضرب » أو « المراك » ، أن هذه الوسائل البدائية السافهة الذكر وسائل الإنسان الضعيف الحيلة الذي ينتقل غضبه وشيكا من الإحساس إلى العضلات بطريقة بدائية بسيطة تشمر وتدل على انهيار الشخص النفس لما حدث له من خصمه ، أما الساخر الجلد - الذي يملك نفسه عند الغضب كما قال الحديث الشريف - فيضحك منه لإشعاره بأنه أقل من أن يفعل به ما يسبب لإلامه . ولذلك تمدح العرب قديما بالتجلد كما قال الشاعر :

وتجلى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع

ولذلك وصلت قوة أعصاب برنارد شو وكبرياؤه إلى أنه كان يتحدى الموت وأنه كان يقول : لن أموت قبل أن أبلغ المائة من عمري ! ظنا منه أنه - بسلامة أعصابه - التي كان يربحها أولا فأولا بالتنفيس عن نفسه بسلاحه الرهيب وهو السخرية ، يستطيع أن يحتفظ بصحته وببشاشته حتى يبلغ من عمره المائة عام ، وأى رجل أقوى من هذا الساخر الأيرلندي الذي رد على تلك المرأ الإنجليزية التي جاورته عرضا في القطار ، ولم تكن تعرفه ، فسألته : أأنت الإنجليزي ؟ فرد عليها ساخرا : لا ، إنتى إنسان .

وجلس يوما في مأدبة عشائه إلى جوار فتاة جميلة ، فذار بينهما حديث قالت خلاله الفتاة للفياسيف الأيرلندي :

- لو تزوج رجل مثلك - يا مسترشو - بامرأة مثلى ، لكان لنا  
- بلا شك - أذكي الأبناء وأجملهم .

فما كان من برنارد شو سوى أن رد عليها بقوله :  
ومن يدري يا آنستى ، فربما ورث أبناؤنا حظى من الجمال ، وحظك  
من الذكاء !!

## ٧ - السخرية فى البلاغة العربية :

- إن الموضوع الذى نبجته الآن يمس أكثر ما يمس - من العلوم العربية -  
علم البلاغة ، ولذلك سأحاول أن أدرج نصيبه من عناية البلاغيين القدامى  
والمحدثين وإلى أى حد فهموا كلمة «سخرية» ، أو مترادفاتهما ، وإلى أى  
حد استعملوها .

\*\*\*

فإذا بدأنا البحث فى تاريخ الكلمة نفسها - أو مرادفاتهما - وجدنا أن  
النصوص الجاهلية التى ذكرت فيها قليلة جداً<sup>(١)</sup> وأقدم ما يعتمد عليه فى ذلك  
هو القرآن الكريم : إذ ذكر جميع المترادفات تقريباً التى تعنيها فى هذا  
الموضوع : سخر ، هزى ، ضحك . ولم يكن نهيب هذه الكلمات من  
كثرة الاستعمال فى الأدب الأموى بأحسن منها فى الأدب الجاهلى ، فترى  
الكهيت يقول فى إحدى الهاشميات :

يعيوننى من خبثهم وضلالهم على حجكم ، بل يسخرون وأعجب<sup>(٢)</sup>

\*\*\*

(١) انظر أبيات عمرو بن شعيب التى رواها أبو حاتم السجستاني فى كتاب  
المعمرين من العرب ص ٣٣ ونقلها د . ناصر الأسد فى مصادر الشعر ص ٢٣١ .  
تمزأت عرسى راسفتكرت شيبى ، ففيها جنف وازورار =

وأقدم كتاب أدبي ذكرت فيه هذه الكلمة هو ترجمة ابن المقفع لكليلة ودمنة في أوائل العصر العباسي ، إذ ذكرت هذه العبارة على لسان الملك وكان يعنى بها معناها الأدبي : « إنك كائنك نربى يا إبلاذ » (١) .

أما من الناحية النقدية التي تعنينا ، فنعثر على الكلمة في طبقات ابن سلام إذ يرد فيه هذا النص : « فكان من الشعراء من يتأله في جاهليته ويتعفف في شمره ، ولا يستهتر بالفواحش ولا يتهمك في الهجاء ، ومنهم من كان يغنى على نفسه ، ويتعمر ، ومنهم امرؤ القيس والأعشى ، وكان الفرزدق أقول أهل الإسلام في هذا الفن ، وكان جرير - مع إفراطه في الهجاء - يعنى عن ذكر النساء ، كان لا يتشعب إلا بامرأة يملكها . فترى (٢) فيه كلمة «تهمك» التي تعتبر صفوا الكلمة سخرية أو مرادفة لها ، ولكن معناها في هذا النص مبهم إلى حد ما : لأنها لم ترد في النص صراحة الجاهلية بالمعنى الصريح المفهوم من كلمة سخرية (٣) ، ولم تذكر مرة واحدة في القرآن الكريم على الرغم من أن أخواتها من الكلمات الأخرى المرادفة لها قد ذكرت في عدة مواضع منه ، وإذا حاولنا أن نعرف ما يورحى به النص من معناها ، وجدنا أنه معنى أخلاقي أكثر مما هو فنى أدبي ، يدل عليه ما قبله وما بعده من ألفاظ ، وما تحمله تلك الألفاظ من معان : يتعفف ، لا يستهتر بالفواحش يتعمر ، يعنى . إذن فالكلمة ذكرت بصدد الهجاء البعيد عن الفحش ، والروح المحيطة بها روح أخلاقية بحتة . . . أى أنه يمكن أن يفهم من كلمة

---

لا تكثرى هزما ولا تعجبى فليس بالشيب على المرء عار  
عمرك ، هل تدري أن الفتى شبابه ثوب عليه معار  
وانظر هاشميات السميت : تحقيق نعمان محمد أمين طه ص ٤٠ ، ٤١ .

- (١) كليلة ودمنة : ( طبعة دار المعارف سنة ١٩٤٢ ) .
- (٢) طبقات الخوارج الشعراء : لابن سلام ص ١٥ .
- (٣) بل وردت بمعنى عدم قول الحق أو التخابث (أنظر مادة فلع به في اللسان)

«التهمك» الإغاطة بذكر الفعل الفاحش أو العورات أو السباب الخلق أو ذكر النساء ورميهم بالفاحشة صراحة كقول - سويد بن أبي كاهل في هجائه بنى غبر :

من سره . . . . . بغير مال فالغبريات على طحال<sup>(١)</sup>

ويؤيد ذلك ما ورد عن امرئ القيس وخشه في معلقته واستهتاره . وكذلك ما عرف عن الفرزدق الذى قال عنه جرير : « تدليت زنى من ثمانين قائمة » .

ويمكن أن يدخل « القول بالفاحشة والهجاء بها » في موضوع « التهمك » ولكنه لا يعنى « طريقة التهمك وأسلوبها » تلك الطريقة التى تميز « التهمك » كأسلوب أكثر مما نميزه كموضوع ، لأن الهجاء والتهمك تقريبا - وإلى حد كبير - يشتركان في الموضوع ، ولا يشتركان في الطريقة التى يتناول كل منهما هذا الموضوع بها .

هذا من ناحية تخريج النص أو تحليله ، فإذا قرأنا تعقيب أبى عمرو ابن العلاء على قول زهير :

فتغلل لكم مالا تغل لأهلها قرى بالعراق من قفيز ودرهم

استطعنا أن نستبعد معنى « التهمك » الأسلوبى الذى يعنيه ابن سلام فى النص ، قال أبو عمرو بن العلاء تعقيبا على بيت زهير : هذا منه تهكم<sup>(٢)</sup> وكيفما كان الأمر ، فلا نستطيع أن نفهم من النص أكثر مما توحى به العبارة برمتها ، وكذلك نستطيع أن نقول إن الكلمة كانت ولا شك مفهومة معروفة

(١) اللسان : مادة غبر .

(٢) انظر ديوان زهير : ( طبعة دار الكتب المصرية ) ص ٢١ حيث ينسب ذلك إلى الأصمعى . وفى شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ص ٢٧١ نسبته إلى يعقوب قال : هذا تهكم أى مزه .



عند الجاهليين والإسلاميين ، ولكنها من الناحية النقدية ، كانت قليلة الاستعمال بدليل عدم إيرادها كثيرا في الأحكام النقدية أو في التعليق على الآيات في كتب الأدب أو النقد .

وبسبب ميل الجاهليين - ومعهم الإسلاميون الأوائل - إلى التعبير المادى فإن الزبرقان لما غضب من الخطيئة حينما سخر منه قائلا :

دع المكارم لا ترحل لبغيتهما واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى

وعرض الأمر على حسان بن ثابت ، قال : « لم بهجه بل سلاح عليه » . وفى رواية : « بل ذرق عليه » . وهذا يدل على فهم الجاهليين لقوة أثر السخرية ولو أنهم لم يهربوا عنها التعبير الذى تستحقه ، بدليل أنه شبهها بالسلاح ، (١) .

وأقدم من تعرض للموضوع تعرضا ما ، هو ابن المعتز (ت سنة ٢٩٦هـ) إذ ذكر فى كتابه « البديع » أنواع البديع الخمسة التى عرفت منذ الجاهلية فى رأيه - ثم ذكر « صنوفا ثانوية » أطلق عليها كلمة « محسنات » ، ومنها : الاعتراض والانتقاص وتأكيد المنح بما يشبه الذم وتجادل العارف

---

(١) وما رلت أعجب لنظائر عمر رضى الله عنه بأنه لم يفهم القصة الكامنة فى بيت الخطيئة مع أن السخرية كانت واضحة ولم تكن شيئا جديدا على العرب أو على الطبيعة البشرية ، ولكن عمر - ذا العقاية القضائية - لم يجد فيها دليلا ماديا يدين به الخطيئة ، ولذلك استدعى خبيرا فى فهم الشعر . وهناك عدة تعبيرات لعدم فى هذا الشأن : فيقال إن عمر قال : ما أسمع هجاء واسكنها معاتبه ( ديران الخطيئة ص ٢٠٧ ) وفى طبقات الشعراء لابن سلام ٩٨ . فقال عمر لحسان : ما تقول ؟ أهجاء ؟ وعمر يعلم من ذلك ما يعلم حسان ، ولكنه أراد الحجة على الخطيئة . وفى موضع آخر : فقال له عمر : ما أعليه هجاءك ، أما ترضى أن تكون طاعما كاسيا ؟ .

والتعريض وحسن التضمين والهزل الذي يراد به الجلد . وقد هجر عليها ابن الماتز وحده ، وله هذه اصطلاحات (١) . وإن تأكيد المدح بما يشبه الذم والتعريض والهزل الذي يراد به الجلد لتدخل ضمن صيغ السخرية ، ولكن ابن المعتز يعتبر هذه الصنوف مجرد محسنات ، ولا يحاول أن يتناولها من زاوية الهجاء الضاحك أو غير المباشر ، وإن كان يقترب بما نحن بصدد البحث عنه حين يذكر النوع الأخير من المحسنات ، وهو الهزل يراد به الجلد . ومن عجب أن النقاد في كثير من الأحيان يفتنون إلى شدة قوة السخرية وعنف أثرها إلى حد أنهم ينعتون المكاتب المولع بها بعبارة « روح السخرية تسيطر عليه أو على كتابته ، ويقرنون لفظة السخرية بـ « روح » لعنف أثرها المعنوي والشعوري الذي يشيع في الساخر والسخرية معا ، ولكن ابن المعتز لا يحاول الكلام عنها أو إدخالها في « البديع » كما سماه متضمننا الاستعارة التي هي إحدى الأدبية الزاهية التي ترتدي بهاء السخرية .

وقد تبعه بعد ذلك مؤلف كتاب نقد النثر (٢) فقسم الشعر العربي إلى مديح وهجاء وحكمة وطمو ، والظاهر أن القسم الأخير هو ترجمة للكلمة اليونانية Comedia التي هي أحد قسمي الشعر الاغريقي المسرحي ، والكوميديا عند اليوناني كانت تستخدم أسلوب السخرية ، ولكن ليس معنى هذا أن مؤلف نقد النثر كان يفهم الكوميديا اليونانية على حقيقتها إلى حد أنه يعني بكلمة « طمو » قسما من أقسام الشعر اشتغالها على السخرية ، بل أغلب الظن أنه يقصد بها الفكاهة أو ما كان يسمى وقتذاك « بالمزاح » .

(١) اراعي سلامة : كتاب الخطابة لأرسطو ( الطبعة الثانية ) ص ٦٣ ( نشر الانجلو ) .

(٢) وقد أثبت البحث العلمي الحديث أنه ليس لقدامة بن جعفر .

وما دمنا قد وصلنا إلى هذه الكلمة وإلى هذا الكتاب الذى ألف فى القرن الرابع الهجرى ، فيحسن بنا أن نذكر المؤلفات الأدبية التى ذكرت شيئاً مما يتصل بموضوعنا من قريب أو من بعيد وهو « المزاح » ، وأهمها كتاب « نثر الدرر » ، للآبى المتوفى سنة ٤١٢ هـ ؛ وقد تكلم عن المزاح عند كثير من الطوائف : الخلفاء والصحابة والأشراف والمتنبيين ، والمدنيين والطفيليين وغيرهم . والكتاب بفصوله أو أجزائه السبعة يعتبر موجزاً شاملاً لكثير مما جمعت وحوث صدور مثات من الرواة فى القرون الأربعة الأولى بعد الهجرة ، وقد ذكر كثيراً من النوادر أو القصص أو الأجوبة الساخرة تحت اسم « المزاح » ، وهذا هو الاسم الشائع الذى كان يطلق على كل ما يبعث الإنسان على الضحك ؛ وهو ما يقابل فى اصطلاحنا الحديث « النكتة أو الفكاهة » ، ولا نغتر فى هذا الكتاب على محاولة من الكاتب من ناحية التبويب أو التعليق للتمييز بين نوعى الفكاهة إذ أن أحدهما يرمى إلى الإضحاك لحسب ، والثانى يرمى إلى نوع أسمى وأجل وهو السخرية أو النقد الرمزي الضاحك . وقد جمعت نوادر أبى العيناء فى هذا القرن الثالث الهجرى - وبرغم أن روح السخرية تسيطر على أغلبها ، لم يطلق عليها إلا لفظة « نوادر » . كذلك كان يعاصره الحمدونى الذى تذكر كثيراً بآبن حرب وسعيد ، ولم تنعت أشعاره إلا بأنها أشعار ظريفة أو « مضاحك الأشعار » .

غير أننا نجد فى أحد كتب الثعالبى المتوفى سنة ٤٤٠ هـ - وهو فقه اللغة - فصلاً بعنوان « فى المدح يراد به الذم » ، فيجربى مجرى التهكم والهزل ، ولعل الثعالبى أول من ذكر أمثلة توضح غرضه ، ومنها آيتان من القرآن الكريم قال : العرب تفعل ذلك فنقول للرجل تستعجله : يا عاقل ، والمرأة تستعجلها يا قرا<sup>(١)</sup> ، ولم يستطع أبو هلال العسكري على الرغم من عنايته البالغة بتعداد

صنوف البديع إلى حد فات جميع السابقين له ، لم يستطع أن يذكر - بما  
نحوض فيه - إلا الكناية والتعريض ، وبجاهل العارف ، ومزج الشك  
باليقين<sup>(١)</sup> . ونذكر للثعالبي أيضا كتابه « الكناية والتعريض » ، الذي ذكر  
طرفا من كنايات العرب وعدد منها أمثلة كثيرة تستغرق معظم صفحات  
الكتاب ، ثم أمثلة قليلة للتعريض ، ولم يحاول أن يعقب عليها أو أن يذكر  
نكتها الأدبية<sup>(٢)</sup> .

ثم نجد ابن رشيق القيرواني ( ت سنة ٤٥٦ هـ ) يذكر طرفا من أنواع  
البديع التي تناوّلها من سبقه بالذكر ، ويذكر منها « تركيد المدح بما يشبه الذم » ،  
ويسميه باب الاستثناء ، ولم يحاول أن يذكر عكس هذا الباب ، وهو  
ما يدخل في موضوعنا<sup>(٣)</sup> .

أما البلاغيين ، فلعل القاضي عبد الجبار ( ٣٢٠ - ٤١٥ هـ ) في كتابه تنزيه  
القرآن من المضاعن ( ص ١٠٨ ومتشابه القرآن ٢١٥ ) هو ، من فطن إلى  
الاستعارة التهكمية دون أن يشير إلى هذا الاصطلاح وذلك حينما تعرض  
لتأويل الآيتين الكريمتين من سورة النساء ١٦٨ ، ١٦٩ « إن الذين كفروا  
وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ، ولا يهديهم طريقا إلا طريق جهنم » . وكذلك  
في قوله تعالى : « فأثابهم غما بهم » . ( آل عمران ١٥٣ ) وسمى القاضي هذين  
الموضعين مجازا .

ونجد بعد ذلك تليذه الزنجشري ( ت سنة ٥٢٨ هـ ) صاحب الكشف

(١) وهما الفصلان الثاني عشر والثالث والعشرون من الباب التاسع الذي شرح  
فيه أنواع البديع .

(٢) الثعالبي : الكناية والتعريض ( طبع مطبعة السعادة سنة ١٩٠٨ م ) .

(٣) ابن رشيق القيرواني : العمدة جزء ٢/٩٩

يبث في ثنايا تفسيره شرحاً أدبياً للسخرية - حينما يفتن إلى وجودها في آية من الآيات كقوله ... هذا من معاريض الكلام، ولطائف هذا النوع، لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضعة من علماء المعاني، والقول فيه: أن قصد إبراهيم لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، إنما قصد تقريره لنفسه، وإثباته لها على أسلوب تعريضي، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة، وتبكيهم<sup>(١)</sup>.

وقد يكون الإمام الفخر الرازي (٥٤٤ - ٦٠٦) هو أول من حاول أن يطلق عليها اسمها الاصطلاحي حينما سماها الاستعارة العنادية.

وفي القرن السابع الهجري نلتقي بالقزويني (٦٦٦ - ٧٣٩) مؤلف الإيضاح والتلخيص، وذكر فيه، تأكيداً للذم بما يشبه المدح، والتعريض - وقد سماه القزويني التوجيه - والهزل الذي يراد به الجذ، وتجاهل العارف. ونرى أنه لم يصف جديداً عن تقدمه، وكذلك لم يحاول الإفاضة في تحليل هذا النوع من البديع - كما سماه - بما يدل على ذوق وتبصرة<sup>(٢)</sup>.

أما معاصره النويري (ت ٧٣٣) فقد ذكر في كتابه نهاية الأرب، بعض أنواع من السخرية منها: التعريض، وتأكيد اللذم بما يشبه المدح، غير أنه زاد على من سبقه: الهزل، والتندير، والنهك، وبذلك يكون أول من ذكر هذه الأنواع بأسمائها، ويسوق أمثلة عليها. وما يعاب عليه عدم اهتمامه بالتعقيب ومحاولة سرد أمثلة كثيرة بصفة أول من ذكرها من البلاغيين<sup>(٣)</sup>.

(١) الرغشري: تفسير الكشف ٤٩/٢

(٢) الفخر الرازي: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز ص ٩٨ وانظر «البلاغة:

تطور وتاريخ، للدكتور شوقي ضيف ص ٢٨٢.

(٣) النويري: نهاية الأرب الجزء السابع: الصفحات ٦٠، ١٢٢، ١٢٤،

وكذلك بمن عاصر القزويني والنويري ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١) فلم يذكر في كتابه والفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان إلا الهزل الذي يراد به الجذ ، (١) .

أما ابن حجة الحموي - صاحب خزانة الأدب - فقد أطال بعض الشيء فيما ذكره من أنواع تتصل بالسخرية كالهزل الذي يراد به الجذ ، والتهكم وتجاهل العارف ، والنورية ، والتثنيكيت ، والمدح في معرض الذم ، والتعريض وأسهب في الكلام عن الأنواع السابقة بما يدل على فهم أدبي سليم حين سرده الأمثلة المختلفة ومحاولة تحليلها وبخاصة حين الكلام على التهكم والهزل الذي يراد به الجذ وتجاهل العارف . (٢) وما يدل على ذلك قوله :

« وهذا النوع - أعني به الهزل الذي يراد به الجذ - ما سبكه في قوله إلامن لعلقت ذاته ، وكان له ملكة في هذا الفن وحسن تصرف » (٣) .  
هذه ملامح من السخرية عند البلاغيين منذ العصور الأولى ، لم نستطع سردها بالتفصيل ، لأن الأقدمين لم يهتموا بالكتابة عنها من الناحية البلاغية ، ولذلك اكتفيت بهذا القدر بعد قراءة كثرة البلاغة العربية القديمة .

أما في العصر الحديث ، فمبلغ علمي أن الأستاذ عباس محمود العقاد كان أول من قرأ المؤلفات الغربية ، وحاول الكتابة لأول مرة عن ملكة السخر عند المعري ، وقد صدرها بهذا السؤال : لم يسخر الإنسان ؟ وكان بدؤه

(١) ابن قيم الجوزية : كتاب الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان (طبعة الخانجي سنة ١٣٢٧ هـ) ص ١٦٢ .

(٢) ابن حجة الحموي : خزانة الأدب (المطبعة الخيرية سنة ١٣٠٤ هـ) الصفحات ٥٦ ، ٩٨ ، ١٢٢ ، ٢٣٩ ، ٢٧٥ ، ٤١٩ ، ٤٢١ .

(٣) المرجع السابق ص ٦٩ .

الكتابة في الموضوع سنة ١٩١٢م في « خلاصة اليوم » ، ثم كُتب عدة مقالات نشرها في كتابه مطالعات <sup>(١)</sup> . ثم كُتب الشيخ عبد العزيز البشري مقالا عن « مرد النكتة » ، سنة ١٩٢٧ عقب عليه العقاد بمقال طريف عن رأيه في النكتة ثم جمع آراءه في المضحك والسخرية وما يتصل بهما في كتابه « جحا الضاحك المضحك » وصدره بمقدمة طريفة بلغت صفحاتها أكثر من نصف الكتاب <sup>(٢)</sup> وقد تعرض العقاد أيضا للكلام عن النكتة المصرية في أثناء كلامه عن طبيعة الأمة المصرية في كتابه « سعد زغلول » ، فقسم النكتة إلى « نكتة دعابة ونكتة تهكم » <sup>(٣)</sup> .

وكتب بعده المرحوم الدكتور عبد اللطيف حمزة مقدمة لكتابيه « حكم قراقوش » <sup>(٤)</sup> ، تحدث فيها عن المزاح أو الهزل Comique والفكاهة أو التندر Humeur والذع أو التهكم Ironie وقد ذكر فيها أمثلة غير قليلة من الأدب الأجنبي والأدب العربي وحاول محاولة لا بأس بها التعريف بكل مصطلح مما سبق . غير أنه لم يترجم المصطلحات الأجنبية الفنية ترجمة دقيقة فإن التندر وهو الاستهزاء والسخرية غير ذكر النوادر والفكاهات الذي يعنيه الاصطلاح اللاتيني Humour وكذلك فإن المزاح لا يمكن أن يوضع ترجمة لكلمة Comique والدكتور حمزة تكلم في كتابه السالف أصدره سنة ١٩٥٤

---

(١) عباس العقاد : مطالعات في الكتاب والحياة ( الطبعة الثانية ) نشرتها المكتبة التجارية ) ص ٨٩ - ١٠٢

(٢) صدر الكتاب عن دار الهلال في أغسطس سنة ١٩٥٦ العدد ٦٥ من بمجلة كتاب الهلال .

(٣) طه حسين : فصول مختارة طبع دار الطباعة الحديثة ١٩٥٦ ص ٢٥٠-٢٥٤ .

(٤) عبد اللطيف حمزة : حكم قراقوش : الحلبي سنة ١٩٤٥ ص ٧٤

بعنوان : د ابن ماقى ، <sup>(١)</sup> أضاف إليه كثيرا من السخریات المختلفة فى موضوعات شتى فى الآداب الاجنبية .

ولقد أفرد الأستاذ أحمد عطية الله <sup>(٢)</sup> ، الضحك ، بكتاب خاص أطلق عليه ، سيكولوجية الضحك ، تكلم فيه بإسهاب عن طبيعة الضحك وكيف يضحك الإنسان وبواعث الضحك وأنواعه التى خص منها ضحكة التهكم وأنواعها ، وضحكة الأزدراء ، وضحكة الهزء ، وضحكة السخرية . غير أنه لم يحاول التمييز بين هذه الأنواع المتعددة من الضحكات تمييزاً أدبياً .

وقد ألف الدكتور شرقى ضيف كتابه ، الفكاهة <sup>(٣)</sup> فى مصر ، صدره بمقدمة موجزة عن الفكاهة ، وتعرض فيه - من بعيد - إلى صلتها بالسخرية .

وقد ظهر فى نفس العام كتاب ، سيكولوجية الفكاهة والضحك ، للدكتور زكريا إبراهيم عن مكتبة مصر بالفجالة ، أفاد المؤلف من الدراسات النفسية التى صدرت فى القرن الماض إفادة ممتازة .

ثم صدر فى سنة ١٩٦٠ م كتاب ، أسلوب التهكم فى القرآن الكريم ، حاول فيه مؤلفاه سرد الآيات البيّنات فى هذا الموضوع بعد التقديم بمقدمة مترجمة عن دائرة المعارف البريطانية لمادة Humour .

وأخيراً أصدرت مجلة الهلال عدداً خاصاً عن ، الفكاهة ، سنة ١٩٦٦ م

---

(١) صدر عن دار أخبار اليوم سنة ١٩٥٤ م .

(٢) أحمد عطية الله : سيكولوجية الضحك : ( عيسى الحلبي سنة ١٩٤٧ )

ص ١٢٩ ، ١٦٠ .

(٣) صدر عن دار الهلال سنة ١٩٥٨



يحتوى على ثمانى عشرة مقالة عن الفكاهة فى الأدب وغيره كالرسم الكاريكاتورى . هذا ، وقد جمع الدكتور أحمد الحوفى فى كتاب له عن الفكاهة طائفة من النوادى معتمدا على جل كتب الأدب القديم من غير أن يعلق عليها .

#### ٨ - أساليب السخرية :

أما وقد اتفينا من محاولة تعريف كلمة « سخرية » ، وموضوعها فى البلاغة العربية ، فلنحاول أن نعدد أساليبها المختلفة ، أو أنواعها .

وعلىنا قبل البدء فى ذلك أن ندرس مجالها الحوى الذى تنبع فيه وهو الفكاهة أو « ما يضحك » .

والمضحكات تنقسم من ناحية منبعها إلى قسمين :

أحدهما : يكمن فى الطبيعة كالنبع الذى يتفجر من الأرض حيا متدفقا ويتخلق حينذاك فى الفرد ، وفى الظروف المحيطة به ، وفى كلماته وفى طبيعته ، وفى حرفته .

ودنه العناصر أو يثبات الضحك السابقة : يضحك منها الناس ، ويفطنون إلى وجودها بسهولة ، من غير حاجة إلى وسيلة لمعرفة أو خلقها ( أعنى ابتكارها ) ويدركونها بما فيهم من صفة طبيعة تسمى « إدراك الفكاهة » .

وثانيهما : يصنعه الناس أو يحاولون أن يصنعوه ، وليس كثير منهم بمستطيع ذلك وإلا ما هم فئة خاصة يسرى فى كيانهم استعداد خاص : فى لغتهم ، أو فى شكلهم ، أو حركاتهم ، ويصطنعون لذلك أدوات مختلفة كالملابس والأصباغ والحركات الشاذة وغيرها مثلا يفعلها المهرجون فى المسارح المختلفة أو من لديهم المقدرة على إرسال « النكتة » أو ارتجالها ويقال إن لديهم « إحساسا فكاهيا » ، وهو ما نسميه « تجوزا » خفة الظل ، أو خفة الدم .

والفرق الثاني من المضحكات إما أن يهدف إلى الإضحاك فحسب وحيثئذ يطلق عليه : الفكاهة أو المزاح أو الهزل .

وإما انتقد الناس في قالب مضحك أو للسخرية بهم وبطاق على هذا النوع التندر أو العبث أو اللذع أو التهمك أو الاستهزاء .

والمضحك سموة واضحة يكشفها الذهن بين الأفكار : كالتناقض العقلي ، أو الاستحالة المحسوسة وما إلى ذلك ؛ وهى تعريفات إذا انطبقت فعلا على جميع أشكال المضحك ، فإنها لن تقول لنا أبدا : «لم يضحكنا المضحك»<sup>(١)</sup> .

ولعل الدافع إلى السخرية : هو محاولة المجتمع أن يجعل الشخص يتلاءم مع الحياة الاجتماعية : فإن لم يتلاءم معها فقد يكون ذلك راجعا إلى تصلب في الجسم ، أو تصلب في الفكر ، أو تصلب في الطبع .

إذ المجتمع يقتضى منا انتباهها دائم اليقظة ، يميز حدود الموقف الراهن ، وشيئا من المرونة في الجسم والفكر ، نجعلنا قادرين على التلاؤم<sup>(٢)</sup> مع هذا الموقف ، فالتر (التصلب) والمرونة هما القوتان المتكاملتان اللتان تستخدمهما الحياة : فإذا أعوزا الجسد كانت أنواع الرزايا ، وكانت العادات والأمراض كالآحذب الذى تعود ظهره الانحناء السبي ، ودوام هو على هذه العادة نتيجة عناد مادي أى نتيجة تصلب .

---

(١) برجسون : الضحك ص ١٦ .

(٢) انظر في ذلك كلمة معاوية : بيني وبين الناس شعرة إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها .

وإذا أعوزا الفكر : كانت شتى درجات الفقر الروحي وشتى أشكال الجنون ، وأعظم مثل لذلك شخصية الداهل دون كيشوت التي ابتدعها سيرفانتز .  
Cervantes تلك الشخصية التي علق فكرها بالآوهام وعاشت فيها .

وإذا أعوزا الطبع ، كان فقدان التلاؤم مع الحياة الاجتماعية وهو أصل الشقاء ، وسبيل الجريمة في بعض الأحيان : ونضرب مثلاً أو أمثلة لذلك بشخصيات : البخيل والمقاسر ، والغيور ، والحجول .

فالمجتمع يقتضى منادائهما : مرونة في الجسم ، ومرونة في الفكر ، ومرونة في الطبع ، ومادام المجتمع لم يصب بأذى ، فإنه يجيب على التصلب البسيط بمرحلة بسيطة ألا وهي الضحك ، فالمجتمع يرد أن يزيل بعض هذا « التصلب » في الجسد والفكر والطبع حتى يوفر لأعضائه أكبر مرونة ممكنة وأعلى اجتماعية ممكنة ، فهذه المرونة هي : المضحك ، والضحك : قصاصها .

\* \* \*

إذن فالمضحكات التي يبتدعها الفنان أو المضحك أو الساخر تكون منتزعة من فرد متصلب منحرف - كما قلنا سابقاً - أو من ظروف مختلفة محيطه به تنكرر أو تنقلب رأساً على عقب وتأتي بعكس المنتظر أو يتدخل بعضها في بعض كما إذا تبادل ضدان كشيخ وقسيس أو امرأة ورجل بعض ملابسهما وهذا ما يسمى بتداخل السلاسل ، أو ينتزع من الكلمات التي تضحك بذاتها لربيتها الصوتي الخاص بها أو بوضعها متجاوزة بصورة مضحكة وكذلك ينتزع المضحك من الطبع المنفصل عن البيئة المحيطة به أو البعيد عنها ، وأخيراً ينتزع من الحرفة التي يمتثلها الإنسان في حياته وتسيطر عليه ألفاظها ومقتضياتها في جميع أحوال حياته الاجتماعية ، حتى يبدو هذا الإنسان المضحك كأنه داهل

داخل إطار حرفته كل الذهول ، وسيطرت عليه كل السيطرة فنرى أن الذى ينطق دائماً ليس صديقنا فلانا بل محترف هذه المهنة الذى رانت عليه عقليا وصورتيا .

\* \* \*

والصور الساخرة أو صور الفنان الساخر يتبدعها بعد إضافة روحه ، أو أعمال خياله الهازيء أو الضاحك فيها ، فيصبغها بصبغة فنية جديدة ، أو يجعلها تنبض بنبض يلفت نظر من لم يكن ملتفتا إليها أو تزيد لفت نظره إليها : مثل الفنان الذى يرسم منظراً جميلاً ويضعه فى لوحة أو إطار ، ويجعله أمام الأعين على الدوام : إذ ربما كان هذا المنظر الطبيعي موجوداً فى الطبيعة الحية أمام الناس ، ولكنهم يمرون عليه من الكرام ، أما رسم الفنان إياه ، فقد ألفت أنظارهم إليه . وبخاصة حينما بث فيه " نفسه " أو ما نسميه عبقريته أو شعوره أو إحساسه بهذا المنظر ، فعمل الفنان أو ابتداعه شيئاً جديداً هو الطبيعة الحية مضافاً إليها جهد النفس البشرية أو العبقرية المعبرة .

كذلك الساخر : فهو يضيف نفسه أو شخصيته أو فنه أو عبقريته إلى هذه الصورة المسخورة منها ، وبذلك يخلقها خلقاً جديداً ، وهو ما يسمى بالإبداع أو الخلق : فهذا رجل كسيح يمشى أمامنا . . . ربما عطفنا عليه لعاهته ، ولكننا نسمع عنه أنه مجرم يفرض إتاوات على الناس ، ويرتكب حوادث إجرامية ضد المجتمع فيتناولوه الساخر ، ويحيله من صورة صماء إلى صورة متحركة مضحكة ، تجعلنا نضحك منه ونهزأ به فتتشقى به بعد أن كان يبعث فى أنفسنا الرثاء أو الخوف أو كليهما .

وهكذا يصنع الفنان من المواد الأولية .. إن صح هذا التعبير - بإطلاء على بعض النماذج البشرية وغيرها .. يصنع منها مراد مركبة منها تركيباً لا يقدر

عليه إلا الساخر ، وينتهي بها إلى الصور والحوادث والحركات والنفسيات المضحكة . . . وهو لا يضحكنا من الجسم كشيء مادي فحسب ، بل كطرف أو وعاء فيه روح معوجة أو شاذة أو غير مستقيمة ، لأن الجسم .. ميتا .. لا يمكن أن يضحك أو يهزأ به ، لأنه أصبح في دنيا العدم بالنسبة لنا كأحياء متحركين ، نحر كننا وتسيطر علينا روح ما داخل أجسامنا .

\*\*\*

## ٩ - صور السخرية أو أساليبها :

حاول كثير من الكتاب والنقاد الأوربيين الإحاطة بصور السخرية والفكاهة المختلفة ، وترتيبها زمنيا حسب نشأتها منذ القدم ، ثم تدرجها على مر العصور ، فن هؤلاء آرثر سيد جويك Arthur Sedgwick وتابعه <sup>(١)</sup> G. G. Sedg. : وحاول مناقشة تاريخ الكلمة وتطور معانيها ولم يستطع معرفة تاريخها قائلا : د فحتى لو لم يكن لصبرك أو لوقتي من حدود فاني غير مستطيع سرد القصة بأكملها ، لأنني لا أعرفها ، ثم قال في موضع آخر : د وكما قلت آنفا ، فربما كانت السخرية النحوية المبينة على قواعد اللغة .. هي أول صورة للسخرية نقابلها ولا نظن أنها أقدم صورها ، وهي تبدو .. في الحقيقة .. مرحلة ثالثة أو رابعة من مراحل تطور السخرية التي تعدها حسب رأيك <sup>(٢)</sup> .

وقد حاولت دراسة صورها دراسة تجريدية ، أى أنشئ أو أحاول ابتداء بعضها من جهة ، وأن أنعمق الناس في سخرهم على اختلاف أسنانهم وطبقاتهم وحالاتهم النفسية والثقافية والاجتماعية وطباعهم وأمزجتهم من جهة أخرى ، حاولت ذلك ردحا من الزمن : قد يطول حتى يشمل عمري

1 - G.G. Sedgwick : OF Irony , Toronto 1948 P : 4

2 - Ibid P : 6

كله بما فيه من ذكريات مفعمة بالسخرية ، وقد يقصر حتى لا يزيد عن الست  
السفرات التي استغرقها البحث ، فخرجت بهذه الأنواع التي أحاول الآن ترتيبها  
ترتيباً زمنياً بقدر الإمكان .

فالول صور السخرية وأقدمها في تاريخ البشر وأكثرها انتشاراً بين العامة  
هي السخرية بالمحاكاة ، في الكلام والمنشئ والحركات الجسمية وأنواع  
السلوك المختلفة ، أى في السمات البارزة التي تميز شخصية ما من الشخصيات  
كأسلوب ما من أساليب الكتابة التي يمتاز بها كاتب من الكتاب أو خطيب  
من الخطباء أو شاعر من الشعراء في قصيدة ما من قصائده كما فعل حافظ إبراهيم  
معارضاً شوقياً في قصيدته المشهورة « عن أى نغر تبسم » . وهذا النوع من  
تقليد القصاص وإحالة الجاد منها بمعانيه إلى هزل أو مضحك منتشر في الآداب  
الأوربية أكثر من انتشاره في الأدب العربي .

والسبب في أن « التقليد » يكون مدعاة إلى السخرية هو أن الساخر المقلد  
ينقل شخصية المقلد برمتها ويجعلها رداء له يلبسه ويتأجج به كيفما يشاء  
فكأنما هو يمسحه وكأنما جعل شخصية الألفغ متبلورة أو مركزة في لثغته .  
والفنان لا يكتفى بمجرد التقليد كعامة الناس أو الأطفال بل هو يولد منها  
صوراً متفرعة كثيرة كلها مشتقة من اللثغة أو من صورة هذا الألفغ وروحه  
العالم .

وقد ذكرت دائرة المعارف الأمريكية (الأمريكانا) هذه الصورة كصورة  
من أقدم صور السخرية عند الهنود والهنود الحشيين .

أما « المناداة بالألقاب » فهي من أقدم الصور السهلة الساذجة في السخرية  
وتستعمل فيها أسماء الحيوانات كالألقاب كقولهم للسمين يادرفيل ، ثم استعمال هذا  
اللقب .. فيما بعد .. اسمياً يطلق على هذه الشخصية وتعرف به ، وكذلك استعمال الصفات  
المعكوسة وهي عكس ما يتصف به الشخص حقيقة كالألقاب ثم أسماء .. تتكرر

كثيرا في عور منوعة ومناسبات مختلفة حتى يلصق هذا الاسم بهذه الشخصية كإطلاق صفة الهزيلة النحيقة على المسكينة ، والسبع ( أفندي ) ، على النحيق ، ويمكن استعمال ألفاظ أجنبية لزيادة المزج بإدخال عنصر الغرابة كاستعمال ( مدموازيل ) للعجوز الطائفة في السن وكذلك استعمال أسماء الرذائل وإضافتها إلى من يدعون التمسك بأهداب الفضيلة كإطلاق « الشيخ متلوف » - هزءا وسخرية - على الفاسد ، والأمين على اللص . . . . . وإنما لا نحس جرس السخرية من أحرف فحسب بل من الجو المحيط بها ، وأعني به الجو الاجتماعي الذي يفهمه السامع أو القارئ : فالكفار قد هزئوا - زمن الردة - بأبي بكر فسموه « بأبي النصيل » .

ومن أقدم طرق السخرية وأكثرها شيوعا السخرية بالصوت ، وتلويحه ورفع ، وخفضه وإعطائه نبرات خاصة معروفة يفهمها السامع غالبا ويعرف صفاتها التي لا يمكن أن ينقلها القلم إلى الطرس . وكذلك السخرية بانفراج أساور الوجه وتحريك عضلاته ، أو بهز الرأس أو الكتفين أو بالغمز والعين . . .

وقد يكفي للسخرية بالشخص أن تنظر إليه - صامتا - ثم تأخذ في إدامة النظر إليه وأنت تبسم ابتدامة السخرية أو تضحك ضحكة السخرية . وأعتقد أن هذا النوع أقدم أنواع السخرية ، ولكن لا يمكن إثبات ذلك نظرا لأنه لا يسجل على الورق كتابة أو على الحجر نقشا .

أما النوع الرابع فهو : معالجة الشيء الحقير كأنه عظيم ، أو ما يسمى في الأدب العربي « الذم بما يشبه المدح » ، ويدخل فيه أيضا « تجاهل المعارف ، وكل ذلك وغيره يتسق وينتظم في عبارة طويلة لا تستمد تأثيرا من ألفاظها : لفظة لفظة على حدة ، بل من العبارة برمتها : ونضرب مثلا على ذلك بمخاطبة عالم يستهزئ

بجاهل قائلاً: قل لي ياسيدي الأستاذ، أو أخبرني أيها العالم الجليل . أو مخاطبة  
القييخ قائلاً : القمر يغار منك .

وبعضهم يسمى هذا النوع ، أو يؤثر أن يطاق عليه « التهمك » ، ويلاحظ  
أنه لا يمكن إعطاء أمثلة حقيقية لمثل هذا النوع بجملة مبتورة نظراً لأن  
الكلمة أو الجملة تفقد حيويتها إذا انتزعت من الكل الحى النابض بالحياة  
كالعضو الذى يموت إذا اقتطع من الجسم كله .

أما النوع الخامس فهو : « معالجة الشيء العظيم كأنه حقير » : ويمكن أن  
يكون طريقة من طرق الاستهزاء ، كما شبه يتلر أماكن العبادة المسيحية  
ساخرأ بمصرف يذهب إليه الناس ليدفعوا شيئاً ويأخذوا شيئاً .

ومن أنواع السخرية : تجاهل العارف أو التباله: وهى الطريقة المشهورة  
التي أثرت عن سقراط .

يسأل الأب ابنه الراسب فى الامتحان - وهو يعلم برسوبه - أنجححت فى  
الامتحان ؟

أما التعريض فهو : من أشهر أنواع السخرية فى الأدب العربى ، وجمع  
الشعاب فى كتابه « الكناية والتعريض » ، طائفة من الأمثلة ، كذلك الذى دار  
بين معاوية بن أبى سفيان والأحنف بن قيس ، إذ سأل الأول الثانى قائلاً :  
ما الشيء الملفف فى البجاد ؟ فقال الأحنف : هو السخينة يا أمير المؤمنين !!  
وقد أراد معاوية قول الشاعر :

إذا مامات ميت من تميم      فسرك أن تعيش لخمى بزاد  
بخبز أو بتدر أو بسمن      أو الشيء الملفف فى البجاد



وأراد الأحنف بقوله : السخينة ، أن قريشا يأكلونها ويعيرون بها وهى أغلظ من الحساء ، وأرق من العصيدة ، وإنما تؤكل فى كلب الزمان ، وشدة الدهر ، وقد سموا قريشا « سخينة » ، يعبر ألهم بذلك (١) .

وكان عبد الأعلى بن عبد الرحمن الأموى عتب على بعض ولده الحارث فقال له معرضا بما قال حسان (٢) :

كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

فقال :

إخال بالعم وبالجسد مفتخرا بالقدح الفرد  
الهج بهمان وأشداره فإنها أدعى إلى المجد (٣)

وصاير شريك بن عبد الله النخعي يزيد بن عمر بن هبيرة الفزارى فبرزت بغلة شريك ، فقال له يزيد : غض من لجامها !  
فقال : إنما مكتوبة أصلح الله الأمير ! فضعك ، وقال : ما ذهبت حيث أردت .

وإنما عرض بقوله : ( غض من لجامها ) بقول جرير المشهور :  
فدض الطرف إنك من نمير فلا كعبا بلغت ولا كلابا  
وعرض له شريك بقول ابن دارة :  
لا تأمنن فزاريا خلوت به على قلو صك واكتبها بأسيار

(١) الآبى : نشر الدرر ٢ / ١٢ ومراجع أخرى كثيرة .

(٢) قال حسان يهجر أباسفيان :

وان امرأ كانت سمية أمهه وسمراء مغموز إذا بلغ الجهد  
وأنت زعم نيط فى آل هاشم كانيط خلف الراكب القدح الفرد

(٣) زهر الآداب ٢٦ - ٢٧

وبنو فزارة يرمون ياتيان الإبل (١) .

ومن صور السخرية : التصوير المبالغ فيه ( الكاريكاتورى ) : وهو وضع الشخص فى صور مضحكة : كالمبالغة فى تصوير عضو من أعضاء الجسم ومحاولة تشويهه إلى حد ما ، بحيث يحول الشخص كأنه لا يدرك أو يعرف إلا بهذا العيب الذى جسده وكبره : ومن ذلك ضخامة الجسم أو نحافته ، وقصر القامة أو طولها المفرط ، وارتفاع أحد الكتفين بصورة ظاهرة أكثر من الآخر ، وتصوير الشذوذ فى ملامح الوجه يلبس الدور الهام فى هذا الصدد والأنف بصفة خاصة يعد متياسا للشذوذ المثير للضحك ، لهذا نلاحظ أن المصور الكاريكاتورى يميل إلى تأكيد طول الأنف أو انعدامه لما يضفيه هذا الشذوذ من تأثير هزلى على الوجه (٢) ، وتصوير الأنف يكون بطولها أو بكونها معقوفة أو فطساء . وكذلك يصور الفم تعويها هزليا لاتساعه ، أو لعدم انتظام أسنانه أو لعيب فى إحدى الشفتين كقطع فيها أو ما يشبه ذلك من عيوب ، والشذوذ الحسى يدخل فى هذا النطاق : كالأعمى والأصم والأبكم ، فهؤلاء جميعا يثيرون عاصفة من الضحك إذا سلوكوا مسلوكا يحاولون به إنكار ما فيهم من نقص : فالأبكم الذى يرسل خليطا من الأصوات للتعبير عن غرضه يضحكننا ، وإذا ما أصر على استخدام هذه الطريقة الشاذة فى التعبير عن حالة نفسية يقصر دونها الكلام بله الأصوات كأن يصور لنا هذا الأبكم فى موقف غرامى ، فإن سلوكه يكون مصدرا ثرا للدعابة ، ولا يكفى المصور الكاريكاتورى رساما أو كاتباً - بتصوير الشذوذ الخلقى ، بل يتخذ من السلوك الشاذ مادة خصبة لسخريته : كالمجانين والبله والمفكرين ذوى الآراء الجريئة التى لم يألفها المجتمع ، وكذلك شدة

(١) زهر الآداب للحصرى : ص ٢١ ، ٢٢

(٢) سيكولوجية الضحك : لأحمد عطية الله ص ٨٢ .

الإنسيان . وقد اعتمدت الكوميديا زمنا طويلا على هذه الظاهرة ، ففما ع  
فى القرن السادس عشر ما كان يعرف بمسرحية كوميديا الأمزجة  
Comedy of Humours وفيها يعرض المؤلف شخصيات ذات أمزجة خاصة  
غير مألوفة فيها كما نجح فى القرن الثامن عشر ما عرف بكوميديا العادات .  
Comedy of manners وفيها يعرض المؤلف شخصيات ذات عادات نائية  
تستثير الضحك لغرابيتها<sup>(٢)</sup> .

وقد يكون التصوير مضحكا سحرا بسبب الألفاظ ذاتها إذ هى التى  
تبعث على الهزء والسخرية لرذيلتها وتنافر حروفها ، أو لأنها قوية التعبير عن  
نفسية الذى يصور أو يمسخ أو يحاول التعبير عنه .

ومن صورها : السخرية عن طريق التورية أو ( السخرية التراجيدية )  
Irony وهى العبقرية التى تجعل شخصا من الأشخاص يستعمل ألفاظا تعنى  
شيئا ما بالنسبة إليه ، وشيئا آخر بالنسبة للنظارة العارفين بالحقيقة<sup>(٣)</sup>  
كمن يقول لأعدائه مقدما لإلهم طعاما مسموما : طعاما هنيئا يا سادة .

ومنها : السخرية عن طريق الصور الملفقة المضحكة أو ما يسمى بالادعاء  
أو الدعاوى الكاذبة ، ومنها اختراع النوادر والنكت وإضافتها إلى أغنياء  
الحرب ومحدثى النعمة والقرويين السذج الذين زاروا المدينة لأول مرة  
مثلا ، فمن أمثلة السخرية بالقرويين والتشنيع عليهم أن قرويا زار القاهرة ،  
فسأله زميل له مختربا : على ذلك فأنت تعرف الترام والمترو ! فأجاب القروى :  
كيف لا ، وقد أكلت منهما كثيرا وكذلك التندير والتشنيع ، على الأطباء والمعلمين

---

(١) سيكرولوجية الضحك : لاحمد عطية الله ص ٨٤ :

(٢) المرجع السابق ٨٧ :

Har msworth · s Universal Encycl. V.5. P : 4315

(٣) دائرة المعارف البريطانية ١٢ / ٦٨٢ مادة Irony

وغيرهم من ذوى الحرف المختلفة ومحاولة تسديد سهام النقد إلى ناحية من نواحي النقص التى عرفت عندهم .

وكذلك يهاجم الساخر الجبان والبخيل والمتطفل والمنسول وكل العيوب الاجتماعية الأخرى بالمبالغة فى وصفها واختراع الصور المبالغ فيها . وفى كتاب البخلاء للجاحظ أمثلة طريفة .

ومنها : مجابهة الشخص بعكس ما يتوقع ، ومن ذلك سرعة الجواب الساخر ، كذلك المادرة التى تروى أن صياداً رعى عصفوراً فأخطأه ، فأراد ساخر أن يسخر به ، فقال له أحسنت ! فقال الصياد : أتهزأ بي ؟ فرد عليه الساخر بسرعة : ولا يمكنك أحسنت إلى العصفور !

ومن ذلك ما يحكى عن أحد الأمراء أنه أراد أن يسخر بالشاعر الفرنسى الكبير فيكتور هوغو ، فقال له : ألم يكن أبوك خياطاً ؟  
قال فيكتور : بلى .

فقال الأمير : ولماذا لم تكن خياطاً مثله ؟  
وبنفس الطريقة سأل الشاعر : وأنت أيها الأمير : ألم يكن أبوك مهنياً ؟  
فقال الأمير : بلى .

فقال الشاعر : ولماذا لم تكن مهنياً مثله <sup>(١)</sup> ؟

وقال فى ذلك الأستاذ أحمد عطية الله ويحاول المستهزئ - فى بعض الأحيان - إمعاناً منه فى الزهو بنفسه - أن يدخل فى روع الهزأة أنه حقاً ذو شأن وخطر ، حتى إذا ما اعتقد هذا الأخير ما أوهم به ، كشف المداعب

---

(١) وانظر مادار بين أبى العيناء وشخص أراد السخرية به ص ٢٦ من كتاب نوادر أبى العيناء المطبوع سنة ١٩٧٢ م .

عن حقيقته ، فاختفت مسحة الجلد من وجهه ، وراح يضحك ساخرا من صاحبه الذى تذهله المفاجأة حتى يعجم عليه القول<sup>(١)</sup> .

ومن تلك الصور الأدبية : التهمك .. وهو ذكر أشياء أو باطيل لا يعتقد بها الشخص وفى نفس الوقت يتظاهر بالاعتقاد بأنها صحيحة ، أو يذكرها فى معرض التعجب من وجودها ومن ثم الاستهزاء بها .

وعلى كل ، فالتهمك من صور السخرية الشفافة التى ليس من السهل تعريفها ولكنها تعرف بالذهن البلاح ، قال النويرى : والفرق بين التهمك وبين الهزل الذى يراد به الجدل أن التهمك ظاهره جد ، وباطنه هزل ، والهزل الذى يراد به الجدل على العكس منه . كقول ابن الرومى :

فياله من عمل طالح يرفعه الله إلى أسفل<sup>(٢)</sup>

وقان آخر : أصل الأمر فى التهمك أن تقول قولا وأنت تريد ضده كقول النظام : ما بعد هذا الكلام كلام : فهو لم يقصد بهذه العبارة إلا ضدها ، ظاهر كلامه الاعتراف بعلم المخاطب ، ولكن باطنه تعريض بجهله<sup>(٣)</sup> .

وأكثر ما يستعمل التهمك فى الخطاب ، فهو يغلب على الأحاديث حتى يكاد يكون لهجة ينفرد بها بعض الناس . ومن الأمثلة على ذلك قول الشاعر الجاهلى :

يخزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا

(١) سيكولوجية الضحك ص ١٥٠

(٢) النويرى : نهاية الأدب ١٧٩/٧

(٣) الجاحظ : شفيق جبرى ١٩٩

أو قول زهير :

فتغل لكم مالا تغل لأهلها      قرى بالعراق من قفيز ودرم

أو قول طه حسين :

قال الطالب الفتي لأستاذه الشيخ : لو خرج فلان لأهل قريته عن بعض ماله ، ليسقيهم ماء نقيا ، لزال عنهم المرض ، ولاستفاد زرعه من صحة أجسامهم .

قال الأستاذ الشيخ لتلميذه الفقي : هو أعطف عليهم من ذلك ! ألم تعلم أن المرض محنة ، يثاب عليها المريض إن أحسن احتمالها ! وأن الصحة فتنة ، إن أساء الصحيح استعمالها ، يعاقب عليها فهو ( يؤثر ) أهل قريته بالشراب ، و ( يعصمهم ) من الفتنة ! <sup>(١)</sup>

ومن تلك الصور أيضاً : السخرية بالمفارقة ( في الحوادث تسمى سخرية القدر ) وبستخدمها الساخر بمهارة في القصص ، ومن أمثله ذلك :

« دخل رجل عل طبيب في « عيادته » ، فاعتمد الطبيب أن الزائر مريض يطلب علاجاً ، وأراد أن يوحى إليه بمقدار أجره في غير مساومة ، فحمد إلى التليفون ، وأداره وراح يقول لمحدثه المزعوم :

نعم . أنا الدكتور ( فلان ) : إنني مشغول جداً . . . تسأل عن القيمة المطلوبة ؟ إنها كما أخبرتك : أربع جنيهات . . . وأنت تعرف هذا . حسن . . . إلى اللقاء إذن .

---

(١) انظر قول بشار بن برد في خياط أعور يسمى عمرا خاط له قباء :

خاط لي عمرو قباء      ليت عينيه سواء

ثم وضع سماعة التليفون ، وانفتحت إلى الزائر متسائلا : ماذا أستطيع أن أصنع لك يا سيدي ؟

فأجابه الزائر : لا شيء . . . إنني موظف مصلحة التليفونات الذي طابته لإصلاح تليفونك ، ا

والساخر لا يستخدم لغة مضحكة ، بل يترك الموقف للسامع أو القارئ . لكي يضحك منه ما شاء له الضحك .

وبما شاع منها في الآداب الأجنبية : الجمل أو التعبيرات اللاذعة : وهي جل تكون كالحكم السائرة أو المثل السائر وتتناول شخصا من الأشخاص أو مهنة من المهن بالنقد اللاذع المختصر ويكون في صيغة ، « التعريف » ، وقد اشتهر كثير من أدباء الغرب بهذا النوع أمثال برناردشو الكاتب الأيرلندي ، وأوسكال وايلد الانجليزي . فالأول يعرف التشائم بقوله : إنه الرجل الذي يعتقد أن الناس أشرار مثله فيحقد عليهم لهذا السبب !! ويعرف أدامسون الطفل بأنه فتاة هضمية ينتهي طرفها بصوت مزعج ، وطرفها الآخر بالفرضي ! ويعرف أحدهم الأستاذ الجامعي بقوله : « هو الرجل الذي يعلم تلاميذه كيف يحلون مشكلات الحياة التي حاول هو أن يتجنبها باشتغاله بالعلم !!

ومن أمثلة التعريفات الساخرة قول أحدهم عن الأمريكيين : الأمريكيون أحرار لأنهم « يأخذون ، حريات كثيرة !!

وقد يستخدمون طريقه المقابلة ، بدلا من التعريف ، كقولهم : في بعض البلاد الشرقية لا يرى الزوج امرأته قبل الزواج ، وفي بعض البلاد الغربية لا يراها بعده !! .

تحمّر البنت القروية إذا خجلت ، أما العصرية فتخجل إذا حمرت ١١ كانت البنت قديما لا تجسر على تناول يد فتاها ، ولكن البنت حديثا لا تجسر على تركها ١

وأخيرا التلاعب اللفظى : والأساس فيه هو محاولة المتندر أن يكسب الألفاظ معانى غير معانيها الواضحة ، فإذا ما اكتشف السامع أن ما يقصده المتكلم هو هذا المعنى الغريب يسخر من فهمه الأول لمعنى الجملة ، فيضحك ، ويكون التلاعب اللفظى : باختصار الفكرة ، أو بالإضافة إليها بحيث يخرجها عن معناها الأصلى أو بتبديل الكلمات المكونة لها ، أو بنحت بعض ألفاظها أو بتقسيمها ، أو بالعيب بإعجامها<sup>(١)</sup> كأن ندعو من تسمى فاطمة الزهراء بأن نقول فاطمة الزعراء ١

\* \* \*

وبعد ، فإن خيال الساحر فى الحقيقة خيال مرئى يتناول السخرة أو المسخور منه بالمداعبة والعبث واللعب ، كما يسلك القط مع الفأر قبل افتراسه ، وهو لذلك يستخدم وسائل وأساليب متعددة فى سخره تتداخل كل منها بحيث لا يمكن إحصاؤها أو عدّها ، وهى معرضة دائما لابتكار العقول المبتكرة ، بحيث لا يمكن للبلاغى حصرها فى اصطلاحات ضيقة فنلها كحروف الهجاء فى أية لغة من اللغات : يمكن الإنسان اشتقاق آلاف الألفاظ منها ، والتعبير بهما عن آلاف الاحاسيس فتكون طبيعة فى يده يستخدمها كيف يشاء . ومن حاولوا الإحصاء أنواعها المختلفة فى الآداب الأوربية ايفان ايزار فى كتابه Humour of Humour ؛ ولكنى أرى أن لاجدوى من ذلك ، بل يكفى معرفة أشهرها ، والتعرض لما يجد منها أو ما يكون خاصا بأديب دون آخر ، بالتحليل ومحاولة بيان أوجه الجمال أو العبقرية فيه .



## صينغ السخرية :

والساخر حين يسخر ، يعتمد ، كل الاعتماد على خياله العايب الذى يشقضى من صور السخرية ما يراه مسعفا له على إدراك غايته وهو التفتكيل بخصمه أو الوصول إلى هدفه فى اقتلاع رذيلة من الرذائل بفنه الساخر وهو فى ذلك يرجع إلى طبعه وما جبل عليه : فن الساخرين من يملون إلى صينغ بعينها يختصون بها ويدور معظم سخرهم على هذه الصيغة ، ومنهم من يستخدم أغلب هذه الصينغ ، ومرجعه فى ذلك عقاه الباطن الذى يديه أو بعارة أخرى يسيطر عليه كل السيطرة ، فيدلى عليه ما يريد ، ويوحى إليه بالصيغة التى تقتضى أو تلائم قوة الموضوع الذى يعالجه ، وقد لاحظت عليهم ذلك ومنهم زميل لى ( أ - م - ن ) كان يسخر دائما باستخدام صيغة المغالطة .. يخطئ فى نطق كلمة ويأى أنه يريد عكسها كالصحنى الذى يكتب تحت صورة أحد الزعماء - مدعى الخطأ - وهذه هى صورة الكلب الذى فر من قفصه ، ويكون هذا الزعيم مسافرا إلى بلد أخرى ، ثم يكتبون تحت صورة كلب ، وهذه صورة الزعيم العظيم ( فلان ) متأهبا إلى الرحيل عن وطنه ، وهذه طريقة من أنكى العارق إذا تخصص فيها الشخص وأتقنها بملاءمتها لذوقه وحسه وطبيعته من جهة ، وكثرة تمرنه عليها من جهة أخرى .

وهناك شخص آخر تخصص فى قول كلام مبتور يوحى إلى السامع بذلك أنه سيقول عبارة ( ما ) من العبارات حتى إذا ما اطمأن إلى أن السامع تأكد أنه سيقول مثل هذه العبارة . قال هو عكسها ، وبذلك يسخر من السامع وكأنه كرة يلعب بها كيف يشاء .

وأروع درجة من درجات السخرية هى التى تعتمد على الإشارة البليغة وتقوم على الابهاز الشديد ، وما يذكر فى ذلك محاولة أحد الصحفيين المصريين السخرية بأمرى - كما فرسم فى مجلة آخر ساعة السفير الأمريكى مفكرا تفكيرا

عميقا ، وملا للصفحة كلها - على اناساعها - بالصورة ثم كتب عنوانا صغيرا  
 « صفقة الأسلحة » . ولم يزد شيئا على ذلك . وأذكر أيضا نادرة أخرى شاهدتها  
 بعينى : أراد بعض الطلبة فى إحدى حفلاتهم العامة السخرية بإحدى الطالبات  
 وكان سلوكها عارضا بشيء من الرية ، فوزعوا جوائز وهدايا على بعض حضروا  
 الحفل ، وكان نصيبها أن قدموا لها فى صمت : كوزا من الذرة « وكفى » (١)

وأراد بعض الطلبة السخرية بمدرس لهم يدعى « أحمد قننة » فلما كان منهم  
 إلا أن استدرجوه لكي يشرح لهم إحدى مسائل الحساب ، فلما وافق ووضع  
 يده فى صندوق الحسك « الطباشير » لم يجد فيه إلا جسما أملس ناعما ، فلما  
 أخرجه ، وجده « خيارة » إشارة إلى اسمه !

وهكذا يكون الرمز والإيماء فى السخرية أنكى من الإطالة ، وذلك  
 لطبيعة السخرية التى تهاوى الإطناب كل المجافاة إذ أنها نتاج العقول الذكية  
 وتخطب فى الأغلب الأعم العقول البليغة .

ومن صيغ السخرية التى يمكن تعدادها :

الاستهزام مثل : من أنت أبها الجبار العنيد ؟ لمن ضؤل شأنه .

والأمر مثل : « ذق إنك أنت العزيز » ، واتهمك بالبخل : ابتعد حتى  
 لا نصاب مثلمم بالكرم !

والنهي مثل قول الخطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبعثتها وأقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى  
 وقول الشاعر :

لا تطلب المجد إن سلمه صعب ، وعش مستريحا ناعم البال

(١) انظر ما دار بين محمد بن مكرم وأبي العيناه فى « نواذير أبى العيناه » ص ٥٩ ، ٧٨

والتمنى مثلبا يقول القائل للقسيس السارق : « ليتك تمنحني بر كنك ،  
وقول القائل للعاجز : لعالك تستطيع أن تحمل هذه المعضلة !!

والثورية : كما جاء في الآية الكريمة حينما كان اليهود يقولون ( راعنا )  
أي يوهموا المسلمين أنهم يقصدون اشتقاقها أو معناها العربي ، وهم في الحقيقة  
يهدفون إلى معناها العبري ونزلت الآية الكريمة : « لا تقولوا راعنا ، وقولوا  
انظرونا ، <sup>(١)</sup>

والمشاكاة : كمن أراد أن يداعب أو يهزأ بئخيل وعده شيئا ثم أخلفه ،  
ثم وعده بوليمة عظيمة ، فيقول له :

قالوا اقترح شيئا نجد لك طبعه ،

قلت : اطبخوا لي جبة وقيصا <sup>(٢)</sup>

وكثيرا ما استعمل أبو العيناء هذا الأسلوب مع بعض الحكام في  
عصره <sup>(٣)</sup> .

والمواربة : وهي في الأصل المخادعة والدعاء : وفي الاصطلاح أن يحمل  
المتكلم كلامه بحيث يمكنه أن يغير معناه بتحريف أو تصحيف .

والعكس ، ويسمى القلب والتصدير <sup>(٤)</sup> : وهو أن تقدم جزءا في الكلام  
ثم تؤخره بأن تؤخر ما قدمت ، وتقدم ما أخرت ، مثل قول أحدهم يسخر

(١) اللسان مادة رعن

(٢) زهر الربيع للحملأوى ١٥٤

(٣) نواذر أبي العيناء ص ١٠٢

(٤) زهر الربيع ص ١٦١

من صديق له غضب لمزاحه معه : ليس الضحك بداية سيئة للصداقة (١) ،  
ولكنه نهاية حسنة . وقد يدخل هذا النوع فيما يسمى « باللعب بالألفاظ » .  
وتجاهل الحارث : وهو سوق المعلوم مساق المجهول لفككة : كالمبالغة  
في المدح أو الذم أو التوبيخ . كما قال زهير (٢) :

وما أدري - وسوف إخال أدري - أقوم آل حصن أم نساء ؟

وتأكيد الذم بما يشبه المدح : وتنبع السخرية منه من المفاجأة التي يفاجأ  
بها المخاطب المقصود بالذم أو السامع مفاجأة لم تخطر له على بال حينما يبدأ  
الساحر بأسلوب المدح ثم يختتمه بأسلوب الذم مثل ، أجمل شيء في صديقي :  
طول أذنيه ١١ وإنه يسكر منادائنا بانقطاعه عن زيارتنا ١

وحسن التعليل : أو السخرية بمحاولة التعليل أو التظاهر بالتعليل تأييدا  
للمخاطب المسخور منه : مثلما يقول أب لابنه كسر كوبا :

أعرف أنك كسرته لأنه مكث لدينا زمنا طويلا ١١

والتضمين : ويسمى أيضاً الإبداع : وهو أن يضمن الشاعر كلامه  
شيئا من شعر الغير مصراعا أو بيتا مع التنبيه على ذلك ، إلا إذا كان مشهورا  
فإن شهرته تغني عن التنبيه عليه (٣) . مثل (٤) قول بعض الشعراء مخاطبا  
طبيبيا كان ببغداد يدعى نعمان لا ينجح مريض على يديه :

أبامئذر أفنيت فاستبق بعضنا ١١

حنانيك ، بعض الشر أهون من بعض ١١

---

(١) جحا : الضاحك المضحك للعقاد ص ١٦

(٢) زهر الربيع ١٦٥

(٣) زهر الربيع للحملاني ص ١٧٧

(٤) جمع الجواهر للحصري ص ٥٩

وقد اشتهر بهذا النوع الحمدوني في طيلسان ابن حرب وشاة سعيد -  
والسخرية بالفاظ المدح : وهو أن يكون الهجو أو السخرية بالعبارات  
التي تستعمل في المدح مقرونة بما يصر فيها إلى الهجاء كقول الحماسي :

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة      ومن إساءة أهل السوء إحساناً (٢)  
وقال بعضهم للشاعر . إنك أشعر من رسول الله !

والتصنيف : إما بوضع لفظة مكان أخرى بتبديل حرف يغير معنى  
الكلمة أو بوضع كلمة في غير موضعها ، كما محاولة كاتب أن يسخر بطبيب  
بقوله إنه كتب تقريراً عن شخص متوفى ، وكان يعالجه ، وأخطأ وكتب  
اسمه أمام : « سبب الوفاة » .

وبعد ، فهذه بعض الصيغ التي تصاغ فيها السخرية ، وليس من همي  
إحساؤها إذ هي كالبحر العميق الزاخر بشئ الأحياء ، أو هي دنيا واسعة  
لا يمكن حصر ما بين أطرافها ، كما يحاول البلاغون حينما يحصرون أنواع البديع  
المختلفة أو غيره من أبواب البلاغة ، وحمي في ذلك للتعبير عن رأي أن أذكر  
كلمة « برجسون » عن هذا الشيء المسمى بالسخرية : « أخشى أن يكون هذا  
الجوهر اللطيف من تلك الجواهر التي مرعان ما تنحلل إذا عرستها للضوء » ، (٣)

---

(١) زهر الربيع للحملأوى ص ٢٨١

(٢) الضحك لبرجسون ص ٩١

## الباب الأول

١ - قدم السخرية ورسومها عند الأوربيين :

للسخرية أو الميل إلى إثارة الضحك بواسطة الصور المضحكة جذور عميقة في الطبيعة البشرية ، وهى من أقدم المواهب الفطرية التى مارسها الإنسان فى مجتمعه البدائى غير المذهب ، وولوع الإنسان بالضحك والهزء والفكاهة ، وفطنته السريعة إلى كيفية إثارتها قد شملت البدائين ، وقد ظهرت بوضوح فى علاقات بعضهم ببعض من قديم الزمن وحتى قيل أن يصقل الإنسان أدب أوفن ، كان رئيس القبيلة البدائية يجلس فى كوخ محاطا بالمحاربين من قبلته ، وكانوا يسلون أنفسهم ويتلمون بتناول أهدائهم وخصومهم بالهزء بهم : فكانوا يضحكون من ضعفهم ويتبادلون النكات بما يحسون فيه من نقص أو تشويه ، سواء كان هذا النقص عضويا ، أو فى عقلهم وحياتهم ، ويطلقون عليهم ألقابا مضحكة ، وهم يقصدون من وراء ذلك أنه يهزأوا بهم بالألفاظ أو بأن يلفقوا عنهم الحكايات التى هى فى عداد الأشياء التى تثير أبسط أسارىهم وضحكهم .

ثم انتقل الإنسان القديم إلى مرحلة تالية فى هذا الفن : بأن بحث عن وسيلة يكسب بها هزءه صورة أكثر بقاء وخلودا ، فأخذ يرسمها على الصحف المكشوفة ، أو على أى سطح إن رسميا ساذجا .

ثم عرف هذا الفن عند كثير من الأمم القديمة : (١) المصريين والإغريق والرومان والهنود والوثنيين والمسيحيين . وقد وصلت آثار أدبية ساخرة عن أرسطوفان أعظم مؤلفى الكوميديا الإغريقية كالضفادع وغيرها .

---

(١) أنظر دائرة المعارف الفرنسية La rousse مادة Caricature حيث  
تورد عدة أشكال منقولة عن الآثار المصرية القديمة تفيض سخرية .

وكان الكتاب الساخرون دائماً رواد الحركات الإصلاحية في التاريخ فاشتهر سقراط منذ القدم بطريقته الساخرة وهى التباله أو ادعاء الجمل ومحاولة إثارة الموضوع الذى يتكلم فيه أو يناقشه بهذه الطريقة ، وأصبح من ذلك الوقت علماً على هذه الطريقة فى الفلسفة Socratic Irony أما هؤلاء الذين تقدموا النهضة الأدبية - ومن ثم الاجتماعية والسياسية - فى أوروبا ، وفتحوا عبوراً جديدة فى تاريخ شعوبهم بل تاريخ النهضة الإنسانية فهم رابليه الفرنسى (١٤٩٠ - ١٥٥٠) وسرفانتيس الأسباني (١٥٤٧-١٦١٦) أما الثورة الفرنسية فقد قدم لها ومهد المصلحون الساخرون وعلى رأسهم فلتيير ١٦٩٤ - ١٧٧٨ .

## ٢ - فى الأدب الغربى :

والسخرية عندهم فى نقد المجتمع القدح المعلن : فها دو بترونيش ينقد المجتمع الرومانى ، ويحذو حذوه فى القرون الوسطى رابليه وسرفانتيز ، وقد حاول الأخير استئصال فكرة « الفروسية » التى كانت مصيطرة على أوروبا فى ذلك الحين ، وينهج نهجه بطل الذى سخر من انغمسين ، ورينيه الفرنسى الذى كان يستخر من الذين يعنون بقواعد اللغة والعروض عنايه تطفى على الموضوع ، أما مواييز فقد نقد أكثر صور المجتمع التى سادت عصره : كعالم النساء ، والبخل والنفاق ، والأطباء وغيرهم . وأخيراً يطل علينا من عل شيخ الساخرين الاجتماعيين « شو » الذى نصب نفسه لهدم أكثر التقاليد البالية ، فكأنه استخرته غاية هى إصلاح المجتمع .

وعرفنا عما سبق أيضاً بعض صور السخرية التى يتبعها الساخرون كحكاية الأمور الجدية بطريقة هازلة لإحالتها إلى صور مضحكة عابثة ، وكالشعر الجامى الساخر Mock Heroic والتعريض . ورسم الصور للمضحكة والمبالغة فيها أو فى عضو ما من أعضاء الجسم .

وكانت السخرية إما منظومة وإما في قالب مقالات أو قالب قصص أو مسرحيات أو قصصا خيالية مبتدعة كما رأينا عند «لوشيان» الذي تخيل وصف رحلة إلى القمر، وتصور قتالا بين أهل الشمس وأهل القمر، أو كما تخيل «بوالو» معركة تنشأ بين رجلين حول شيء تافه : «منصة الخطابة» ، وكما حذا حذوه «بوب» في «اغتنصاب الخصلة» ، وأخيرا كما سلك صمويل بتلر في «أربون» ، أو جوناثان سويت في «رحلات جلفر» ، أو لافونتين في «خرافاته» . وإلى جانب القصص الخيالية ، تنبض القصص الواقعية التي يحاكي الحياة بأحداثها كما جاء في «كنديد» لفولتير ومسرحيات موليير وبرناردشو .

وقد اتخذ بعض الكتاب من السخرية مادة خفيفة تشيع في كتابته بين الحين والحين كالملاح يصلح القليل منه الطعام ولا يقصد إليها قصدا بل تظهر في ثنايا جملة من غير عمد ، والبعض الآخر قد ركب شيطانها وطغت عليه حتى كان في أغلب كتابته أو مؤلفاته ساخرا ، وكأنا قد أصبحت مادة أسيئة في دمه وفي عقله الباطن . أما الفريق الأول فمنهم من ساج .

وأما الفريق الثاني فيتقدمهم رابليه الذي كان يقول إن الفكاهة والسخرية هما وحدهما السبيل إلى نجاة العالم وتخليصه من شوائبه ، ولذلك يطلق على هذا المذهب «المذهب البانتاجريلى» نسبة إلى مؤلفه العظيم ، ومن أئمة فولتير وسويت وشو الذي نظر إلى العالم بأجمعه تلك النظرة الساخرة ففلسفها بقوله : «والدنيا إحدى نكات الله» .

وهكذا يمكن أن نفرق بين نوعين من السخرية من ناحية السك - إذا سمح لنا التعبير الأدبي بذلك - أما من ناحية السكيف : فقد اختلفت درجة السخرية عند الكتاب : فكانت عند بعضهم خفيفة رقيقة هادئة ، وعند بعضهم الاخر قاسية عنيفة لا ترحم ، فمن النوع الأول كان (١) باسكال في



في خطاباته الريفية ، وأوستن Jane Austen ١٧٦٥ - ١٨١٧ ، ولي ساج Le Sage ١٦٦٨ - ١٧٤٧ ومن النوع الثاني جوستاف فلووير .

وانستطيع أن نميز أيضاً بين سخرية ضاحكة مستبشرة متفائلة يحيطها الكاتب بسياج من الفكاهة وهي الصفة الغالبة على أكثر الكتاب الأمريكيين الساخرين مثل واشنطن أرننج ومارك توين ، وهناك مثل آخر من الأدب الألماني هو جوزيف فكتوريث سيفل ١٨٢٦ - ١٨٨٦ مؤلف Ekhard . ومن الأدب الفرنسي بروسيير مريمى ١٨٠٣ - ١٨٧٠ والسخرية الأخرى التي تقابل ذلك هي السخرية الجادة الرزينة المشائمة كما ظهرت عند سوفت .

وانستطيع أن نميز بين السخرية السطحية التي يدركها القارئ العادي في عجلة ودون حاجة إلى أعمال الفكر وبين السخرية العميقة التي تعدو فطنة القارئ العابر وأغاب المكاتب ينتظمهم النوع الأول وهم فريق يعملون على اجتذاب القراء إلى استساغة سخريتهم وإلى الوصول إلى غايتهم ومأربهم من أقرب سبيل .

أما النوع الثاني فيشتهر من بينهم صمويل بتلر ، ولذلك قال عنه النقاد ، ولذلك لم يظفر بإعجاب عامة القراء ولم يعجب به إلا الخاصة المنقفة . ومع ذلك فلا نستطيع في كثير من الأحيان أن نعثر على كاتب يتخصص في نوع واحد من الأنواع السابقة أو تغلب على سخريته صفة واحدة ، بل إن الكاتب ربما استخدم هذا النوع أو ذاك وفقاً للوضع الذي يكتب فيه ، أو وفق الحالة النفسية التي تسيطر عليه في أثناء كتابته . وعلى كل فافتي . كثير من الكتاب ينفعهم أدهم بأكثر هذه الأنواع ، وما هي إلا درجات مختلفة متفاوتة لا يميز بينها إلا خط دقيق ليس من السهل على اللغة أن تصوره .

وقد تأثر كثير من الكتاب الساخرين بظروف حياتهم أو تكوينهم الخلقى أو الخلق والنفسى فصنع حياتهم بصيغة السخرية ، وصنع سخريتهم بصيغة ما : فالكتاب الرومانى جوفينال كان موقرا ، عانى فى نشأته الأولى كثيرا من الاستخفاف والاحتقار ، حين اضطره فقره إلى الاعتماد على بعض السادة من الأغنياء بقاء إلى ظل حمايتهم ، وينال عطاءهم لقاء شعره ، وقد علم أن له من المواهب والذكاء ما يفضل به هؤلاء السادة الذين يتفضلون عليه بما يقيم أوده ، فترك ذلك فى نفسه مرارة لاذعة .

وكذلك كان جونسون سقيما فى طفولته ، طالما عانى من الأمراض الرمدية أما جسمه فقد اصطلحت عليه الأمراض العصبية والتشنجية ، وكان يوب سقيما وكانت حياته - كما ينعتها - مرضا طويلا : فقد كان عاجزا عن أن يرتدى ملابسه بغير مساعدة ، وكان شديد الحساسية بالبرودة إلى حد أنه كان مضطرا إلى أن يلبس نوعا مزدوجا من الفراء تحت قميصه السميك وكان أحد جنبيه متقلصا ، ولتحول ساقه كان يضطر إلى لبس ثلاثة أزواج من الجوارب لا يستطيع ارتداؤها إلا بمساعدة ، وكان ينتابه مع ذلك صداع منهك يحطم ما بقى من قواه ، وقضى بعد وفاة أمه حياة مقفرة لأنه لم يتزوج . أما جى دوموياسان الكاتب الفرنسى الكبير فكان متشابها سرى داوى المزاج ينظر إلى الحياة بمنظار أسود ، وقد مات مصابا بالشلل وهـ ولم يزل فى ميعة الشباب ( ١٨٥٠ - ١٨٩٣ ) . وكان هاينى متشابها النظرة ، وقد خاب فى حبه وكان - على حد تعبير أحد النقاد - فى شعره بمثابة من يعترك مع الحياة اعتراكا : ربما كان مصدره مرض أعصابه الذى انتهى به آخر الأمر إلى شلل ألزمه الفراش ، وقد أطلق على فراشه إذ ذاك قبرا من حشايا ، وكذلك كان ضحوه الألمانى جوزيف فكتور فون شيفيل قاتق النفس ناقصا متشابها . وكان فواتير - الذى يعصن أئمة الساخرين فى العالم أجمع - ضعيف الجسم ، وكان له

من هزال جسمه ما أكسبه مزاجا حادا عنيقا، وعلّة لاتنقطع أسبابها حتى يف  
على الثمانين وهو يشكر شكوى متصلة من ضعفه الذي يشرف به على الهلاك.

وكذلك كانت حياة سويقت فقد نشأ يتيمًا وضاق ذرعا بالحياة  
في كنف عمه ومن كان يعمل تحت إمرة ، ولم ينل مآربه أو ما يسكافيء نبوغه  
وقضى الأعوام السبعة عشرة الأخيرة من عمره في وحشة ويأس من الحياة  
شديد .

ونستطيع أن نعدد أمثلة أخرى فنضرب المثل ببرناردشو ومارك توين،  
أى أن الألم هو المنبع الأصيل - في أغلب الأحيان - للسخرية.

وعرفنا مما سبق أيضاً أن بعض الساخرين كانوا يهاجمون -  
بسخريتهم أشخاصا معينين خصوما لهم أو أعداء كما سلك جون دريدن مع  
الذين حقدوا عليه بسبب تنصّيه أميراً للشعراء .

وهناك آخرون كانوا يحاولون مهاجمة عيوب المجتمع ويحاولون إصلاحها،  
والعزيمتهم في ذلك مرليير وبرناردشو. وأخيراً أدركنا فائدة السخرية وأثرها  
في المجتمع الأوربي وإلى أى حد طغى تأثيرها كما فعل سيرفانتيز في أسبانيا  
بل في أوربا كلها ، وشارل ديكنز في إنجلترا ، بل ليس بخاف علينا ما فعله  
كتاب المسرحية إبان احتلال الألمان فرنسا في الحرب العالمية الثانية وكيف  
بنوا بهاروح المقاومة وأشعلوا الوطنية الصامدة .

• • •

### ٣ - في الأدب الجاهلي :

وإذا حاولنا دراسة السخرية ، في الأدب العربي فيحسن بنا أن نلتزم  
المنهج التاريخي فنبدأ بالبحث عنها في الأدب الجاهلي : نبحث عن الألفاظ  
التي تدل على السخرية ، وعن الشواهد التي تبين سخرية الجاهليين .

أما الألفاظ التي تدل على معنى السخرية فقد نثرت في الأدب الجاهلي، وأوردتها معاجم اللغة دون العناية بإيراد الشواهد التي تجلو دلالتها، وقد قرأت أغلب المصادر ووثقت منها موقف الشحيح ضاع في الرب خاتمه على أهدي إلى مقدار كاف من الشواهد، فلم أعر إلا على هذه الأمثلة :

قال عبيد بن الأبرص: <sup>(١)</sup>

وساخرة مني ، ولو أن عينها      رأته ما رأته عيني من الهول جنت  
أبيت بسملة وغول بقفرة      إذا الليل وارى اللحن فيه أرنت

وقال عبد المسيح بن عسلة العبدى <sup>(٢)</sup> :

فأما أخو قرط - ولست بساخر -      فقولاً له : يا سلم بكرة سالما  
وقال الراعي النميري ( وهو الذي عاش في بيئة شديدة القرب من البيئة  
الجاهلية : <sup>(٣)</sup>

تغير قومي ولا أسخر      وماحم من قدر يقدر  
وبلفظ : « التهمكم ، قال عامر المحاربي : <sup>(٤)</sup>

يغني حصين بالحجاز بناته      وأعبي عليه الفخر إلا تهكما  
وقال حسان يجرى بنى أبي البراء على عامر بن الطفيل <sup>(٥)</sup>

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢ / ٧١

(٢) المفضلية رقم ٨٣ ص ٦٠٧

(٣) اللسان ، وأساس البلاغة مادة سخر : وكذلك شرح ديوان زهير ص ٩٧

(٤) المفضلية ٩١ ص ٦٢٩

(٥) الطبري ٢ : ٢٢١ - وإدخ سنة ٤ هـ

بنى أم البنين لم يرعكم وأنتم من ذوائب أهل نجد  
تمكم عامر بابي براء ليخفره ، وما خطا كعمد

وذكر الزمخشري هذا الشاهد في أساس البلاغة : (١)

تمكم عمرو على جارنا وألقى عايه له كل كلا

وبلفظ. الهزء قال عبد الله بن سلمة الغامدي (٢)

على ما أنها هزئت وقالت هنون ، أجن ؟ منشأ ذا قريب

وبلفظ الضحك ، قال عبد يغوث (٣)

وتضحك مني كهلة عبشمية كأن لم ترى قبلي أسيرا يمانيا

\* \* \*

أما الأمثلة التي قدل على سخرية الجاهليين ، فهي قليلة عثرت منها على  
هذه الأبيات :

فن ناحية الاستخفاف ، قال امرؤ القيس - لما فرقت بنو نهران عليه  
فرقا من معزى يحلبها أنشأ يقول تمديدا واستخفاة : (٤)

إذا ما لم تكن إبل فعزى كأن قرون جلستها العصي

إذا ما قام حالها أرت كأن القوم صبحهم نعي

---

(١) أساس البلاغة ٢ - ٥٥٠ هـ - ٥٥٠ هـ

(٢) الفضليات ١٠٣

(٣) النقاوض ص ١٥٢ - ١٥٣

(٤) ديوان امرئ القيس طبعة السندوي ص ١٨

وقال قريظ بن أنيف المزني يتم بقرمه : (١)

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة      ومن إساءة أهل السوء إحسانا  
 كأن ربك لم يخلق الخشبته      سواهم من جميع الناس إنسانا  
 وقال الجميع : (٢)

فدى لسلي ثوباي إذ دنس الب      قوم وإذ يدسمون ما دسموا  
 قال ابن الأنباري : وتقديته أهم استهزاء بها وبهم .  
 فصعد بالدرع والخمار فلا      تخرج من جوف بدنها الرحم

وقال زهير :

فتغلل لكم مالا تغل لأهلها      قرى بالعراق من قفيز ودرهم  
 قال يعقوب : هذا تمكم وهزم . وقال (٣) الأصمعي : وهذا تمكم منه أي  
 استهزاء (٤)

ولا يمكن الاستدلال من هذه الأمثلة القليلة على الألوان أو أساليب  
 السخرية التي انتشرت في الأدب الجاهلي ، وكذلك لا يمكن القطع بأن السخرية  
 كانت لديهم قليلة أو ضعيفة ، ولكنها ضاعت مع هذا الشعر وهذا النثر الذي  
 ضاع ولم يصلنا منه إلا القليل ؛ كما قال عبد الصمد بن المفضل الرقاشي :  
 ما تكلمت به العرب من جيد المنشور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون :  
 فلم يحفظ من المنشور عشرة ، ولا ضاع من الموزون عشرة . (٥)

(١) الحاسة ص ٤ ، ٥

(٢) المفضليات ص ٤١

(٣) المعلقات العشر للتبريزي ومعاقة زهير ،

(٤) ديوان زهير ( طبعة دار الكتب ) ص ٦٦

(٥) البيان والتبيين ٢ / ١٥٨

## ٤ - السخرية في عصر النبوة :

أما في عصر الرسول : وفي أثناء المعركة الهائلة التي نشبت بين الإسلام والوثنيين المشركين ، فقد استخدمت السخرية غالبا من جانب المشركين لأنهم المنهزمون عقليا وروحيا ، فاستخدموا هذا السلاح مع ما استخدموا من أسلحة أخرى - ضد الرسول ، ولا شك أنه لو عني أحد بتدوينها لوصلنا منها الكثير .

فيروى ابن هشام صاحب السيرة : أن الإراشي لما طلب من بعض القرشيين أن يعينوه على رد إليه ، أشاروا إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهم يمزأون به ، لما يعلون بينه وبين أبي جهل من العداوة ، وقالوا : اذهب إليه فإنه يؤدبك عليه <sup>(١)</sup> ، وكان الرسول ( ص ) إذا جلس في المسجد فجلس إليه المستضعفون من أصحابه : خباب وعمار وأبو فكيهة يسار مولى صفوان بن أمية ، وصهيب وأشباههم من المسلمين ، هزئت بهم قریش ، وقال بعضهم لبعض : هؤلاء أصحابه كما ترون ، هؤلاء من الله عليهم من بيننا بالهدى والحق ؟؟ لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقنا هؤلاء إليه وما خصهم الله به دوننا <sup>(٢)</sup> .  
ومر الرسول ( ص ) بالوليد بن المغيرة وأمّية بن خلف ، وأبي جهل بن هشام فمزوه واستهزأوا به فغاضه ذلك فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من أمرهم : ولقد استهزأ به برسل من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون <sup>(٣)</sup> . ولما تمادى المستهزئون في الشر ، وأكثروا بالرسول

(١) السيرة - لابن هشام ٢ / ١٥

(٢) المرجع السابق ٢ / ٣٣

(٣) السيرة لابن هشام ٢ / ٣٦ والآية العاشرة من سورة الأنعام .

الاستهزاء ، أنزل الله « فاصدع بما تؤمر ، وأعرض عن المشركين ، إنا كفييناك المستهزئين ، الذين يجعلون مع الله لها آخر فسوف يعلمون » (١) .

وكان المنافقون يحضرون المسجد فيسمعون أحاديث المسلمين ويستخرون ويستهنئون بدينهم (٢) وتروى قصة في كتب التفسير عن عبد الله بن أبي وأصحابه ، تدل على هذا الاستهزاء . أولها : خرجوا ذات يوم ، فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله (ص) فقال عبد الله بن أبي : انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء عنكم : فأخذ بيد أبي بكر فقال : مرحبا بالصدق سيد بنى تيم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله في المغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله ، ثم أخذ بيد عمر ثم على وأخذ يمدحهم تماجنا وسخرية بهم كإفعل مع أبي بكر ، ولذلك نزلت الآية : « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، وإذا خلوا إلى شياطينهم ، قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزون » (٣) .

وكان أمية بن خلف قد أجمع التعود ، وكان شيخا جليلا جسيما ، ثقيلا ، فأنه عقبة بن أبي معيط ، وهو جالس في المسجد بين ظهري قومه ، بمجرة يحملها ، فيها نار ومجر ، حتى وضعها بين يديه ثم قال له : يا أبا علي ، استجمر فإنما أنت من النساء ، قال : قبحك الله وقبح ما جئت به . قال : ثم تجهز فخرج مع الناس (٤) .

وبينما كان المسلمون متوجهين لبرد ، لقوا رجلا من الأعراب ، فلما قيل

(١) المرجع السابق ٢ / ٥٠ والآية ٩٥ من سورة الحجر .

(٢) المرجع السابق ٢ / ٢٦٥ .

(٣) تفسير الكشاف ١ / ٢٨ سورة البقرة .

(٤) السيرة النبوية ٢ / ٢٨١ .



له : سلم على رسول الله ، قال للرسول : إن كنت رسول الله فأخبرني عما في بطن ناقتي هذه !

فقال له سلمة بن سلامة بن وقش ، : لا تصال رسول الله وأقبل علي فأنا أخبرك عن ذلك : نزوت عليها ، ففني بطنها منك سمخلة . فقال له الرسول ( ص ) ، مه أفحشت علي الرجل <sup>(١)</sup> .

• • •

من الأمثلة القليلة التي ذكرنا آنفا ، نستشف أنه كانت هناك سخرية ملقاة بحصر النبوة ، وإلكنها لم تصل إلينا ، وضاع معظمها ، قال زكي مبارك في أثناء مناقشته فكرة وجود نشر في الجاهلية : « بل إنى لأذهب أبعد من ذلك فأقرر أن الحركة الأدبية والسياسية والاجتماعية في عهد النبوة لم تصور إلى الآن بصورتها الحقيقية ، فهذا رجل غير أمة كاملة في عشرين عاما ، واقيت دعوته آلاف المضاعف . أفيمكن حقا الاقتناع بأنه لم يقل أكثر من عشر خطب ، وأن أنصاره لم يقرءوا من الخطب والرسائل إلا ما غفله عنهم الطبري وغيره من المؤرخين ؟ وأين إذن آثار المعارضة الشديدة التي قامت في وجهه واضطرتته إلى الهجرة ؟ وأين أسنة اليهود والعرب والأشراف من قريش ؟ أفيعقل أن تمر دعوة كهذه من دون أن تهب في وجه صاحبها أسنة الخطباء وأقلام الكتاب وشياطين الشعراء ؟ وهلا يعقل كذلك أن يصبر رجال الوثنية والنصارى واليهود على التهم المختلفة يلقيها عليهم النبي وأصحابه من دون أن يقابلوا الشر <sup>(٢)</sup> بالشر والعدوان بالعدوان فيطيلوا القول في النفع عن دياناتهم ، وللقبح في الديانة الجديدة التي تهاجمهم في عقيدتهم ،

(١) السيرة لابن هشام ٢ - ٢٦٥ .

(٢) زكي مبارك : النشر الفني ١ - ٥٠ .

وخصوصا أن القرآن وصفهم بأنهم أذل فصاحة وجل وخصوصة وعناد<sup>(١)</sup>.

ولاشك أن المؤرخين والنيورين، قد تعمدا طمس هذا الجدل والمناخعة والدفاع من جانب المشركين، يدل على ذلك قصة عمر مع عيينة الفزاري حين سأله عن عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة إذ كان حكما بينهما في المنافرة : أيهما أفضل ، فأبى تفضيل أحدهما على الآخر أمام عمر قائلا : لو فضلت أحدا على الآخر الآن لقامت الحرب جذعة .<sup>(٢)</sup>

وكذلك عما يدل على ضياع تاريخ المشركين والمعادين للإسلام ، أن بعض الشخصيات المناوئة ، قد وصلت إلينا صورتها مشوهة بسبب الكفر ، أو عدم اعتناق الدين الجديد ، كعبد الله بن أبي الذي كنت أتخيله مرانيا ذا شخصية ضعيفة جبانا بعيدا عن العقل والحكمة ، ولما قرأت قول الجاحظ عنه :

« وكان عبد الله بن أبي - قبل نفاقه - نسيج وحده لجودة رأيه وبعد همته ، ونبل شيمته ، وانقياد العشيرة له بالسيادة والسعادة وإذعانهم له بالرياسة ، وما استوجب ذلك إلا بعدما استجمع له إبه ، وتبين لهم عقله ، وافقدوا منه جمه ، ورأوه لذلك أهلا . . . . . » . . . . . واقد خطب النبي (ص) بالمدينة ، فشكاه إلى الأنصار ، فقالوا : يا رسول الله : لآئله فقد كنا عقدنا له الخرز قبل قدومك لتوجه ،<sup>(٣)</sup> لما قرأت ذلك تغيرت نظرتي أو تصوري له وما كنت قد كونته عن شخصيته الحقيقية العامة قبل نفاقه .

ولاشك أن هؤلاء الذين حاولوا تقليد أسلوب القرآن قد سلكوا هذا

(١) زكي مبارك : النثر الفني ١ / ٥٠

(٢) الامالي ١ / ٥٤

(٣) مجموع رسائل الجاحظ (طبعة الساسي ١٩١٠) ص ١٥

(٥٠ - السخرية)

المسلك أو فعل بعضهم ذلك على الأقل - وهم عارفون بقوته وجلاله -  
تماجنا وسخرية من أسلوبه الجديد، وصرقا للناس عنه بمحاولتهم إضحاكهم منه.

إذن لابد أنه كانت هناك سخرية في الجماعية والإسلام، ولكنها ضاعت  
مع ماضع من الآثار الأدبية شعرا ونثرا لأسباب أهمها شيوع الأمية،  
وقلة التدوين ومخالفة ذلك النثر للحياة الجديدة التي جاء بها الإسلام، ودونها  
القرآن ومع ذلك فالغالب أن تلك السخرية لم تكن تسيطر على تعبيرهم النقي  
أو تتغلغل فيه كثيرا السببين هامين :

أولهما أن الساخر - في العادة - غير صريح التعبير ، يقول شيئا  
ويقصد عكسه ، وذلك - غالبا - لخوفه من السخرة كما في أيام الكبت  
السياس أو الاجتماعي ، كخوف الصبي من هم أكبر منه كالمعلمين ، فإذا أدار  
له المعلم ظهره سخر منه ، ولذلك فهو يعبر عن غضبه بأسلوب من التعبير غير  
مباشر أو بطريقة ملتوية ، والعرب لا يعرفون إلا الصراحة في التعبير ، وعدم  
الخوف ، لدرجة أن أحدهم قد قال بكل جرأة للنعمان حينما طلب فرسه :

أبيت اللعن إن سكاب علق نقيس لا يعار ولا يساع

وكذلك فقد رفض النعمان تزويج بنته لكسرى مالك فارس حينما أرسل  
إليه في ذلك ورد عليه بدون مواربة قائلا : أما في عين السواد ما يغنى عن  
بنات العرب ؟ أما المرأة فقد ردت على عمر حين أراد تحديد المهور على المنبر  
وأختمته بآية قرآنية جعلته يتراجع ويقول : أصابت امرأة وأخطأ عمر .  
وقد أراد عمر بن الخطاب منع حسان من إنشاد الشعر ، فرد هذا عليه - مع  
ما لعمر من هيبة معروفة مشهورة : اسكت فوالله لقد كنت أنشد هذا الشعر  
من هو خير منك - يقصد رسول الله ﷺ - فما كان يعترض .

من هذا يتبين ميل العرب -- تلك الأمة الصحراوية التي لا يقيدوها قيد اجتماعي أو سياسي في الجاهلية -- بتبين ميلهم إلى الضراحة ، ولذلك كانوا أسرع الناس إلى الهجاء بالسب والقذف ، أو بتسديد سهامهم مباشرة من غير خوف أو وجل أو ترث ، وما فعله جساس بكليب وانتقامه منه قاتلا لحالته البسوس : سأقتل جملا كبيرا ، ، ما فعله وما أوقده من حرب ضروس ليس بخاف علينا . ونرى مصداقا لذلك أن أغلب الشعر الجاهلي -- الذي وصلنا -- في حالة الغيظ والحلق -- لا يعبر عن نفس المغيظ إلا بمثل أبيات عنزة ، التي يمكن أن تكون النمط الأعلى للشعر الجاهلي :

ناديت عسا ، فاستجابوا بأقنا      وبكل أبيض صارم لم ينحل  
حتى استباحوا آل عوف غنوة      بالمشرقي وبالوشيج الذبل

ولذلك أطلق أبو تمام على مختاراته «ديوان الحماسة» ، إذ أنها الصفة الغالبة على الشعر الجاهلي .

والسبب الثاني الذي أرجع إليه عدم سيطرة السخرية على الهجاء وتغلغلها فيه هو تأثر العرب السريع ، ولابد للساخر من أن يكون متحكما في انفعاله ولو إلى حين ، ولأمر ما حاول النبي (ص) اتزاع هذا الخلق فقال في ذلك عدة أحاديث منها : « ليس الشديد بالصرعة ، وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب ، وقد قال برجسون مشيرا إلى ذلك « اللامبالاة هي وسط المضحك الطبيعي ، وأله أعدائه الانفعال » .

إذن كانت هناك سخرية في العصر الجاهلي والإسلامي ، ولم تكن هذه السخرية عميقة ، بل كانت خفيفة بسيطة بساطة نفسية الجاهليين ، سهلة تبعا لحياتهم غير المعقدة ، خفيفة الوقع ، لاتعدو السخرية الفطرية التي تؤثر عن أناس متأخرين يكتبون باللمحة والتعريض دون الإلحاح في السخرية والتنويع والتفنن في أساليبها الموجهة .

ونستطيع أن نذكر في ذلك قول الخطيئة لأبي بكر ساخرأ منه في حرب الردة:  
أيورها بكرأ إذا مات بعده      وتلك لعمر الله قاصمة الظهر  
أو استهزاء العرب بأبي بكر ونعتهم إياه « بأبي الفصيل » ، ولذلك رد  
حسان عليهم قائلا :

ما البكر إلا كالفصيل وقد ترى      أن الفصيل عليه ليس بهار  
وقال حسان هازئاً بجذام :

لعمر أبي سمية ما أبالي      أنب التيس أم نطقت جذام  
إذا ما شاتهم ولدت تنادوا      أجدي تحت شاتك أم غلام ١٩  
وأخيراً أذكر تهكم الخطيئة بعتيبة بن النحاس العجلي الذي كان ييخل وقال له  
إنه أشعر الشعراء فقال : ما أنا بأشعر العرب . ( وذلك لكي يفاجئه بعد ذلك ) .  
فقال عتيبة : فمن أشعر العرب ؟  
قال : الذي يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه      يفره ، ومن لا يتق الشتم يشتم  
فقال له عتيبة : أما إن هذه الكلمة من مقدمات أفاعيك (١) .

وبعد ، فلعل في تلك العجالة السابقة ما يمكن أن نرد به على المستشرق  
مرجوليوت والأستاذ محمد خلف أحمد إلى الصواب : إذ زعم الأول أن  
الآداب العربي يخلو من الفكاهة والسخرية ، وأيده الثاني بعض التأييد (٢) . قال :  
د . زكي مبارك : « وليس بمعقول أن يكون لتلك الأمم نثر في قبل الميلاد بأكثر  
من خمسة قرون ، ثم لا يكون للعرب نثر في بعد الميلاد بخمسة قرون ، كأن العرب  
انقردوا في التاريخ القديم بالتخلف في ميادين العقل والمنطق والخيال ، (٣) .  
وما أسلوب السخرية إلا أحد أساليب النثر الفني الذي تكلم عنه الدكتور زكي مبارك .

(١) ديوان الخطيئة ٣٢٩ .

(٢) دراسات في الأدب الإسلامي : لمحمد خلف الله أحمد ( لجنة التأليف

سنة ١٩٤٧ ) ١٣٨ - ١٤٨ .

(٣) النثر العربي : زكي مبارك ١ / ٥٠ .

## • السخرية في القرآن الكريم :

إذا أردنا أن نبدأ حقاً بدراسة النثر العربي بعامة ، وما نحن بصده  
بخاصة ، فأقدم أثر فني يمكن أن ندرسه فيه هو القرآن الكريم ، وقد استدل  
المرحوم الدكتور زكي مبارك بالكتاب الكريم على وجود نثر فني قبل  
الإسلام ، « فكان لهم - أي للعرب - بذلك وجود أدبي متين قبل أن  
يتصلوا بالفرس واليونان » (١) .

\* \* \*

وقد ظهرت أصداء تلك المعركة التي قامت بين النبي ﷺ والمشركين في  
آيات الكتاب الكريم ، ونستطيع أن نلتبس طرفاً بما نحن بصده - أعني  
الكلام عن السخرية - فيما جاء به رداً على ما كان يفعله هؤلاء المشركون ،  
ولكن في الحدود التي رسمها القرآن الكريم منهاجاً له وللأغراض المحضة  
التي نزل من أجلها ، وبالأسلوب الذي يتناسب وعظمة الخالق جل وعلا ،  
فهو ليس كتاباً فنياً محضاً نزل لغرض فني بحت ، بل غايته دينية أخلاقية ،  
فاذا استعان بالألوان الفنية المختلفة من الأسلوب ، فهو استخدام يملأه الوفاق  
الإلهي الذي ينأى به كل النأي عما يقع فيه البشر من خفة وجهل .

\* \* \*

وليس القرآن الكريم أول كتاب ديني وردت فيه معاني السخرية وألفاظها  
بل نجد التوراة من قبل تستعمل ألفاظ الضحك والاستهزاء بمعنى السخرية  
كما في الجملتين : « الساكن في السموات يضحك » ، « الرب يستهزئ بهم » .  
وجميع الشواهد الواردة تنحى على المستهزئين باللائمة ، لأنهم يستكبرون  
ولا يصدقون : (٢) .

(١) المرجع السابق ١ / ٤٣ .

(٢) عباس محمود العقاد : مقدمة جحا الضاحك المضحك ، الطبعة الأولى ص ١٠٠

وقد وردت « السخرية » في القرآن الكريم بالفاظ : « الهزء » ، والاستخفاف والضحك والسخرية : الأولى في أكثر من خمسة عشر موضعا والاستخفاف في الآية ( ٤٤ ) من سورة الزخرف ، والضحك بمعنى السخرية في أربعة مواضع ، وبلغظة « السخرية » في أربعة عشر موضعا ، وكلها تدور حول استهزاء الكفار بالنبي ﷺ ، أو بالأنبياء السابقين ، وإنذارهم بأوخم العواقب وأسوأ العقاب بسبب ذلك : ( قل أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزون ، ) . (١)

وكان النبي ﷺ يضيّق بفعل الكفار ، فيضرب الله الأمثال بمن سبقه من الأنبياء ومسلّك الكفار لإزاءهم كما يفعلون معه :

« ولقد استهزى برسلك من قبلك ، فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزون ، » (٢) « ذلك جزاؤهم بما كفروا ، واتخذوا آياتي ورسلي هزوا ، » (٣) « ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه ، » . (٤) « فلما جاءهم بآياتنا ، إذا هم يضحكون ، » . (٥) ويذكر سخريتهم بالصلاة : « وإذا ناديتُم إلى الصلاة ، اتخذوها هزوا ولعبا ، » . (٦)

ولاشك أنهم كانوا يحاولون تقليد الصلاة بحركات مختلفة مسخرية بالمؤمنين ، وضحكاً منهم :

(١) التوبة آية ٦٥ .

(٢) الأنعام آية ١٠ .

(٣) السكف آية ١٠٦ .

(٤) هود آية ٣٨ .

(٥) الزخرف آية ٤٧ .

(٦) المائدة آية ٥٨ .

« فيقولون من يعيدنا ؟ قل : الذى فطركم أول مرة ، فسينخضون إليك رؤوسهم ، ويقولون متى هو ؟ قل عسى أن يكون قريباً ، <sup>(١)</sup> .

« وإذا ما أنزلت سورة : فمنهم من يقول : أياكم زادته هذه إيماناً ، <sup>(٢)</sup> ولكن الله تعالى يؤكد لرسوله - لفرط شعوره بالضيق والغليظ - أنه تعالى أقوى منهم ، ولا بد أنه منتقم أشد انتقام : « إنا كفيناك المستهزئين ، <sup>(٣)</sup> ثم يذكر سبحانه وتعالى علاج سخريتهم بأخرى مثلها :

« فيسخرون منهم ، سخر الله منهم ، ولهم عذاب أليم ، <sup>(٤)</sup> الله يستهزئ بهم ، ويمدهم في طغيانهم يعمهون ، <sup>(٥)</sup> »

« قال : إن تسخروا منا ، فإنا نسخر منكم كما تسخرون ، <sup>(٦)</sup> »

ويصور حال الساعين في يوم القيامة ، وتحسرهم على فعلهم بالمؤمنين وسخريتهم : « يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله ، وإن كنت لمن الساعين ، <sup>(٧)</sup> » ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا ، واتخذوا آياتى ورسلى هزواً ، <sup>(٨)</sup> » ويذكر انقلاب فعلهم عليهم ؛ إذ أن المؤمنين سوف يشتفون منهم بمعاملتهم بالمثل ، وذلك لإراحة المؤمنين المحققين بما فعل بهم في الدنيا :

(١) الإسراء آية ٥١ . قال البيضاوى فى تفسيره (طبعة صبيح سنة ١٩٢٦) : ينخضون : يعركونها فعرك تعجباً واستهزاء (ص ٤٠٤) .

(٢) التوبة آية ١٧٤ : قال الزمخشري فى الكشاف ١ / ٤١٥ : فمنهم من يقول إلخ الآية إنكار واستهزاء بالمؤمنين واعتقادهم زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحي والعمل به .

(٣) الحجر آية ٩٥ .

(٤) الآية ٧٩ من سورة البقرة .

(٥) الآية ١٥ من سورة البقرة .

(٦) الآية ٣٨ من سورة هود ، والقول على لسان نوح عليه السلام .

(٧) الآية ٥٦ من سورة الزمر .

(٨) الآية ١٠٦ من سورة الكهف .



« إن الذين أجمعوا كانوا من الذين آمنوا يضحكون »<sup>(١)</sup> ، فالיום الذين آمنوا كانوا من الكفار يضحكون »<sup>(٢)</sup> .

. . .

وإذا عرفنا مقدار وقع السخرية على الأنفس ، وشدة فتسكها بالإنسان ، أدركنا السر الذي يمكن وراء تهديد الكفار بمثل السلاح الذي أذوا به المؤمنين ، ليكون ردعاً لهم ، ولذلك فليس بمستعكر - في رأينا - نسبة فعل السخرية إلى الله سبحانه وتعالى ( حقيقة لا مجازاً ) كما ظن بعض المفسرين . ومحاولتهم تأويل آية البقرة : « الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون »<sup>(٣)</sup> ، بأن المعنى عقاب ما ، ثم يحاولون تأويل هذا العقاب ، في حين أن الله سبحانه وتعالى قد هدد فعلاً بالسخرية بهم في الآخرة<sup>(٤)</sup> ، كما فعلواهم في الدنيا ، وهذا أنكى عقاب .

والذي دفعهم إلى هذا شيان : أولهما تنزيه الله سبحانه وتعالى عن السخرية التي هي في نظرهم مرادفة للعبث واللعب ، وثانيهما آية الحجرات التي نرى الله تعالى فيها عن السخرية بقوله : « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم همسى أن يكونوا خيراً منهم »<sup>(٥)</sup> .

(١) الآية ٢٩ من سورة المطففين .

(٢) الآية ٢٤ من سورة المطففين .

(٣) الآية ١٥ من سورة البقرة ، وجاء في تفسير البيضاوي ( طبعة جميع ١٩٢٦ م ) ص ١٣ . . وأما في الآخرة فبأن يفتح لهم - وهم في النار - باباً إلى الجنة فيسرعون نحوه ، فإذا صاروا إليه سد عليهم الباب ، وذلك قوله تعالى : فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون . . . . .

(٤) الآية رقم ١١ من سورة الحجرات .

(٥) تفسير الطبري ( تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر ) ١ / ٣٠٣ .

أما من ناحية التنزيه فقد رد أبو جعفر الطبري بقوله : « أما الذين زعموا أن قول الله تعالى ذكره : « الله يستهزئ بهم » ، إنما هي على وجه الجواب ، وأنه لم يكن من الله استهزاء ولا مكر ولا خديعة ، فنافر عن الله عز وجل ما قد أثبتته عز وجل لنفسه ، وأوجب لها ، وسواء قال قائل : لم يكن من الله جل ذكره استهزاء ولا مكر ولا خديعة ولا سخرية بمن أخبر أنه يستهزئ ، ويسخر ويمكر به ، أو قال : لم يخسف الله بمن أخبر أنه خسف به من الأمم ، ولم يفرق من أخبر أنه أغرقه منهم ، ويقال لقائل ذلك : أن الله جل ثناؤه أخبرنا أنه مكر بقوم قضا قبلنا لم نرم ، وأخبر عن آخرين أنه خسف بهم ، وعن آخرين أنه أغرقهم ، فصدقنا الله تعالى ذكره فيما أخبرنا به من ذلك ، ولم نفرق من شيء منه ، فما برهانك على تفريقك ما فرقت بينه ، بزعمك : أنه قد أغرق وخسف بمن أخبر أنه أغرقه وخسف به ولم يمكر بمن أخبر أنه قد مكر به ؟ ثم انعكس القول عليه في ذلك ، فلن يقول أحدهما شيئا إلا ألزم في الآخر مثله ، ... »

« ويجب أن يفرق بين معنى اللعب والعبث ، والهزاء والسخرية ، والمكر والخديعة . ومن الوجه الذي جاز قيل هذا ، ولم يحز قيل هذا ، اختلف معنىهما : فعلم أن لكل واحد منهما معنى غير معنى الآخر . »

وهكذا يرد الطبري على المنكرين على الله الاستهزاء بمن سخر بالدين والنبي ، بعد إيراد عدة آراء لغيره في تأويل الاستهزاء والسخرية ، ولو أنه يفسر الاستهزاء بمعناه الأدبي الفني ، قائلا : « والصواب في ذلك من القول والتأويل عندنا : أن معنى الاستهزاء في كلام العرب : إظهار المستهزئ المستهزأ به من القول والفعل ما يرضيه ظاهرا وهو بذلك من قبله وفعله به مورثه مساءة باطنا ، وكذلك معنى الخداع والسخرية والمكر . » وهذا أي

ابن عباس : ، وبنحو ما قلنا فيه ، روى الخبر عن ابن عباس (١) ، قال ابن سيده ردا على من يحاول تأويل الاستهزاء : وهو عندى خطأ ، إنما نهزأ من الهزء الذى هو السخرى ، (٢) .

\* \* \*

وأقول : كان يمكن للمفسرين أن يوفروا على أنفسهم مشقة محاولة التأويل لو عرفوا دوران مادة سخر ، ورأوا أن لها معنى لا يمكن أن تفسر بغيره وهو الاحتقار اللين غير الظاهر الذى فيه إبهام ، وصفة المولارية والاحتقار والإبهام التى تكمن فى المادة هى التى تعطى للكلمة تلك القوة التى لا توجد فى لفظة احتقار ، أو فى طريقة الاحتقار الساخرة أو فى غيرها من الكلمات القرينة الإيذاء .

فلا شك أن قول المشركين : د إنما نحن مستهزئون ، فيه إيلاء (٣) للنبي صلى الله عليه وسلم — وللمسلمين فكانوا جديرين لردم عن بغيم بأن يجازوا بجزاء من نوع فعلهم حتى يعرفوا وقعه فيرتدعوا ، كما قال تعالى : ولكم فى القصص حياة ، يا أولى الألباب ، فالقاتل إذا عرف أنه لا بد مقتول فسبقدم رجلا ويؤخر أخرى خوفا من القصص الذى هو من جنس فعله ، كذلك المستهزء الذى سيسخره الآخر منه : سيفكر كثيرا وسيخشى هذه السخرية لأنه عليم بشدة وقعها على غيره ومدى فعلها بغيره ، وإلا لما استخدمها

(١) تفسير الطبرى ١ / ٣٠٥

(٢) وكلام ابن سيده الذى أورده اللسان / هذا عن هذا فى بيت رواه أبو عمرو بن العلاء .

(٣) انظر السيرة لابن هشام ٢ / ٣٦ وما ورد فى فقرة السخرية فى عصر النبوة ، التى تقدمت فى هذا البحث .

سلاحاً قاسياً ، فهو قين بالألا يستعملها هو الآخر كما قال تعالى : د ومكروا  
ومكر الله والله خير الماكرين ، وكذلك : وجزاء سيئة سيئة مثلها ، فאלله  
- سبحانه وتعالى - يجازى بجزاء من جنس الفعل والعمل ، وهذا أشد ردعا  
للفاعل وأنكى .

أما كيف يستهزئ الله بهم ، فهذا أشد وقعا عليهم ، لأنه فعل مبهم غامض ،  
والغامض محير الإنسان بل هو أشد قسوة عليه من الظاهر ، ألا ترى إلى  
التهديد دائماً بأشياء واضحة وأشياء غامضة ، مثلاً يقول الإنسان إذا فعلت  
هذا فسترى ما أفعله بك ، وكما قال جرير :

لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الفراق فعلت ما لم أفعل

فكيف إذا كان التهديد بالاستهزاء من جانب الله سبحانه وتعالى ذى  
القوة الجبارة التى لا يمكن أن يتصورها بشر ؟ لا شك أن عقلم الباطن  
سوف تختلط به هذه الصور ، وسوف تلح عليه فى التهويل والمباغة فى  
التصوير ، حتى تفرغه .

\* \* \*

٢ - أما من ناحية خشية المفسرين من لعبة فعل السخرية ، إلى الله  
سبحانه وتعالى وتزويده عنها ، بسبب آية الحجرات ، أو بسبب ما توحى به الكلمة  
من جهالة ومجون ، فإن الرد عليهم فى هذا أن المقصود بالسخرية المحرمة هو  
السخرية بالنقص البشرى الطبيعى الذى لا يد فيه لإنسان أن يصلحه أو أن  
يرده : كالسخرية من عضو من أعضاء الجسم ، فهذا لما يؤلم ، وبحول مجرد  
المزاح إلى شجار لا تؤمن عقبا ، أما السخرية البانية : كالهزء بالأشياء  
أو الخائنات أو لثام الطباع أو المتصنعين غير السالكين السلوك الطبيعى فى  
الحياة ، وأما السخرية من المتكبرين أو المتفطرسين أو الحكام المستبدين ،

فهذا - في ظني - مالا يشكره الدين . ونستطيع أن نذكر - مصداقا وبرهانا -  
على ما نقول - بعض أمثلة سخر فيها الله سبحانه وتعالى يفيض السخرية كنوع  
من العقاب أو الزجر أو الإخافة .

فذكر التهديد بلفظ التبشير بقوله : « بشر المنافقين بأن لهم عذابا <sup>(١)</sup>   
أليما » وذكر الإبعاد بلفظ الوعد بقوله تعالى « وعهد الله المنافقين والمنافقات   
والكفار نار جهنم <sup>(٢)</sup> » وقال تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر » .

وهدد متهمكما بقوله : « وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله ، قل : تمتع   
بكمرك قليلا ، إنك من أصحاب النار ، <sup>(٣)</sup> » .

وقال تعالى : « ذق إنك أنت العزيز الكريم ، <sup>(٤)</sup> » .

وقال تعالى عن الكفار : « فما أصبرهم على النار <sup>(٥)</sup> » .

وذكر تعالى استهزاء إبراهيم واستخفافه بهم حيث يقول <sup>(٦)</sup> :

« لجعلهم جنذا لا كبرا لهم لعلمهم إليه يرجعون . . . قالوا : من فعل هذا   
بآلهتنا إنه لمن الظالمين . قالوا : سمعنا فتي يذكركم يقرهم يقال له إبراهيم . .   
قالوا . . . فاتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون . قالوا : أنت فعلت هذا »

(١) الآية ١٣٨ من سورة النساء .

(٢) الآية ٦٨ من سورة التوبة .

(٣) الآية ٨ من سورة الزمر .

(٤) الآية ٤٩ من سورة الدخان .

(٥) الآية ١٧٥ من سورة البقرة .

(٦) سورة الأنبياء .

بآلهتنا يا إبراهيم ؟ قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ،<sup>(١)</sup>

قال الزمخشري : « هذا من معاريض الكلام »<sup>(٢)</sup> ، واطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني ، والقول فيه أن قصد إبراهيم ، لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها في أسلوب « تعريضى » ، يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم ،<sup>(٣)</sup> وقد كنت - في صباى - أحدث نفسى متعجبا من إجابة إبراهيم ، وكنت أهجس في نفسى أنها كذب ، ولم أدرك مرماها إلا حين وصلت إلى السن التى تسمح لى بفهم مثل هذه السخرية الخفية التى ربما تخفى على بعض من لا يعطى أو يمنح إحساسا دقيقاً أو فطنة ، وهذا النوع من السخرية هو من أرفع أنواعها : وحسب الإنسان - كما قلت سابقا متجددا عن أنواع السخرية - حسبه أن يتخذ مظهرا ما يغيظ به صاحبه أعنف إغاظه ، كما يكون أقوى أثرا من الكلام أو وقع السياط ، وقصة بشار مع زوج خليلته الذى سخر منه تدل على ذلك إذ أخرجته الزوج وسخر به سخرية أعنف من الضرب أو الإيذاء ، وهذا الضرر النفسى وهو السخرية أطول بقاء وأعنف أثرا<sup>(٤)</sup> ويؤيد ذلك تلك الحادثة التى ارتكبها بعض التلاميذ مع مدرستهم ساخرين به بوضع فاكهة مستطيلة - مشتقا اسمها من اسم - فى صندوق الحىكك ، ولما اتجه إلى الصندوق إيانى بالحىكك ووجد هذا الشيء المبهم فى

---

(١) انظر ما قاله سيدنا إبراهيم فى حديث الشفاعة فى عمدة القارى . شرح صحيح البخارى ١٩ / ٢٦ وفى ١٥ / ٢٤٧ ( طبعة المنيرية ) .

(٢) المعارض جمع معراض من التعريض ، وهو التورية بالشئ عن الشئ . وفى المثل - وهو حديث مخرج - إن فى المعارض لمنذوحة عن الكذب ( اللسان مادة عرض ) .

(٣) تفسير الزمخشري : سورة الأنبياء .

(٤) الأغاني ( طبعة دار الكتب المصرية ) - ٣ ص ٣٣٤ .

يده فجأة ، فهم السخرية ، وابشسم ابتسامة المغيظ المحقق وقد ذكرت قصة رابعة مشابهة حين الكلام عن أنواع السخرية<sup>(١)</sup> .

\* \* \*

ونعود ثانية إلى استخدام سيدنا ابراهيم أسلوب السخرية مع قومه فنذكر آية أخرى شبيهة بالأولى ، يهزأ فيها بالآلهة : « فنظر نظرة في النجوم . فقال : إني سقيم . فتولوا عنه مدبرين ، فراغ إلى آلهتهم فقال : ألا ناكلون . ما لكم لا تنطقون . فراغ عليهم ضرباً باليمين<sup>(٢)</sup> » فها هو يسألهم بطريقة تجاهل العارف ، ويستخدم ضمير المخاطبين مع الأصنام كنوع من السخرية ، ويخاطب الأصنام كأنها عاقل : « ألا ناكلون . وزاد من تقوية الأسلوب الساخر قصر الجمل بما يجعل الصوت سريعاً في انتقاله من جملة إلى أخرى ، وكذلك المحافظة على الفاصلة من آية إلى أخرى . . ، وأكثر من هذا بدؤه نعمة السخرية بادعائه أو قوله : إني سقيم ، كما كان يفعل سقراط تماماً في استخدامه أسلوب التجاهل أو كما أسميه : التباله . إنه يخيل إلى أخيراً كأنه حول هذه الأصنام الحجرية إلى حيوانات - قد نفخ فيها الروح - وقد أخذ يعيث بها ، ولم يكفه هذا بل جسد الصورة تجسداً وزعم أنه يحاول أن - يضربها لكي تنطق ، وقد ظن فعلاً - كما قد

---

(١) وأعتقد أنه لا داعي للإطالة في التخرج من جانب المفسرين ، بل إن هذه السخرية - بما تحتوي عليه من صورة لاذعة - أفسى عليهم ، ما لو كان قد حطم الصنم الأكبر مع بقية الأصنام .

وهناك إضافة من المفسرين إلى تلك الصورة وهي زعمهم أنه علق الفأس في عنق الصنم الأكبر ويرى بعض العلماء ومنهم المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي أنها من الإسرائيليات ولعل تخيلة الإسرائيليين الساخرة هي التي دفعتهم إلى تصور هذا الفعل من جانب سيدنا ابراهيم ، وليس في هذا غماسة من وجهة نظر السخرية .

(٢) الآية ٩١ من سورة الصافات قوله ( بل فعله كبيرهم ) .

نجح في جعلنا نتخيل ذلك - أن هذه الأصنام التي أمامه من لحم ودم ، وأنه يجب ألا تعي بالجواب ، بل يجب عليها على الأقل أن تجيب مخرجا إياها من حجرتها بل يجب عليها - أو على الذين عبدوها - أن تكون في منزلة وسطى بين الإنسان المفكر وبين الحجر الذي لا يحس ولا ينطق ولا يفكر ، أى تكون هذه الأصنام حيوانا فكأنه يقول لهؤلاء العابدين إني أهزأ بكم وأحتقركم لو كان ما تعبدون حيرا من صنع الله ، فكيف أهزأ بكم وإلى أى حد أسخر منكم إذا عرفت وانتهيت أخيرا من تساؤلى بأن ما تعبدون ليس إلا حجرا ، من صنع أيديكم ؟

أى سخرية رائعة نحسها ونحن نتلوا هذه الآيات المينة المعبرة ؟

ويسوق - سبحانه وتعالى - قصة أصحاب الجنتين (١) ، فلا مملك ونحن نقرؤها إلا أن نسخر بالبخلاء الذين ظنوا فى أنفسهم القدرة ودوام الغنى :  
« إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين ، ولا يستثنون .

فطاف عليها طائف من ربك . . . وهم نائمون . . .  
فأصبحت كالصريم .

فتنادوا مصبحين : أن اغدوا على حرائكم إن كنتم صارمين .  
فانطلقوا - وهم يتخافون . . . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين .  
وغدوا على حرد قادرين ۝  
فلما رأوها ، قالوا : إنا لضالون

بل نحن محرومون



وهنا لا نملك أنفسنا من السخرية اللاذعة بهؤلاء النفوس الذين ورد ذكرهم في قصة من تلك القصص التي حدثت قديما والتي يمكن أن يطلق عليها «سخرية القدر» .

وقد أضاف إليها القرآن الكريم من ألوان القصة وأصواتها المتباينة ما يجعلها فريدة رائعة :

فقد بدأها سبحانه وتعالى بإظهار أصحاب الجنة بمظهر الأقوياء الذين يتكلمون بلهجة تأكيدية بالقسم ، ثم باستعمال لام القسم ونون التأكيد والفعل بصرم وماله من دلالة قوية عنيفة على (القطع) ، وكذلك بما يدل على زيادة الثقة بأنفسهم عزهم في صباح اليوم التالي مباشرة « مصبحين » وكذلك عزهم على قطعها كلها بغير استثناء - ولا يستثنون - وكلما عرف الإنسان أو القارئ نهايتهم التي سوف تكون في آخر القصة لا يملك نفسه من أن يتسم ابتسامة السخرية ، تظهر على شفتيه ، أراد أم لم يرد .

ثم يظهر الجبار سبحانه وتعالى بمقدار تفاهتهم بإرسال قوة بسيطة من لدن العزيز القوى . طاف عليهم طائف من ربك ... وإذا قرأ القارئ « وهم نائمون » سوف تقفز إلى ذهنه ابتسامة أخرى حينما يتصورهم في جانب من الأرض الرحبة الطيبة ، يتصورهم نائمين : أي مطمئنين إلى قوتهم وإلى أنهم سوف يصلون إلى مأربهم بعد ساعات معدودة حينما ينحدر الليل .

ثم يقول تعالى : « فأصبحت كالصريم » ، وهنا تكمن السخرية في مرعة قطعها - مع أنهم لم يكونوا يظنون أنها يمكن أن تنتهى بهذه السرعة أو هذه السهولة . . ، ولم يذكر تعالى كيف قطعت ليعطى ما يريد من التعبير عن السرعة . ثم يعبر عن نهايتها بكلمة « الصريم » وهي من جنس الفعل الذي استخدموه أولا : « بصرمها » فكأنه يردد - هازئا - نفس النغمة



الحال : قادين ، وأخيراً تبلغ السخرية أوجها حينما تنتهى من الفصل الأخير من القصة وتنتهى نهايتهم وحسرتهم بعد هذا التصوير السريع المتدارك ، ثم نلاحظ ضعفهم بتغير الفاصلة من النصب فى ( قادين ) إلى الرفع فى ( اضالون ) وهذا يقوى تصريحهم بالضعف ومن ثم تبلغ نهاية السخرية بهم والتشنى منهم !

\* \* \*

والقصة الثالثة التى سوف نذكرها من قصص القرآن الكريم هى قصة موسى حينما نقرأ فيها عن جبارين يلتقطون طفلاً لا حول له ولا قوة فينتصر عليهم بحول الله فى النهاية . فالتقطه آل فرعون ... ليكون لهم عدوا وحزناً . وهنا مفارقة عابثة تمنع من إنقاذ من يكون السبب فى هلاك المنقذ !

\* \* \*

وفى سورة المدثر :

إنه فكر وقدر . . . فقتل كيف قدر . ثم قتل كيف قدر . ويبلغ حنف السخرية من كلمة ( قتل ) وهى قريبة من قولهم قتله الله ما أشجعهم أو أخزاه الله ما أشعره ! فلفظة قتل تعجب الغرض منه الاستهزاء . وقد كررت مرتين لزيادة السخرية . وذكر بعدها الاستفهام الذى هو من قبيل تجاهل العارف . قال الزمخشري : ثناء عليه على طريقة الاستهزاء به ، أو هى حكاية لما كروه من قولهم : قتل كيف قدره . فكما بهم ويأعجابهم بتقديره واستعظامهم لقوله .

\* \* \*

وهكذا نرى تلك السخرية الهادفة التى عرضناها فى الآيات السابقة ، السخرية من هؤلاء الذين يتجافون عن اتباع العقل ، والفطرة السليمة ، والمسلك السوى ، فهى مخربة بناة ، وليست سخرية هدامة ، سخرية تصلح وتستل العيوب ، وتأخذ بيد الإنسان إلى الطريق المستقيم .

## الباب الثانى

نحاول الآن أن نؤرخ للساخرين فى الأدب العربى وقد شهد الكثيرون منهم ، غير أن بعضهم قد ضاع معظم أدبه الساخر ، ولم يبق منه إلا القليل .

### السخرية فى عصر صدر الإسلام والعصر الأموى :

نستشف مما قلناه سابقا أن السخرية قد مرت فى حرس العرب فاستخدموها كغيرهم من الأجناس الأخرى ، ولم يخرجوا عن ذلك الناموس الطيمى الذى يلتقى فيه البشر جميعاً . غير أن للعوامل الحضارية المختلفة تأثيرا كبيرا فى تعبير الإنسان وتطويرة ، وهذا ما يمكن قوله فى السخرية ، ذلك اللون من الأسلوب الذى يتأثر بتطور الإنسان عقليا وحضاريا تأثرا كبيرا وهو ما حدث لهذا اللون بعد بزوغ شمس الحضارة العربية الأموية الإسلامية العباسية ، تلك الحضارة التى غيرت الإنسان العربى تغييرا كبيرا فصار إنسانا آخر يختلف عن أبيه وجده اللذين عاشا فيما قبل هذا العصر ، ولذلك حق للمستشرق بروكلمان أن يطلق على أدب ما قبل العصر العباسى أدبا عربيا وما بعده أدبا إسلاميا .

وسوف ندرس ها هنا السخرية فى العصر الأموى وقد كان فارسها المجلى الشاعر الكبير جرير ، الذى يعد بحق رائد السخرية فى الأدب العربى ، وسنقدم له بمقدمة نتناول فيها حسان والخطبة شاهرين ساخرين ظهرا قبله .

- ١ -

### حسان والخطبة :

ظهر فى صدر الإسلام شاعران كبيران يعدان أستاذين لشاعرنا جرير إذ يكون معهما مدرسة هجائية ساخرة . وقد كتبت أود أن يصلنا من شعرهما

قدر كبير يصلح للدراسة وتبين مذهب كل منهما ، ولكن معظم هذا الشعر الساخر قد ضاع فيما ضاع من كنوز فنية .

أما أولهما وهو حسان بن ثابت فلم يرو الرواة عن حياته ما يجعله منبعاً فياضاً لطائفة كبيرة من شعر السخرية ، غير أننا نعثر له على شعر ساخر امتد أثره إلى خيلة جرير فتأثر به . فن ذلك ما قاله اقميلة جذام :

لعمر وأبي سمية ما أبالي      أنب<sup>(١)</sup> التيس أم نطقت جذام  
إذا ما شاتهم ولدت تناذوا      أجدى تحت شاتك أم غلام

فهذه سخرية لازدة ، وتصوير لحالهم حينما يولعون بالحيرة أن هذا الولوع إلى حد أنهم يفرحون كل الفرح لما تلده الشاة ، وكذلك تكمن السخرية في رميهم بإتيان الشاة وتمكدهم : إذا قد يظنون أن الشاة قد علقت من أحدم بغلام أو تنبع السخرية من الفعل وتنادوا ، الذي يصور فرحتهم ودعاء بعضهم بعضاً ، ثم من الاستفهام في الشطر الثاني من البيت الثاني :

وقد كثرت هذا المذهب من التهمك والتصوير الضاحك في شعر جرير ، كما سوف نرى حين الكلام عن جرير .

ويصور امرأة من مزينة تصويراً مضحكاً فيقول :

رب خالة لك بين قدس وآرة      تسقى البشام<sup>(٢)</sup> ورءفها لم يغسل  
تسعى وترقص حول أير حارها      حتى يكاد يمساها أو يفعل  
ويهزأ بهم قائلاً :

(١) نب التيس : صاج عند الهياج .

(٢) رويت في ديوانه ص ٢٩٦ ، تحت البشام ، ولعل الصراب ما سجلناه

والرفع : ما حول الفرج ، وقد يطلق على الفرج .

قوم تواسوا بأكل الجار كلهم      فخيرهم رجلا والتيس مثلاً  
لو ينطق التيس ذو الحصىين وسطهم      لكان ذا شرف فيهم وذا شان (١)

وقال فيهم من مقطوعة :

فما منك أعجب يا بن استها      ولكنني من أولى أعجب  
إذا سمعوا الغي آدوا له      تيوس تنب إذا تضرب (٢)  
ترى التيس عندهم كالجواد      بل التيس وسطهم أنجب  
فلا تدعهم لقراع الكماه      وناد إلى سوءه يركبوا

أما معاصره الحظيئة فقد طار صيته في الهجاء الساخر ، وشهر بيته  
اللاذع الذي يخاطب به الزيرقان :

دع المسكارم لا ترحل لبغيها      واقعدا فإنك أنت الطاعم الكاسي  
وقد كان أطول باعا من حسان في السخرية التي لم تنكده تفارقه في  
أغلب هجائه :

ولعل دارس شعره وحياته دراسة دقيقة يفتن إلى عوامل ثلاثة طبعت  
شخصيته بطابع الساخر : أولها عدم اهتدائه إلى حقيقة أبيه أو كونه ولد زنا ،  
كما كانوا يعبرون ، وقد لازمته تلك العقدة طوال حياته ، وجعلته يحقد على  
المجتمع الذي عاش فيه ، سواء أكان مجتمع أسرته وأقاربه الأذنين ، أم  
المجتمع الأكبر ، وأعنى به قبيلته التي انتسب إليها ، أو المجتمع العربي كله ،  
ولذا سلط سوط هجائه على هذا المجتمع برمته . أما العامل الثاني فهو  
حرمانه ميراثه ، وإحساسه بالظلم والفقر ينشب فيه مخالبه حين كان  
لإخوته الآخرون يستمتعون بالمال الموروث ، وأما العامل الثالث فهو قبح

(١) الديوان طبعة البقوقي ٤١٦

(٢) آدوا : قوا . ديوان حسان طبعة الدار القومية سنة ١٩٧٤ ص ٣٧١

منظاره الذى شهد به المؤرخون الذين أرخوا لحياته ، وماققه قبح المنظر  
أو تشوه الجسد عاملا خطيرا من الموامل التى تطبع الشخص بطابع ما  
ومحاولة تغطية هذا القبح بالتعالى على المجتمع بالسخرية ، وقد ذكرت عدة  
أمثلة تبين ذلك فى مقدمة ديوانه الذى حقهته .

كل هذا إذن ، قد أذكرى فى نفسه تلك المنحة السماوية التى عوضه الله بها عما فقد ،  
وعنى بها المقدرة البيانية ، فأخذ يستعين بها على مهاجمة المجتمع ، وكان المجتمع  
لا يفتأ يضحك منه ومن مفارقاته ، وحاد عن سبيل كثيرين من الشعراء  
السابقين له ، واتخذ سلاحا آخر هو «السخرية» . فجعل كثيرين من كرههم هدفا  
لسخريته ، ولعل زوج أمه هو أول من سدد إليه سهامه .

فما قام فيه ولم يضع عبر الزمن :

لنعم الشيخ أنت لدى المخازى وبس الشيخ أنت لدى المعالى

ونلاحظ أنه هنا فطن إلى «المقابلة» ، وأزرها فى السخرية وقد أولع بها  
جبرير فيما بعد كثيرا ، وكذلك فى التمسك باستخدام ألفاظ المدح فى موضع  
«الذم» ، وعكسها .

ويلجأ إلى الأسلوب الهادى فى السخرية بالتساؤل أو ما يطلق عليه  
«تجاهل العارف» ، كقوله لقداة العبدى :

فخرتم ، ولم تعلم بحادث مجدكم	فها ، ولم بعدها للتفاخر !
ومن أنتم ؟ إنا نسبنا من انتم	وربحكم من أى ربح الاعاصر
متى جئتم ؟ إنا رأينا شخوصكم	ضئلا ، فما إن بيننا من تفاكر
وأنتم أولى جئتم مع البقل والدبا	فطار ، وهذا شخوصكم خير طارا

ويظهر جانباً بالوليد بن عقبة في حادث شربه الخمر أيام عثمان بن عفان  
فيورد القصة بهذا فيرها كأنه مجرد واصف يصف ما أمامه، ثم يترك في  
أثناءها ما يشتم منه روح السخرية .

يقدم لقصته بهذا البيت :

شهد الخطيئة يوم يلتقي ربـه      أن الوليد أحق بالـمـذر  
فيوحى بأنه سوف يقف إلى جانب الوالى، وينفى التهمة عنه ؛ ولكنه  
يفاجئنا بقوله :

نادى - وقد قضوا صلاتهم      أليزيدكم ؟ ثملأ وما يدرى  
ليزيدهم خيراً ولو قبلوا      لقرنت بين الشفع والوتر  
فاتوا أبا وهب ولو فعلوا      وصلت صلاتهم إلى العشر

فنجس السخرية تكمن في عبارة « ليزيدهم خيراً » . وفي الفطر الثانى  
من البيت الثالث . وهو لا يكتفى بهذا ، بل يعلق هازئاً بتصويره جواذاً  
مندفعاً ، ولولا كبحه لاستمر في عدوه :

خلعوا عنائك إذ جريت ولو      خلوا عنائك لم تزل تجرى

وسخر الخطيئة بعثية بن النحاس العجلي زعيم بكر في الكوفة حينما سأله  
عن أشعر الشعراء ، فإذا به يفاجئه ليشفى نفسه ويستقم من بخله قائلاً :  
أشعر الشعراء الذى يقول :

ومن يجعل المعروف من دون عرضه      يفره ، ومن لا يتق اللهتم يشتم

فقال له عتيبة - وقد فطن إلى اذع الخطيئة - : « أما إن هذه الكلمة من  
مقدمات أفاعيك » (١) .

---

(١) وهذا هو ما سماه العقاد وغيره من الباحثين عن أسباب الضحك ، بالدغدغة



ولعل روحه الساخرة من كل ما حولها قد ظهرت بوضوح في وميته التي زعم الرواة أنها حدثت ، وبالقوا فيها ، وقد سيطرت عليه روحه المأجنة<sup>(١)</sup> في أيامه الأخيرة كما سيطرت عليه طوال حياته: طلبوا منه أن يوصي بشيء للمساكين، فسخر أو تماجن قائلا: أوصيهم بالمسألة ما عاشوا فإنها تجارة لا تبور! وحينما سأله أن يعثق عبده قال: متماجنا: اشدوا أنه عبد ما بقي!

- ٢ -

جربير:

هذا الشاعر اليربوعي النيمى قد ولد بين سنة ٣٠، ٣٣ هـ وعمر حتى سنة ١١٤ هـ وقضى الجزء الأكبر من حياته في مراحيم وتميم وبخاصة قرية أثنية، إحدى قرى الوشم بالجمامة وزار البصرة والكوفة ودمشق عدة مرات وكان نصيب الأولى من زياراته وإقامته أوفر من غيرها.

وقد عملت الوراثة والبيئة عملها في طبع هذا الشاعر بالسخرية<sup>(٢)</sup>: ولد

== الفكركية، في قوله: «وَمَا أَن الدغدغة الجسدية تحدث في المواضع التي لا تتعرض كثيرا للمس، ولا يكون موضع الدغدغة معروفا قبلها، كذلك تحدث الدغدغة الفكركية من خاطر غير معهود ولا معروف قبل ذلك، ويبدو أن عنصر الطرود أو المنافاة الذي يجري في سياق التفكير هو العنصر القوي في تكوين المضحكات»، انظر كتاب جحا المضحك المضحك للعقاد ص ٦٣

(١) انظر كتاب الظراف والمتماجنين لابن الجوزي حيث يعرف المجنون بأنه صرف اللفظ عن حقيقة إلى معنى آخر.

(٢) انظر كتابا عن جربير: حياته وشعره، ص ١١٩ وما بعدها، ص ١٧٧ وما بعدها، ص ٣١٧، ص ٣٨٤

لسبعة أشهر فكان لهذا أثره في طبعه بالحساسية (١)، وولد لأبوين يجتمعان في جد واحد فزاد هذا من وراثته ما في الأبوين من عيوب خلقية وخُلُقِية، تلك العيوب التي يوصى إليها من بعيد أوبة حق خاله معرض، وشح أبيه وقصره واشتهاره بأنه كان مضعوفاً، وفحشه - أى التواء قدميه - كل ذلك قد أصاب جريراً ولا شك بالشعور بالنقص، ذلك الذي زاده ضعة قبيلته الدنيا دكيب، التي نعتها مليكة ابنة الخطيئة بأنها - لفقرها ودنامتها - بعرك الكباش ! ولقد زاد من تلك الحساسية وقوف جرير - الذي كان قصيراً دميماً ذا غنة - وقوفه بطاول ويفاخر الفرزدق أكبر شاعر تميمي بل أكبر الشعراء في زمنه، والذي طالما باهى وفاخر بحسبه وقوة محنته : كل تلك العوائل قد تضافرت وامتزجت بكيانه حتى صيرته الشاعر الذي يأتي أن يمتزج بنقصه سواء ذلك الذي يرين على نفسه أو يبدو واضحاً جلياً في خلقه، بل يتملكه الروح الساخر الذي يفتن إلى متناقضات الحياة حوله، فيتحول من الضعف والاستكانة إلى فارس يمسك بيديه سلاحاً فتاكاً هو سلاح الصخرية !!

وقد ظهر شعوره بالنقص من خلال قوله له في معرض الموازنة بينه وبين الفرزدق بعد أن روى نادرة تدل على حقارة أبيه عطية : « فكيف برجل يريد أن يسامى بنى دارم بهذا ؟ » وقد ظهر هذا الشعور أيضاً حينما نأى عن الفخر بكليب قبيلته الدنيا إلى الفخر ببني رياح قائلا :

أثر عدنى وراء بنى رياح      كذبت اثقصرن يداك دونى !  
فقال له بنو كليب - وقد شعروا بذلك - ما هجانا أحد قط بأشد مما هجرتنا به، حين استوى لك أن تقول : وراء بنى كليب فرغت عن آبائك إلى أعمالك !

إذن شعر جرير بالنقص أمام خصمه المتمعن إلى الفرزدق، ذلك الذي

(١) هناك عوامل أخرى فصلتها في كتاب « جرير »

احترقه ونظر إليه دائما راعيا حقيرا لا يملك الإبل، بل النقاد كغيره من الفقراء :  
فيا عجباً ! حتى كليب تسبى وكانت كليب مدرجا للمشاتم

فحق جرير على هذا المجتمع المتعالى والأرستقراطى، الذى يمثل الفرزدق وكان صاحبنا يمثل الديمقراطية الشعبية المتواضعة التى أخذت تحاول إيجاد مكان لها فى مجتمع تسيطر عليه طبقة المجتمع المتعالية بحسبها ومعتقداتها، وهى التى توارثت عن الجاهلية، وحاول الإسلام إزالتها بمثل قول النبى (ص) :  
لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى . . . سخر جرير من هذا المجتمع المتعالى فى شخص الفرزدق الذى التحم معه فى معركة هجائية حامية الوطيس لم يشهد لها الأدب العربى مثيلاً، تلك المعركة التى استمرت نصف قرن تقريباً  
(٦٥ - ١١٤ هـ) .

لعل جرير لم يكن متفلساً بهذا المعنى الكبير، ولكنه كان البؤرة التى تتجمع فيها إحساسات الشعب أو المجتمع، فيعطى القدرة على الكلام أو التعبير فيتكلم، ويترجم عما أحسه مجتمعه وما ينوء به من آلام وعلل، ولا نبعد عن الصواب إذا قلنا إن شاعرنا قد ورت الإحساس بالظلم الاجتماعى عن أجداده منذ القدم : هؤلاء الذين تسلسل فيهم هذا الشعور بالظلم الاجتماعى، فأخذ ينتقل من أب إلى ابن إلى حفيد، حتى تركز فى مثل هذا الشاعر الذى منحه الله جهازاً عصيباً حساساً شحناً بالآلام منذ قديم الزمان، ثم انعكست عليه آلام مجتمعه البدوى ثم الحضرى الذى عاش فيه، فكانت أخيراً عود الثقب الذى أشعله بالسخرية، يحاول بها تكبير عيوب هذه الطبقة التى تزعم لنفسها الكمال والعظمة والمجد وتدوس بأقدامها بقية مجتمعاتها الضعيف المبهضوم، معتمدة على أن ما تمتلئ به من عيوب قد غطاه ستار المجد الزائف الكثيف.

ولست العيوب التى سدد إليها جرير سهامه عيوباً شخصية فى الفرزدق أو الأحظال أو غيرهما، بل هى عيوب اجتماعية تتمثل وتظهر فى المجتمع

الخاص أو الأمرة التي ينتمون إليها ، وهناك عناصر مشتركة في هجائه الأشخاص المختلفين : كالعنصر النسائي الذي استند إليه استنادا كبيرا بحق وبغير حق ، وهناك عناصر غير مشتركة كالعنصرانية التي تميز بها الأخطل ، والفسوق والفجور اللذين اشتهر بهما الفرزدق ، ودقة الأصل ولؤمه وهما ما عرف بهما بنو التميم ، والعمور الذي عير به الأعور النبهاني .

وأما الفرزدق : فقد مى جدته فقيرة بالزنا وفقيرة بهذه أم لجدته صمصعة ، وكان لصمصعة عيود قيون منهم جبير ووقبان وديسم ، فلذلك جعلت مجاشع قيونا واتخذ جرير من هذا مادة لسخريته ، كما في قوله ذاكرا غالبا أباه :

وجدنا جبيراً أباً غالباً بعيد القرابة من معبد

ويتحدث عن بنى مجاشع دائماً بالقيون ، كأنه قد أصبح اسمهم حقاً ، وأنه لا ينكره منكر . ولما وصف غالب أهر الفرزدق بأنه مثل دحوق الحمار ، وأنه كان يقبب كالبعير كلما تكلم ، التفت هذه التسمية ، ونعت الفرزدق بها ، ضاربا صفحا عن اسمه الحقيقي ، فكأنه لا يعرف إلا بحوق الحمار :

وإذا نفرت بأهات مجاشع فأخرد بقبب ، واذكر النخوارا

• • •

وكان جرير كثيراً ما يستعمل الألفاظ التي تدل على الاستخفاف ، لإيهامها ، ولم يسميها مثل جوخي <sup>(١)</sup> ، وخجج <sup>(٢)</sup> ، والنخوار <sup>(٣)</sup> ،

---

(١) اسم للإهانة .

(٢) الخججة : سرعة الإناخة والجماع ، ولها معان أخرى .

(٣) أى الجبان

والجيثلوط (١)، وخضاف أو خيضف (٢)، وقدام (٣)، ووقبان (٤)، وضوطر (٥)، ورغوان. وشعرة، وزبد استها، والجلوبق (٦)، وهذه أمثلة لما قلت، ونلاحظ ما تشعه الألفاظ بموسيقاها ورينها من إحساس بالهزء :

لقد كان يا أولاد خجنج فيكم محول رحل للزير ومانع  
فإن مجاشعا - فتبينوم - بنو جوحى وخجنج والقدام

ولعل إحياء الألفاظ السابقة لا يكون بالقوة التي كان بها في عصر جرير، ولكننا إذا تصفحنا المعاجم استطعنا أن نستشعر إحياءها، بالإضافة إلى موسيقاها، فعلى الرغم من أنها تشتمل على الحروف التي تنفر منها الأذن ولا تحبها كثيرا كالحاء وبخاصة إذا اجتمعت مع الجيم في مثل جوحى وخجنج، أو إذا ما تكررت في كلمة واحدة، وكذلك حرف الثاء والطاء في جيثلوط، والضاد والطاء في ضوطر، والجيم والقاف في هذه اللفظة المستطيلة جلوبق :

رجوتم يابنى وقبان موى وأرجو أن تطول لكم حياتى  
إذا لاقى بنو وقبان غما شددت على أنوفهم العصا  
بقوله :

تلقى بنات أبى الجلوبق نزعا نحر القيون، وما بهن نفا  
وهكذا يتخذ جرير من غرابة الألفاظ ووقعها مادة للهزء حتى يبالغ في ذلك فيستعمل ألفاظا ربما لم يعرف معناها كلفظة الجيثلوط، التي تشع

(١) شتم اخترعه للذء. وكان معناه : السكذابة السلاحة، مركب من جلط، جشط، ثلط (القاموس)

(٢) الخضف : الضطر

(٣) هى التى تلتطخ الجعر

(٤) من الوقب وهو دخول الأير

(٥) الضخم اللثيم العظيم الامت

(٦) الرجل ذو الجلبة والضجة .

إشعاعا غربيا كأنها توميء حقا - في البيت - إلى أن الذي يتحدث عنه مجهول النسب أو المكاة أو كليهما ، لأن معنى اللفظة ورينها المرسقى منفر بطولها من جهة ، وبينائها بحرف الطاء ، أو بالمقطع الأخير (لوط) من جهة أخرى ، وربما كان ساخرا في ذلك كالمعري حينما أطلق على « الجنى » الذى زعم أنه التقى به في الجنة اسما يكاد يكون مضحكا بتركيبه وإيهامه : « الخيتور أحد بنى الشصبان ، ويبالغ في السخرية بكسنية ساخرة طويلة في حروفها ، غريبة في وقعها على الأذن ، أبو هدرش ، كما نعت مجاشعا ، بأبى الجلوبق ، وإنما هذا يحدث في كل زمن ، وربما في كل لغة ، فقد سمعت أحد العامة يلقب الآخر ضاحكا ساخرا : لا يقصد السباب بل السخرية « يا ابن مكله زغل ، وليس بالطبع لهذه التسمية أو اللفظة معنى يفهمه الناعت أو المنعوت بها ، ولكن إيهام معناها هو الذى ينبع منه السخرية بطوله أو بشكله أو بهيئته .

وإذا تصفحنا المعاجم ، وجدنا كثيرا من هذه الألفاظ التى تنطق فى الأذن طنيننا خاصا ربما عرف الإنسان مدلولها من وقعها فى أذنه مثل « العفنجج » ( وهو الضخم الآحق ) والعشوزن ( وهو العسر الملتوى من كل شيء ، والشديد الخلق ) وربما اخترعت هذه الألفاظ فى عصور اللغة الأولى حيث لم تشتق من مواد كانت واضحة المدلول فى أذهانهم ، ونحتوا منها ألفاظا مقاربة لما فى أذهانهم فى المعنى ، بل مثل هذه الألفاظ الطويلة المقاطع من اشتقاق شخص من الأشخاص هدته إلى ذلك حاسته السمعية التى تدرك بالفطرة الحروف وصفاتها ومخارجها ومدى دلالتها .

وقد لحظ الدكتور محمد محمد حسين هذه الخاصية وهى مهارته فى استعمال بعض الألفاظ ذات الرنين الساخر فقال : ومن الهجائين من يرزق إلى جانب هذه الموهبة عبقرية فى الحس اللفظى تلتئم فيها الألفاظ - من حيث هى حروف تتوالى - بالصور التثام عجيبا ، ولا نكاد نعرف هجاء عربيا يعدل جريرا فى هذه الناحية : فهجاؤه يستفز القارىء للضحك ، قبل أن يروى فى معناه ويحتمقه <sup>(١)</sup> .

ولم يسخر جرير بالفرزدق وآله عن طريق الألفاظ ذات الرنين الساخر  
فحسب ، بل سخر أيضا عن طريق الصور المركبة أيضا : فقد عبر الفرزدق  
بأدوات القيون التي يستعملونها ، فذكره بها كثيرا - ونسبها إليه ونسبه إليها -  
كما ينسب الابن إلى أبيه ، في تركيب ضاحك ساخر : يستعمل أسلوب الأمر  
التم - كمى مرة ، وأسلوب التفعيم التهم كمى مرة أخرى ، والمقابلة  
مرة ثالثة :

ألا إنما مجد فرزدق : كبيره وذخر له في الجنة قعاقع  
كبرك يا أخبت قين عرقا ١  
هلا حميت الكبر أن يخرقا ٢

وهكذا يذكر دائما - ويلج في هذا إلحاحا - أنه قد ورث عن أبيه  
وأجداده أدوات القين ، كأنما يثبت أنهم حقا أولاد العبيد القيون - جبير  
وديسم - الذين ادعى أنهم نزوا على جدته فقيرة :

وأورثك القين العلاء ومرجلا  
وإصلاح أخرات (١) الفؤوس الكرازم ٢  
إذا عدت مكارمها تميم فخرت بمرجل وبعقر ناب  
وسيف أبي الفرزدق - قد علمتم قدوم غير ثابتة النصاب  
ويخطب قوم حدراء - بنى زيق من شيبان - ساخرا بالفرزدق :  
فأمثل ما في صهركم أن صهركم مجيد لكم لي الكتيشف وشاعب  
أبفخر بالمحرم قين ليلى وبالكبر المرقع والعلاء

(١) أخرات جمع خرت وهو الثقب في الفأس ، الكرازم : فأس مفلوطة الحد  
والعلاء : السندان .

وفاز الفرزدق بالكلبتين وعدل من الحم الأسود  
فرقع لجعدك أكياره وأصلح متاعك لا يفسد  
وأذن العلاء وأذن القدوم ووسع لكبرك في المقعد  
وأوصى جبير إلى غالب وصية ذى الرحم المجهد  
فقال أرفقن بلى الكتيف وحك المشاعب والمجهد

وكثيرا ما يذكر هازنا الرقيق بالكبير وغيره :

ترفتت بالكبيرين قين مجاشع وأنت بهز المشرفية أعنف  
وهكذا نجد جريرا يسخر في صورة حية ، كأنها حدثت في الواقع ،  
حينما يتخيل حواراً كأنه وقع حقا بين غالب - أبي الفرزدق - وبين جبير  
الذى ينسب إليه ، فينصحه ، بماذا ؟ بأمر شيء عنده ! وكأنها الوصية التى  
يريد أن يهمل بها فى أذنه قبل الوداع الأخير .. هذه الوصاة هى : أن يرفق  
بلى الكتيف !

ويضحك جرير ضحكا عاليا حينما يزعم أن جدهم القين قد دفن ، ومعه  
أمر شيء يملكه ، ألا وهو أدوائه التى يعتز بها ... ومن يبكى صداه ؟ إنسان ؟  
كلا ! بل هو شيء حى ، وما زال حيا فى نفس الميت . ألا وهو الرجل ،  
الذى كان ذا صوت مدو فى الدنيا :

وجد الكتيف ذخيرة فى قبره والكلبتان جعمن والميدشار

ولعل السخرية نابعة من لفظة « ذخيرة » ، حالة كونها ذخيرة له وذخرا  
فى قبره .

يبكى صداه - إذا تهزم - مرجل أو إن تثلم برمة أعشار<sup>(١)</sup>  
لأنه قد شخخص المرجل - لأنه عزيز عليه - فجعله شخصا مخلصا ييبكى

---

(١) البرمة : قدر من حجارة .



شديدة حين لم يجد مخلصاً من بنى قرابته يبكى صداه ، وبأخذ بشاره كاء فاد الجاهليين ، حتى تقول الهامة اسقوني ، ثم يتصور اكان يحدث فى الحياة من اهتزاز الأرض لكثرة طرق الحديد فيتصور هازناً ، المقر ، الذى دفن فيه غالب أبو الفرزدق والذى افتخر به الفرزدق كثيراً ، يتصوره كأنه رجف :

رجف (المقر) وصاح فى شرقيه      قين عليه دواخن وشرار !

ويتصور جرير الفرزدق قيناً حقاً ، فيسبغ عليه من سمات القيمين ما جعله حذراء ، خطيبته تبين فيه هذه الصفة ، فتذكره أيماء الإنكار ، وتأتى أن يكون لها قريباً ، ثم يدير حواراً - كأنه حدث حقيقة - وذلك لكي يزيد من واقعية الصورة ، فيجعل الحوار بين حذراء والفرزدق - مع أنها لم يأتقيا - كأنه قد تزوجها حقاً :

حذراء أنكرت القيمون ويرجمهم	والحر يمنع ضيمه الإنكار
لما رأت صداً الحديد بجوده	فاللون أ ورق والبنان قصار
قال الفرزدق رقى أكيارنا	قالت وكيف ترقع الأكيار ؟
رقع متاعك إن جدى خالده	والقين جدك لم يلدك نزار !

واعلمنا نلاحظ هنا مهارته فى تصوير سلاطة لسان الزوجة فى بعض الأحيان حينما تخاطب زوجها ، فتغيره بأبيه وجده ، إذ تفخر هى بحسبها ونسبها ، ثم تزيد فى سلاطتها وحدثها ، حتى تنفيه عن العرب !

ثم زاد جرير فى التهم ، فتخيل أنها دعت ربه ، الصور ، الذى صور الفرزدق بهذه الصورة ، دعتة مستغيثة ضارعة :

دعت المصور دعوة مسموعة	ومع الدعاء تضرع وجوار !
عادت بربك أن يكون قريبها	قينا أحجم لفسوه إعصارا

إن البيتين مشحونان بالسحرية في كل لفظة ، فهي مع دعائها قد تضرعت ووقفت منه - تعالى - موقف الضراعة لأمر عظيم ، وخطب جسم نزل بها - أو كاد - وتريد جاهدة أن تتخلص منه . ثم يهزأ به بأن يفهم بكلمة وأحمه وفيها من الاستصغار والجزء ما لا سبيل لوصفه أو لتصويره ، بل تحسه الأذن فيبسم الشجر ، ثم يكبر صورة فسائه فيجعله إصصا ١١ أرايت إلى أى حد يهزأ به ويقسو عليه ؟ ثم ينتهى بالحوار الساخر فتقول له حدراء :

ليست لقومى بالكثيف تجارة لكن قومى بالطعان تجارا

وبذلك ترد عليه رداً غريباً مضحكاً نجعله ينقمر ، ولا يحاول أن يلح في طلب يدها . وإذا أضفنا مدى ما يشمر به الرجل من إهانة وخيبة أمل إذا ما تقدم إلى امرأة خاطباً ، فيرد عنها خائباً ، فيزيد جرير من هذه الخيبة بأن يشيع هذا بين الناس ويذيعه بهذا التهمك المرير ، وبهذه الواقية التي يرضها السامع أنها حدث حقيقة ، إذا عرفنا هذا أدركنا وقع هذا على الفرزدق ومقدار جنبه وخوفه من جرير ، وهناك قصة يروها أبو الفرج الأصفهاني : وهي أن ماجنا كان يسبح مع الفرزدق وغيره في بركة ماء ، وجعل هذا الماجن ينقل إلى الفرزدق ويقول : دعرنى أنسكه حتى لا يهجوننا أبداً ١٢ فجعل الفرزدق يستغيث ويقول : ويلكم ، لا يمس جلده جلدى فيبلغ ذلك جريراً فيوجب على أنه قد كان منه الذى يقول ١٣ وتدل هذه القصة على مدى خوف الفرزدق من تشنيع جرير بحق وبغير حق .

ولا يكتفى جرير بوصف خصمه بلونه الأورق وبنائه القصير ، بل يصف الشرار المتطاير حوله ، والدخان المتصاعد من النار : دقن عليه دواخن وشرار ، فيقول :

أقن يا قديم يعيب قيساً يطير على لهازمه الشرار ١٩  
 فيجسد الصورة تجسيدا : فهذه لهازمه ، وهذا هو الشرار المتطاير حوله  
 كأنها مائلة أمام أعيننا الآن بحركتها الواقعية .

ثم يكفى عن القين الذى اتهمت به أمه وجدته بالكبتين والكير ، لأنها  
 من أخص لوازمه ، وبذلك رمى أمه وجدته بالزنا فى صورة مظلمة متوارية  
 مضحكة :

ولقد نهيتك أن تسب مخرقا وفراش أمك كابتان وكير  
 وبما سلكه فى السخرية طريقة المقابلة ، فيقابل كثيرا صورة صنع  
 الفرزدق - الذى هو أحد القيون - السيوف بينما جرير وقومه يستخدمونها  
 بعد ذلك فى ميدان الشرف والفخار :

كان العنان على أيك محرما والكير كان عليه غير حرام  
 إذا صقلوا سيفاً ضربنا بنصله وعاد إلينا جفنه وحائله  
 فأوردك العملاء وأورثونا رباط الخيل أفنية القباب  
 نصف السيوف وغيركم يعصى بها  
 يا بن القيون ، وذاك فعل الصيقل  
 وتذكر هز المشرقي يمينه  
 ويعرف كفيه الإناء المكثف

وهنا يمزج بين حادثة « بنو السيف » فى أيام سليمان بن عبد الملك ،  
 حينما أعطاه بنو عبس سيفاً كايلاً ، فلم يستطع أن يضرب به رقبة الأسير ،  
 بينما نجح جرير فى ذلك ، ومن ثم عيره كثيراً بهذه الحادثة ، فهو يقابل  
 ويجمع بين هذه الحادثة التى خزى بها وضحك منه سليمان والحاضرون ، وبين  
 كونهم « قيونا » أو رميهم بذلك :

وسيف أبي الفرزدق - قد علمتم - قدوم غير ثابتة النصاب  
وأخيرا فهو يضع هذه الأدوات بالقرب من أعضاء خفية من جسمه  
فيجعلها داخل إطار ساخر :

هو القين يدنى الكبير من صدأ استه

ويعرف من الكلبيين أنامله  
أجعل يا بن القين أوسا وحائما كذى مرجل عند استه وقدوم  
إذا مالوى بالكلبيين كثيفة وأين وراء الكبير أيرا محما  
ويقابل مقابلة لطيفة هازنا مصورا حبهم للكبير وترفقهم به ، لأنه عزيز  
عليهم !

ترفت بالكيرين قين مجاشع وأنت بهز المشرفة أعنف !

\*\*\*

التعمير بالحبوة ، ومقتل الزبير وأكل الخزير (١) :

لما قال الفرزدق مفتخرا : « بيتا زارة محتب بفنائهم ، سخر جرير سخرية  
لاذعة من صورة المحتبى التي كانت تعد في أيامهم علامة الشرف والعزة والمنعة  
وقرن هذه الصورة « الصامته ، التي تمنع صاحبها من التحرك ، قرنها بعدم  
تحركهم لإفقاذا الزبير بن العوام ، الذي قتل بعد أن استجار بهم ولم يجزوه !  
وارتسمت كذلك في مخيلته - بمناسبة الحبوة ومقتل الزبير - تلك الصورة  
التي نقلتها الأسطورة ، وهي أكلهم الخزير سراعا ، متلهفين لما دعوا إلى ذلك ،  
فسكر هذا المعنى كثيرا - وهو أنهم قوم لا يستطيعون إلا عقد الحبي ، والقفود  
عن إجارة المستجير وأكل الخزير بنهم :

ودعا الزبير - فما تحركت الحبي ! لو ستمهم جحف (٢) الخزيراء روا  
والمقابلة بين دعوة الزبير ، وعدم تحرك الحبي هي منبع السخرية هنا ،

(١) الخزيرة : شبه عسيدة بلحم وبلا لحم عسيدة أو مرقعة من بلالة النخالة.

(٢) الجحفة : اليسير من الثريد في الإناء لا يملؤه والغرفة من الطعام أو مل اليد.

وكذلك استعماله جمع « حبة » : حبي ، ثم يكمل البيت بأنهم : لو سامهم أحد  
« الخزير ، اتحركرا ، بل : لثاروا ، فيجعل غضبهم من يطلب الخزير ثورة ،  
أما إذا دعاهم أحد واستجار بهم ، فهم هامدون محبون !

أتفخر بالحبي وخزيت فيها      وقبل اليوم ما فضحت حبا كما  
قتل الزبير وأنت عاقد حبة      قبعا لحبوتك التي لم تحلل !  
وتم يشبههم تشبيها مضحكا ، فكانهم ضباع تبكى ، لاهل القتل ، بل  
ذكرها ، !

مثل الضباع تغنيهن نائمة      تبكى على كمر القتل بصفين !  
وقد كان في يوم الحوارى جاركم      أحاديث صمت من نأها المسمع  
وبتم تعشون الخزير كأنكم      مطلقة حيناً وحيناً تراجع  
إذا طرب الحمام - حمام نجد -      نعى جار الأقارع والحفات  
إذا ما الليل هاج صدى حزيناً      بكى جزعا عليه إلى الممات !

والسخرية نابعة من إضافة « جار » ، إلى الأقارع والحفات ، ليزيد في  
تفخيمهم ، ثم يضيف إليه ذلك العار :

ولا نحتبي عند عقد الجوار      بغير النجاد ولا نرتدى  
شدد تم حباكم على غدره      بحبشان والسيف لم يغمد  
وكثيرا ما يشبه مجاشعا - ساخرا - بالضباع ، التي يقال عنها إنها تقترب  
من القتل ، وقد انتفخت بطونهم ، ونعظت أيورهم ، تبغى من وراء ذلك  
غرضا من ميت لا يفيد :

تراغيتم يوم الزبير كأنكم      ضباع بذي قارتمنى الأمانيا  
والسخرية نابعة من هنا من كلمة « الأمانى » فجعل الأمانة الواحدة -  
أمانى كثيرة - فهو قد صور حب الضباع لما تتميناه بأنها كثيرة . فهو لم يكتف

بسخرته منها بتسميتها أمنية ، حتى عدما أمانى . والمعروف أن الأمنية شيء بعيد التحقيق بمعنى المرء حصوله ، فكذلك هى تمنى الضراب ( الجماع ) الحقيقى وهو شيء بعيد الحصول من ميت .

ويصفهم جرير .. بعد قتل الزبير .. كأنهم تعشوا الخزير ، وامتلأت به بطونهم فثقلت لذلك أجفانهم ، فناموا من البشم ، ولم يستطيعوا إجارته :

باتوا .. وقد قتل الزبير .. كأنهم خور صوادر عن نجميل قراقر  
ودعا الزبير بجاشعاً فترمرت للغدر ألأم أنف وسبال<sup>(١)</sup>

وهو هنا يعبر تعبيراً قوياً عن غدرهم بلفظة ( ترمزت ) وفيها من القوة والدلالة الصوتية ما يدل على أنه وصل إلى غرضه بتعبيره عن غدرهم وتجمعهم له وتهيشهم تهيأ شديداً قبل القيام به ، وهو هذا يرسم صورة كاريكاتورية لهذه الأنوف التى اضطربت ، وهذه السبال التى تحركت ، علامة على الغدر .

ثم يقابل بين الخزير - كطعام - وارتضاع الفيشل فى حادثة أبى سواج فقال :

ما كان ينكر فى ندى بجاشع أكل الخزير ولا ارتفاع الفيشل

فهو منتهز فرصة هذا التقرير أو الإقرار الذى ينسبه إليهم : وهو أكل الخزير .. فيمزج به فى الخفاء وفى دهاء .. شيئاً آخر قبيحاً أشد القبح ، ليولد السخرية بهم ويزيد التهمك والهمز بهم فيقول : ارتضاع الفيشل كشراب ، نتيجة منطوقية بعد الطعام !

شهد الممهل أن جيش بجاشع رضعوا الأيور على الخزير فخاروا

(١) واستعمل جرير ( الترمز ) فى عدة مواضع أخرى ، فها قال :

إذا سار فى الركب البعيت عرقم ترمز حمراء العجان على الرحل  
أضحى يرمز حاجبيه كأنه ذبح له بقصيرتين وجار

ويضا حكمهم ساخرا فيقول :

لا تغلبن على ارتضاع أيوركم أوصى بذلك أبوكم المهارا  
ويربط كذلك بين تخمة بطونهم التي أصيبوا بها من أكل الخزير - وبين  
انتفاخ خصاهم الذي يمكن أن يكون قد نتج عن انتفاخ البطون :

تقرقر يا فرزدق إذ فرعتم خزيرا بات في أدر ثقال  
ومثله ما قال للأخطل ( واستخدم لفظ قرقر بما فيها من دلالة صوتية )  
مسخ العباء وريح نسوة تغلب عدس يقرقر في البطون وفول  
وفي القرقرة دلالة على الترجيع وإخراج الصوت ، فكان لهضم الطعام  
( الخزير ) في بطونهم صوت يشبه القرقرة ، ولعل مثله قوله :

يغدون .. قد نفخ الخزير بطونهم رغدا ، وضيف بنى عقال بخفف  
مباشم عن غب الخزير كأنما نصرت في أعفاجهن الضفادع

\* \* \*

التعبير بعقر الناب بصورة ، وحادثة نبو السيف

وغير جرير الفرزدق وسخر منهم .. أى من مجاشع - بشيئين : أحدهما  
لفر الفرزدق بعقر الناب بصورة ، وهى المعاقرة التى حدثت بين أبيه غالب  
وسحيم بن وثيل الرياحى فى أيام عثمان بن عفان .

وكذلك سخر منهم ثانيا بشيء آخر ، وهو ( نبو السيف ) لما أراد أن  
يضرب به عنق الأسير أمام سليمان ، وكذلك سخر منهم كثيرا برميهم بارتضاع  
الفيشل فى مقابل سخرية الفرزدق - كليب حينما غيرهم بمحدث ( صرد  
البربوعى ) الذى شرب منى عبد أبى سواج ، كما فصل ذلك أبو عبيدة فى  
النقيضة رقم ٢٩ ص ٢٠٦ من النقااض .

وكان جرير - يمزج كل هذه العيوب بعضها ببعض ، فيركب من عقر

الناب والكير صورة ساخرة ضاحكة : فيقول - مقابلا بين إيراد يرثع الخيل للحرب وإيراد مجاشع الإبل حاملة الكير :

فتورد يوم الروع خيلا مغيرة      وتورد نابا تحمل الكير صورا  
سبقت بأيام الفعال فلم تجد      لقومك إلا عقر نابك مفخرا  
لقيت القروم المخاطر فلم يكن      بكيرك إلا أن تكش وتعر

وقال أيضا في عقر الناب :

لقد سرتني ألا تمد مجاشع      من الفخر إلا عقر ناب بصور  
ويمزج بين نبو السيف عن رقبة الأسير أيام سليمان ، وعدم نبوه حين عقر الناب :

ضربت به عرقوب ناب بصور      ولا تضربون البيض تحت الغمام  
دعوا المجدل لأن تسوقوا كرومكم      وقينا عراقينا وقينا يمانيا  
ويسخر علينا بارد تضاع الأير :  
تلك المكارم لم تجد أيامها      لمجاشع ، فقفوا ثعالة فارضعوا  
لا نظامون وفي نهج عمكم      مروى ، وعند بنى سويد مشيع  
رضعتم ، ثم سال على الحاكم      ثعالة حين لم تجدوا شرابا

\*\*\*

نسوة مجاشع :

وقد قلت قبل أن يمزج عناصر السخرية بعضها ببعض ، كما سماه برجسون ، تدخل السلاسل ، فهو لا ينسى الخنزير في هجائه نسوة مجاشع ، والسخرية بهم ، فيقول :

إذا طرقت بنخربة من مجاشع      أتى دون رأس والسايباء خزيرها  
وأكثر هجاء نسوة مجاشع يدور حول أعضائهن التناسلية ورمهن



بالفاحشة في تصوير ما جن يميل إلى السخرية أحيانا ، وأكثر من تعرض  
لهجائه الموجه ، جمع ، جمع ، أخت الفرزدق . فقد انتهز فرصة تعرض همران بن مرة  
المنقرى ، لها في الطريق - انتقاما من الفرزدق - فادعى ادعاء بارتكابها  
الفاحشة ورمائها في جل قصائده الهجائية ونقائضه :

وجعثن حين أسهل ناطقاها      عفرتم نيم جمعثن في التراب  
فشدى من صلاك على الردافى      ولا تدعى فإنك إن تجابى  
فـ او كاوم جمعثن إنـ سعدة      ذوو عادية ولهى رغب ا

ويربط بين جمعثن ، والحي ، كما هو دأبنا أن يربط ويمزج بين  
السوءات أو النقائص مقابلا بينها :

نسيتم عقر جمعثن واحتبيتهم      ألا تبا لفضحك بالحبات ا  
وقد هعبت مواقع ركبتيها      من التبراك ليس من الصلاة ا  
قبيت الليل تسلق اسكتها      كدأب الترك تلعب بالكرات  
وحط المنقرى بها فقرت      على أم القفا ، والليل عات ا

فهذا تصوير مجسم للحادثة المزعومة حتى يخيل للناس أنها وقعت حقا ،  
ويزيده من واقعيتها لإجراء الكلام على لسانها مستغنية فيقول :

تفادى غالبا وبئى عقبال      لقد أخزيت قومك في النداء  
تدلى بابت مرة - قد علمتم      تدلى ، وهو ينهن باللهلاة ا

فهو يبالغ في نكاحها حتى يجعل ركبتيها ندى ، وتسلق اسكتها فيشبهها  
تشبها ساخرا بكرة يتلفها الترك - وهم الذين يكرههم العرب ويسخرون  
بهم دائما - ويلعبون بها ، وهذا زيادة في احتقارها ، وهنا يزيد في المبالغة  
فيصور الحركة بكلمة د حط ، وتبلغ السخرية مقتهها بإضافة العتو ، الليل ،  
كأنه حمل شدة المنقرى بها على الليل أيضا ، فهو من قبيل تماوج الأضواء

والألوان وتأثير أحدها في الآخر ، ، فأراد جملة بهيما شديد السواد فنعته بالعتو : ومن الغريب أنه لا يذكر الفاعل بعد ( تساق ) فيستعمل للمبنى المجهول كأنه لا يعرف من الذى فعل بها الفاحشة ، فكأنهم كثر لا يستطيع إحصاء عددهم ، فبنى الفعل ( تساق ) المجهول ، وهذا زيادة في مجرته بهجائها ، وكذلك فقد صرر حركة رفعها والانتفاض بها تصويرا واقعيا لا بكلمة ( حط ) فحسب ، بل بالفعل ( ينهر ) من ( نهز الدلو ) ، فهو دائما أبدا مدلى أنا مصعده به أنا آخر في حركة دائبة .

وكذلك يسخر سخرية لاذعة حينما يشبه ( جس ابن مرة فرجها ) بحس الطبيب ، فهو يترفق بها كأنما يعالجها ، مع اختلاف العلاج في كلا الحالين ، فالأولى يعالج فيها من داء خارجى ماضى ، والأخرى من داء داخلى ألا وهو الشهوة .

غمز ابن مرة يافزردق كينها غمز الطبيب نغانغ المعذور  
ولعل في استعماله للفعل ( غمز ) خبثا ودهاء يدلان على براعة في استعمال الألفاظ ، وكذلك نداؤه الفزردق في وسط العبارة فيه تنبيه وغمز وسخرية هنيئة ، وهذه أمثلة أخرى لا تخفى فيها السخرية من الكلمات ( حط ) و ( تشاءب ) :

وجعثن حط بها المنقرى كرجع يد الفالج الأحره  
تشاءب من طول ما أبركت تشاوب ذى الرقية الأدرد

ويسخر منه لما تغزله ، فيلومه أن لم يثأربينت العظاماء : ( بنت القيون ) :

فبلا ثارت بينت القيون وتترك شوقا إلى ( مهدد )  
وهلا ثارت بحل النطاق ودق الخلاخل والمعضد ؟ !

ويضحك ساخرأ حينما يشبه الزكاح ، بالطعن ، ثم يبالغ ، فيزعم أنها  
جرحت ودعا لها الطيب ، ولكن بعد فوات الوقت :

طعنت بأير مقاعسى مخرج فاصيب عرق عجانها النعار  
باتت .. تكلف ما علمت . ولم تكن عون تكلفه ولا أبكار

دعى الطيب - طيب جمع - بعدما

عصت للعروق وأدبر المسبار

شبهت شعرتها إذا ما أبركت أذن أذب يفره السمسار

أما السخرية العنيفة في تشبيهه شعرتها في البيت الأخير يحسها بعناية كما  
يفعل السمسار الذي يدقق النظر واللس ، ويطيل ويبالغ في الفحص ،  
فهى في غنى عن التعليق .

ويطعن الفرزدق طعنة نجلاء حين يتبأله ، فيتخيل ويزعم أن ثمة حوارا  
دار بينه وبين أخته يسألها - إمعانا في الواقعية - من الذى أصابها ؟ أبى مرة  
أم صجار ؟ ثم يرد هو قائلا : ليس لها أن تتكلم ، لأن عجانها ناطق وشاهد  
بأن كليهما في الحقيقة هما اللذان تداولاها :

قال الفرزدق هل أصابك فى السرى

عمرو بن مرة أو لقيت صحارا

وسألت جمع من أصابك منهم وعجان جمع يخبر الأخبارا

ثم يتهكم بغالب ، ويزعم أن الحسرة أخذت منه كل مأخذ :

رأى غالب آثار فيشل منقر فما زال منها غالب بعد مهترا

بكى غالب ١١ لما رأى نطقا بها من الذل إذ ألقى على النار أبصرا

ولما استغاثت جمع - ولم نجد مغيثا - دافعهم . . . باستها !

وهذا أنكى وأمر !

نبئت جمعثن دافعتهم باستها إذ لم تجدد لمجاشع من يدفع  
قال الفرزدق - وابن مرة جامع -

كيف الحياة ؟ وفيك هذا أجمع ١٤

والسخرية تنبع من كلمة « وفيك هذا أجمع » كما قال :

لم تلق جمعثن حاميا يحمي استها وبخلجهم زبد المشافر تنق  
وقال :

وجدوا الجمعثن - حين قبقت استها - مثل الوجار أوى إليه الأضلع  
هدموا وجارك بعد ما خبرتهم ألا تنكاد تجوز فيه الإصبع  
يبكي الفرزدق - والدعاء على استها - قبجا لتلك غروب عين تدمع  
وينطقها أيضا فنقول :

ونقول جمعثن - وابن مرة جامع - خلجا ، رويدا ، قد نزع طحال  
وقد كرر « جامع » كثيرا ولهذه اللفظة دلالتها العنيفة المضحكة .  
وأخيرا ... يتهم بالفرزدق جامعا بين عنفقه واسكتيها :

ترى برصا بأسفل اسكتيها كعنفة الفرزدق حين شابا  
ويتهم عابثا « بسكينة » عمه الفرزدق :

ودت سكةنة أن مسجد قومها كانت سواريه أيور يقال  
ويجمع بين « سبال » الفرزدق ، وشرار القين ، وولوع أمه بالقين :

يظل القين - بعد نكاح ليلي - يطير على سبالكم الشرارا  
ليلى التي زفرت وقالت حبذا عرق القيانة من خير يتبع  
قفيرة أم القين يثمر بظرها مرارا ، إذ ما عرّج الصيف أثمرا  
تسوف صنان القين - من ربه به - ليجعل في ثقب المحالة محورا

~ \* ~

ههنا جرير الفرزدق نفسه وسخريته به :

نراه كثيرا ما يستخدم المقابلة الغريبة :

وجد الفرزدق في مساعي دارم قصرا - إذا افتخروا - وطول أيور  
ويطعنه في أخلاقه ، فيصور قلة دينه وفجوره حتى يقول هازئا :

فإنك لو تعطى الفرزق درهما على دين نصرانية لتنصرا  
منحت الجار أيرك - وهو أعمى - وبئس منيحة الزمن المحيل  
تدليت تزنى من ثمانين قامة وقصرت عن باع العلى والمكارم

وكما قلنا - من قبل - إنه يربط بين المخازى أو السوءات التى يعير بها ،  
فهو هنا أيضا يربط حادثه ، نبر السيف ، ولوجه الماخور ، عادلا عن خطته  
الأولى من تقييد نفسه لحفظ القرآن الكريم في مطلع شبابه :

لحى الله من ينبر الحسام بكفه ومن يلج الماخور في الحجل يرسف  
وقائلة ما للفرزدق لا يرى على السن يستغنى ولا يتعفف  
وما أطفه حينما يتهم به ، فيجمع بين ربطه نفسه بالحجل وعدم ربطه  
( حدراء ) بالأغلال ، ففرت بذلك منه :

وقد بات مغترا بحدراء قينكم ونام ، ولم يجعل على قيدها قفلا  
ومن ناحية هجائه الخلقى ، فإن الفرزدق - لكونه قصيرا قبيح الوجه -  
فقد شبهه كثيرا بالقرد :

وهل كان الفرزدق غير قرد أصابته الصواعق فاستدارا ؟  
وبما يتصل بهذا الهجاء الخلقى الذى يصور الشخص تصويرا كاريكاتوريا  
مضحكا سخرية جرير - بالحيه طان - وكان أسود ، وقد وآه جرير يوم عيد  
في قبص أبيض :

كمانه - لما بدا للناس -  
أير حمار لف في قرطاس<sup>(١)</sup>

وكذلك هجا جرير الأخطل ساخرا ، وأكثر ما استغله في سخريته  
 « نصرانيته » ذات السمات الغريبة عن الدين الإسلامي ، فزجها بعضها ببعض  
 بالناحية الأسائية التي يغيظ خصمه ذكرها ، والتي يبرع في تناولها البراعة كلها .  
 وأول عنصر نلاحظه في سخريته : « التصغير » ، فيخاطبه دائما بالأخيطل  
 ويحدث عن نسوته « نسية تغلب » والعنصر الثانی هو سمات الدين النصراني  
 التي منها إباحة الخنزير لهم فيقول مثلا :  
 الصاحكين إلى الخنزير شهوته يا قبحت تلك أفواها إذا اكتشروا  
 ويقول :

أتزعم ذا المناخر كان سبطا يهوديا ، ونزعه أباكا ؟  
 ويقرن « الصليب » بأعضاء نسايم في سخرية أليمة مجسمة ، فيقول :  
 قالتغلية - والصليب على استها - رجس موقعة العجان ذلول  
 ويربط بين نسايم وبين « القس » ، والخنزير والصاب في عبث مضحك  
 فيقول :

إذا ما القس نادمن يوما على الخنزير، وانكشف القدم (١)  
 بدأ شواءهن بخصيته وهن إلى جمحافله قرام ا  
 ويقابل - كعادته - بين شيء داخلي يقبح ذكره ، وبين شيء خارجي ،  
 فيقول :

والتغلية في ثني عبايتها بظر طويل ، وفي باع ابنها قهر  
 كما قال للفززدق من قبل :  
 وجد الفززدق في مساعي دارم قهرا إذا افتخروا ، وطول أيور  
 وللأعور النبهاني :

أست لنبهانية ظال بظرها وباع ابنها عند الفخار قصير  
 وأعور من نهبان أما نهاره فأعمى ، وأما يله فبصير ا

---

(١) القدم : شيء - تشده المعجم والمجوس على أفوامها عند السقي ، والمصفاة  
 فوق الإبريق .

وبجمع جرير بين القس ، والدير ، والخنزير ، والصليب ، والعباءة ، في  
سخرية وعبت لاذعين :

قل للأخيطل لم تبلغ موازتي      فاجعل لأمك أير القس ميزانا  
يا خزر تغلب ما بال نسوتكم      لا يستفغن إلى الدينين تحنانا  
ويصفهن ضاحكا وقد سكرن :  
لما روين على الخنزير من سكر      نادين : يا أعظم القسين جردانا  
هل تتركن إلى القسين حجتكم      ومسحكم صلبهم رحمان قربانا ؟  
ويستخدم التشبيه أيضا في سخرية صارخة فجأة :  
تلقى بنى تغلب زبا مناخرهم      كأن آنا فهم بالموصل الكمر  
وقال :

هم جردوا للتغليين نسوة      كأن معراهن أفواه أكلاب  
ويصور الفم :  
تفت عن قرد المناابت اطلط<sup>(١)</sup>      مثل العجان ، وضرسها كالحافر  
ويقول :

شبهت أرآد لحبيها إذا سكرت      خصي حمار مذك عند بيطار  
وأخيرا نذكر له قوله :  
تسوف التغلية وهى سكرى      قفا الخنزير نحسبه غزالا  
وقوله :

إذا شربت بالليل قسطين أصبحت      شبيها بجردان الحمار وريدها  
وهكذا نرى جريرا قد شق لنفسه طريقا معلمي في عالم الهجاء الساخر ، ذلك  
الأسلوب الرفيع الذى يشفى المتنفس أو الفنان مما به من غيظ مكبوت بلذع  
أشبه بالسم القاتل الذى يسرى فى جسم الفريسة من غير ماضجة ولا ضوضاء  
وقد ساعده على التفوق فى السخرية خيال خصب ، استطاع أن يكونه من  
(١) القرد : السكشير القردان ، جمع قرد : وهى دويبة . والطلط : الغليظ  
الإنسان .

أربعة عيوب - تلك التي فطن إليها ابن الأثير في المثل السائر - استطاع بعد مزجها بعضها ببعض أن يكون منها الصور العديدة المضحكة ، وهذا فطن إلى إحدى صور السخرية ذات الأثر الرائع وهي التي أسماها برجسون «تداخل السلاسل» ، وما زالت أقف أمام خيال جرير متعجبا من اقتناص شوارده ، ذلك الخيال الذي يملى عليه مثل هذا البيت :

ودت سكينه أن مسجد قومها      كانت سواريه أيور بغال ١

أو تشبيهه «الحقطان» ، هذا التشبيه المضحك :

كانه لما بدا للناس  
أبر حمار لف في قرطاس

ولقد فطن جرير إلى مقدرته على السخرية ، فيروى أنه كان يقول :  
إذا هجوت فاضحك<sup>(١)</sup> . ولقد طارت شهرته حتى قال أبو الشبل في قبضة هددته  
بالهجاء تسمى خنساء :

خنساء ، قد أفرطت علينا      وليس منها لنا مجير  
تأمت بأشعارها علينا      كأنما ... جرير<sup>(٢)</sup>

وأخيرا فإن سخرية جرير قد شابها أحيانا العنف الصارخ والانتجام إلى الصور الجنسية مما يقف حائلا أمام أدبه إذا أردنا عرضه وتحليله لاستمتاع الناس به ، وما زالت أقول صادقا إن جريرا من أكبر الساخرين في الأدب العربي بل في الآداب العالمية ، ولولا ما شابهه سخريته من صور وألفاظ جنسية لترجمت إلى كثير من لغات العالم .

---

(١) العقد للفريد ( طبعة ١٩١٣ م ) ٣ / ٣٩٨ .

(٢) نهاية الأرب ٤ / ٨١ .



### السخرية في العصر العباسي:

كان للحمادة الأجنبية من فارسية وهندية وسريانية وغيرها تأثير كبير في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية في هذا العصر ، وكان للأدب - مرآة الحياة في شتى وجوها - نصيب كبير من التطور : فسرى فيه تيار جديد شمل الأسلوب والموضوعات ، وكان لرقى العقلية العربية وازدياد نموها الثقافي واحتكاكها الاجتماعي أثر أى أثر في تطور السخرية وشيوعها ، وبخاصة في ذلك المجتمع الذي انتشر فيه الترف ورغد العيش وشاعت فيه الفكاهة والظرف ، فلا غرابة أن يظهر العديد من الشعراء والكتاب الذين ينتم أدهم بالسخرية : كبشار بن برد ، وأبي نواس ، وحماد عجرد ، وعبد الحميد بن العذل ، ومنصور الأصفهاني ، والعقبى ، والحدوني وابن الرومي وابن سكرة وغيرهم كثيرون .

أما الكتاب فكان منهم الجاحظ وأبو العيناء وبديع الزمان الهمداني وأبو العلاء المعري وغيرهم . وكان هناك أيضا الشعراء المجان الذين خاطوا سخريتهم بالمجون إذ كان غالبا عليهم ومنهم أبو العبر ، وأبو غللة الخزومي الذي اشتهر برثاء حمارة طياب ، وأبو حكيمة الذي اشتهر برثاء متاعه ، وهب الذي شهر بضرطته .

وقد مالت السخرية في هذا العصر إلى الأسلوب البعيد عن الجزالة والرصانة ، أسلوب قريب مما يلجج به الناس في أحاديثهم ، ولذلك يمكن أن نطلق عليه « الأسلوب الشعبي البسيط » سواء في المعاني أو الالفاظ أو الصياغة ، كقول دعبل يسخر من إبراهيم بن المهدي حينما يبيع بالخلافة أيام الفتنة بين الأمين والمأمون :

يامعشر الأعراب لا تقنظوا خذوا عصاياكم ولا تسنظوا  
فسوف يعطيكم حنينية يلتذها الأمرد والاشمط

والمجدييات اقوادكم لا تدخل الكيس ولا تربط  
وهكذا يرزق أصحابه خائفة مصحفه البربط ا

وشملت سخرية الشعراء التنديد والهزم بمن تدور حوله الشكوك في  
أصله العربي كقول بشار في أبي عمرو بن العلاء :

ارفق بعمرو إذا حركت نسبته فإنه عربي من قواير ا  
وقول أبي نواس في الهيثم بن عدي :

الحمد لله هذا أعجب العجب الهيثم بن عدي صار في العرب  
كأنني بك فوق الجسر منتصبا على جواد قريب منك في الحسب

وتشمل السخرية أيضا ملامح الوجه وغيرها من أعضاء الجسم ، كقول  
منصور الأصمفاني :

وجه المغيرة كاه أنف موف عليه كأنه سقف (١)  
رجل كوجه البغل تبصره من أجل ذاك أمامه خلف ا  
حصن له من كل ناحية وهلى بنيه بعده وقف ا

وقال بشار في ثعلب :

ربما يشغل الجليس وإن كان خفيفا في كفة الميزان  
كيف لا تحمل الأمانة أرض حملت فوقها أبا سفيان

ويتهكم حماد عجرد بعمى بشار ، فيقول في أسلوب تصحى ساخر (٢) :

إن ابن برد رأى رؤيا فأولها بلا مشورة إنسان ولا أثر  
رأى العمى نعمة لله سابغة عليه إذ كان مكفوفاً عن النظر

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٤٩ .

(٢) الحيران للجاحظ ٢٤١/١

وقال: لو لم أكن أعمى لكنت كما  
أكد نفسى بالتطمين مجتهدا  
أو كنت إن أنا لم أقنع بفعل أبى  
كإخوتى دائبا أشقى شقاءهم  
فقد كفانى العمى عن كل مكسبة  
والرزق يأتى بأسباب من القدر

وشملت السخرية الظواهر الاجتماعية ومنها التطفيل، فن أصداء ذلك  
قصيدة عبد الصمد بن المعذل فى رثاء طفيلي مات وقد غص بلقمة ساخنة  
من فالزوج<sup>(١)</sup>:

أحزان نفسى عليه غير منصرمه وأدمعى من جفرتى الدهر منسجمه  
على صديق ومولى لى فجعت به ما إن له فى جميع الصالحين له  
كم جفنة مثل جوف الحوض مترعة كوما جاد بها طباخها رذمه  
قد كالتها<sup>٢</sup> شحوم من قليتها ومن سنام جزور عبطة سغمه  
غيبت عنها فلم تعرف لها خبرا ابنى عليك ووبلى يا أباسله  
ولو تكون لها حيا، لما بعدت يوما عليك ولو فى جاحم طعمه  
قد كنت أعلم أن الأكل يقتله لىكنى كنت أخشى ذاك من تخمه

وسوف أتناول بالدراسة بعض الساخرين الذين اكتملت شخصيتهم  
الساخرة، ووصلنا من أدبهم ما نستطيع أن نلقى به ضوءا على تراثهم الساخر،  
وقد وددت أن أضيف إلى عقد دراستى ساخرا من أكبر الساخرين، ألا وهو  
ابن الرومى، واسكن ديوانه لما يكتمل تحقيقه بعد، ولذلك أرجأت الانتهاء  
من دراسته إلى طبعة أخرى إن شاء الله.

### ٣ - ابن المقفع :

وهي شخصية من الشخصيات المتارة الساخرة . تظالعا في أوائل العصر العباسي ، وكان للبيئة من جهة ، ولما امتازت به من خصال شخصية مميزة فذة من جهة أخرى ، أكبر الأثر في طبعها بطابع فريد نستطيع أن ندلحه بوضوح في قلماتها .

إنها شخصية ابن المقفع الذي كان يسمى - كما يقول ابن النديم <sup>(١)</sup> - روزبه ومعناه المبارك ولم تعرف السنة التي ولد فيها ، ولم يتفق المؤرخون على السنة التي قتل فيها ، إذ يحصرونها بين سنتي ١٤٣ ، ١٤٥ هـ ، ويحدد الدكتور عبد اللطيف حمزة مولده بين سنتي ١٠٦ ، ١٠٧ هـ وقد عاش بفارس ، حيث لاهمته يثنتها التي كان يميل إليها بطبعه وجوهره كل الميل ، وتشبع بالروح الفارسي والثقافة الفارسية . لذلك فن الطبعي أن ينتحل نخلة الجوس .

ولم يعرف المؤرخون الكثير عن حياته الأولى ، بل معظمها غامض ، غير أنهم يقولون إنه انتقل إلى البصرة التي كانت في ذلك الوقت إحدى العواصم الكبرى التي كان يهفو إليها من تسمى أنفسهم إلى العالي ، وهناك عاش مولى لآل الأهم ، فأخذ عنهم الفصاحة ، واستطاع عن طريقهم أن يتصل بأمراء العرب والأعراب ، وكان كثيرا ما يستمع إليهم ، يأخذ عنهم العربية الصحيحة .

ولم يلبث قليلا حتى عرف ذكاؤه وقوة قلبه ، وحسن كتابته ، فاتجه إليه الولاة والأمراء يطلبون إليه أن يكتب لهم في دواوينهم ، ويتقلد عندهم بعض الوظائف التي كان يشغلها أمثاله من الموالي في ذلك الوقت ، وقد ذكر د . حمزة أن يزيد بن عمر بن هبيرة ( ١٢٧ - ١٢٢ هـ ) ربما كان من الأمراء الذين كتب لهم ابن المقفع ، وبذلك يمكن أن يكون هذا الوالي وصلة لابن المقفع لأن يطلع على كثير من أمرار الدولة الأموية الزائلة التي كان نجمها إذ ذاك أخذا في الأفول .

وبعد موت يزيد ، قيل : إن ابن المقفع كان يكتب لأخيه داود بن عمر ابن هبيرة . وقال الجهشباري إنه كتب أيضاً للمسيح الخويزدي وإلى سابور قبل سفيان بن معاوية ، وقد يكون المسيح الخويزدي هو الذي سلب ابن المقفع على سفيان بن معاوية ، حتى استطاع المسيح في نهاية الأمر أن يهزم سفيان بعد أن أوغر صدره من ابن المقفع<sup>(١)</sup>.

انضمامه إلى العباسيين وإسلامه :

ولما انقضت الدولة الأموية ، وجاءت على أثرها الدولة العباسية ، أخذ يبتغى الوسيلة للاتصال برؤوسها ، حتى تمكن أخيراً من الكتابة لأعمام المنصور : فكتب إبيسى بن علي وإلى الأمواز ، ولزم بعض بني أخيه إسماعيل ، يؤدبهم ويشغلي بتعليمهم وتهذيبهم ، ثم اشتغل كاتباً لأخيهما سليمان . ولما سمع صبيّاً يقرأ القرآن ، أخذته روحه ، فذهب إلى هبسى بن علي ليسلم فأسلم .

موقفه السياسي :

كان الموالي من الفرس يقصدون بدعوتهم العلويين ، فلما لم ينجحوا في إيصال الخلافة إليهم ، وكانت من نصيب العباسيين ، أحبوا أن يصلحوا خطابهم ، ويظهروا الميل إلى العباسيين ، ولكن هؤلاء لم يخف عليهم أمر الموالي ولا أمر زعيمهم أبي سلة الخلال بنوع خاص ، وفكروا لذلك في القضاء عليه وعلى الرجل الآخر وهو أبو مسلم الخراساني ، فأغروا كلا من الرجلين بالآخر حتى قضا . ولذلك لم يكن الموالي من الفرس يميلون إلى العباسيين ، ولم يكن ابن المقفع عباسي الهوى أو كان هربى الميل ، ولكنه كان علوي السياسة فارسى النزعة ، فهو على الأقل كان لا يحب العباسيين ، ولا يشعر قلبه مودة خالصة لهم ولا لخلقائهم .

إذن كان ابن المقفع من أعداء الدولة العباسية ، ومن المتظاهرين في

(١) الجهشباري : الوزراء والكتّاب ص ٥٥ .

الوقت نفسه بصدقاتها ، وربما أنه اكتسب الخلق السياسي الأخير من دراسته لتاريخ الفرس<sup>(١)</sup> . ويظهر أن الخليفة المنصور كان يفهم ذلك عنه ، فلم يستخدمه للكتابة له ، بل كان له يد طويل في قتله كما كانت له في قتل غيره من عملاء الفرس كآبي سلة الحلال وآبي مسلم الخراساني أو الزعماء المناوئين له .

مصرعه : من العلويين .

يذكر المؤرخون في مصرعه عدة أسباب ، بعضهم مباشر ، فما يذكرون في ذلك : حقد المنصور عليه ، لأنه هو الذي كتب « الأمان » الذي كلفه بكتابته أعمام الخليفة المنصور لأخيهما الشائر عليه عبد الله بن علي ، ويقال إن ابن المقفع كتب الأمان وبالغ في احتراسه من كل تأويل يقع عليه فيه ، بل أمرف في تركيد الأمان ، فلم يتهأ لآبي جعفر إيقاع حيلة فيه ففرط احتياط ابن المقفع ، فامتلا قلب الخليفة غيظاً وخفيظة على كاتب الأمان فقال : « فما أحد يكفيني ؟ »

أما السبب الآخر المباشر في قتل ابن المقفع فهو شدة نفقة سيفيان المهلب عليه لأشياء كثيرة : منها قصة المسيح الخويدي الذي قيل إن ابن المقفع كان يكتب له قبل مجيئ سيفيان بن معاوية ، وهو الذي أوغر صدره على ابن المقفع حين أخذ هذا جانب المسيح ضده ، ومن أسباب غضب هذا الوالي أيضاً : احتقار ابن المقفع له ، ذلك الاحتقار الذي يظهر في سخريته به بسخرية قاتلة ، أرثت العداوة في قلبه حتى جعلته يودى به . وقد قتل ابن المقفع غيلة وغدراً ، وتذكر في ذلك روايات أشبه بالأساطير ، والغلبة عظيم في رواية مقتل عبد الله بن علي حين أقدمه أخواه - بعد أن أمته الخليفة - وبين الرواية التي تروى في مصرع ابن المقفع ، ومن الأسباب التي تعزى في مقتل ابن المقفع

(١) ابن المقفع لعبد العزيز حمزة ص ٦٤ .

رميه بالزندقة، وشهرته بهذه الصفة، ويمكن أن تكون السبب الأقوى الذي تذرعه به الخليفة في قتله كما قتل غيره بها في عهد العباسيين وبخاصة المهدي . ولعل من أسباب قتله أيضا : أنه رجل فارسى ، يعمد - لحنقه وغيظه - إلى السخرية من العرب ، وهو في الوقت نفسه لا يفتنى أن يذيع فى الناس شيئا من أخبار أجداده الفرس وديانتهم ، وهو لهذه الأسباب كان رجلا من كثير الأعداء ، ولا بد لهؤلاء جميعا أن يكون السبب الذى قتل الرجل : ~~الذى يلقى نهايه~~ التى يلحق بها . وفيها تشريع جديد من عمل الكتاب يقترحه على الخليفة ليعمل به فى أمور شتى ، كان أهمها أمر القضاء الذى كثرت فيه الأقوال ، وأصبحت بسببه الدماء مباحة مرة وكان من حقها أن تمحق . ومحرمة أخرى وقد كان من حقها أن تهدر ... إلى غير ذلك من المقترحات المطيرة التى تتصل بحاشية المنصور وعماله المقربين إليه الذين طعن فيهم من طريق غير مباشر ، فكانت تلك المقترحات بمثابة ثورة عظيمة قام بها الكتاب ضد النظم القائمة ، ووجه فيها الكلام إلى هذا الخليفة الطاغية .

وأخيراً ، يضيف الدكتور حمزة - إلى كل ماسبق من أسباب في قتله -  
، ترجمته كإيالة ودمية ، وما أخفى في ثناياه من تعريض بالمنصور ، وبما اشتهر  
عنه من جور ووحشية سفك الدماء .

ابن المقفع المفكر :

كان ابن المقفع صاحب عقاية كبيرة ، أبت إلا التفكير المستمر ، وتسلط  
أضواء الفكر على كل ما حوله من نظم سياسية واجتماعية وغيرها ، فوجدها  
أمام منظاره المكبر مليئة بالأخطاء ، فحاول نقدها ، ورسم الطريق الصحيح  
الذي يجب أن يسير فيه المصلحون أو من يدعون أنهم يحبون الإصلاح

كالخليفة والولاة، ولم يفتأ يذيع آراءه مجاهرة مرة، وبينه وبين من يظن فيهم الولاء له مرة أخرى، وتليها مرة ثالثة، وتعريضا مرة أخرى وهكذا...، وليس من السهل أن تقبل للطبيعة البشرية النقد بسهولة أو بصدور ربح، فها بالك بالخليفة، ذلك العربي القح الذي تعود السيطرة وعدم الإذعان لمن هو أقل منه، وبخاصة إذا كان هذا الناقد يشتر بقله الدين أو الزندقة، وأنه فارسي ينتمى إلى الغنصر الذي ناوأ العرب منذ القدم، والذي يحاول أن يحول دفة الحكم من العباسيين إلى العلويين، أو بالأحرى من العرب إلى الفرس... كل هذا وذاك كان السبب في عظمة الكاتب من جهة، وكان السبب في مصرعه من جهة أخرى.

### أخلاقه :

إذا كانت الشخصية الإنسانية تتأثر كل التأثر بعامل البيت والوراثة فقد تأثر ابن المقفع بتلك الصفات الخاصة المميزة للشعب الفارسي من ناحية الجنس، أما من ناحية الآباء والاجداد، فلم يذكر المؤرخون عنهم شيئا حتى نستطيع أن نقرن بين أخلاقه وما أثر عنهم. ونمزج بين هذه وتلك، فستمكن من امتقناب شيء من صفاته يميزه بعض التميز أو كل التميز في ناحية أو أكثر من نواحي حياته أو شخصيته.

أما من ناحية عصره، فقد كان عصر انتقال من الدولة الأموية العربية إلى الدولة العباسية الفارسية، وتمتاز عصور الانتقال عادة بأنها عصور التمرد والمجانة والشك، وبأنها عصور النشاط والحركة وحرية الفكر وتناول كل شيء بالنقد<sup>(١)</sup> ولذلك طبع ابن المقفع بطابع عصره، من ميل إلى الإنقاذ فكره في كل ما حوله، وحرية تجعله يبدي رأيه في كل ما تقع عليه عيناه،

(١) ابن المقفع للدكتور حمزة ١١٣.



إلى عين ناقدة لا تكاد ترى عيباً إلا تنبهت له ، ومن ثم أرادت أن تجهز به وتقتلعه . ومعاً ساعد ابن المقفع على ذلك طبيعة عقله التي تنزع أبداً إلى المثل الأعلى وأصدق مثال على ذلك كتابه « الأدب الكبير » ، وطبعة عصره بطابع الحذر والأخذ بالثبوت ، الكثرة ما سفك في أيامه من دماء على يد ابن مسلم من جهة ، والخليفة العاني من جهة أخرى .

وأدى به عقله الشاك وعصره المضطرب إلى الحيرة التي كانت تقهر عليه في كثير من الأحيان ، حتى اضطرب بين عدة ديانات هي المزدكية والإسلام والمنازية . وقد انتشرت في الأقاليم التي تسفل بينها وذاعت في العصر الذي عاش فيه ، وكان كثير الشكوك الدينية ، وقد ظهر أثر ذلك فيما كان يفلسف من حديث كان يدور بينه وبين أصدقائه ونظرائه عن كان يختلف إليهم بالبصرة ويختلفون إليه بها : كطبيع بن إباض ، ووالبة بن الحباب ، وجماد عجرد ، وبشار بن برد ، وأبان اللاحقي وغيرهم ، وما يدل على شكه ما ختم به باب « بمئة برزويه » الذي كتبه في أول كاية ودمنة ، إذ قال : « فصار أمرى إلى الرضا بحالى وإصلاح ما استطعت من عملى لمعادى ، لعلى أصادف فيما أمامى زماناً فيه دليل على هداى ، وسلطان على نفسى ، وأعوان على أمرى » .

وقد ظهرت تلك الحيرة وذلك الشك في ذلك الباب الذى صدر به « كاية ودمنة » ، وحاول به إخفاء شكوكه الدينية بمبارات إسلامية يرضى بها الزاى العام ، إذ قال على لسان برزويه : « فلما ذهبت أفسس العذر لتفسى في لزوم دين الآباء والأجداد ، لم أجد لها على الثبوت على دين الآباء طاقة ، بل وجدتها تريد أن تتفرغ للبعث عن الأديان والمسألة عنها ، والنظر فيها » . ثم أخذ الكاتب بعد ذلك يسرق الأمثلة الكثيرة لكل حالة من حالات العقل عندما يكون واقفاً تحت تأثير هذه الشكوك الدينية المجردة ، وما يؤيد هذه الشكوك نفسها ذلك الكتاب الذى نسب إليه ، ورد عليه . فيما بعد -

القاسم بن إبراهيم بكتاب غنائه ، الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع عليه لعنة الله آمين ، وذكر في أوله : « حكم فيه لنفسه بكل زور وبهتان ، فقال من عيب المرسلين ، واقرى الكذب على رب العالمين » .

ويقول بعض الكتاب إنه كان إلى جاب ذلك يتسم بشيء من الظرف والمجانة فيجعله يجلس ويصادق بعضا من ظرفاء عصره ، في مجلس الشراب ، وكان مزييا سخيا يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج إليه ، وكان يميل بطبيعته الفارسية - إلى المجون واللغو إذ ذكره أبو الفرج الاصفهاني ضمن جماعة يجتمعون على الشراب وقول الشعر ، ولا يكادون يفترون ، ويهجو بعضهم بعضا هنلا وعمدا وكلهم متهم في دينه <sup>(١)</sup> .

(١) غ ١٣ / ١٣٢ : ولاني لأعجب من صاحب هذه الشخصية التي تبدو في ما أثر عنها من مؤلفات حكيمة نعمة في الحكمة ، متبذرة تسكاد تكون قاسية في انبعاثها ، ثم يروى عنه أنه كان يجلس في بعض الأحيان يجالس لا يجلسها إلا المجان الذين تختلف أحاديثهم ومجالسهم عن الحكماء الفلاسفة أمثال ابن المقفع : وقد يرد على ذلك بأنه لا غضاضة في أن يروح الفيلسوف عن نفسه بعض الترويح بالجلوس إلى أهل الظرف والمجانة ، فإن لم يطرُق معهم جميع الأبواب التي يطرُقونها ، فلا أقل من أن ينعم بالأنس إلى جانبهم وبخاصة أنهم كانوا يشتركون معه في ناحية عقلية واحدة هي الشك في الإسلام أو الأخذ بمذاهب الزنادقة وغيرهم ممن كانوا على أديان الفرس المتوارثة . ولكن من كان من أمره فإن شخصية ابن المقفع في مهزة خيالي لدرجة أنني لا أستطيع - بمواصلة وعافوات غيره - أن أحيط بصورته لحاطة تامة كما ينبغي ، أو أن أرسم له صورة أطمئن إليها كل الملاحظين ، ولعل مورد ذلك إلى عدم اجترأ أهل عصره - سياسيا أو دينيا - أو كلاما - على الكتاب عنه بنوع من الحرية اللازمة ، أو عدم وصول أخبار كاملة عنه نستطيع بها أن نذكر ما نريد من إطار قوى واضح .

ويصل سجل المؤرخين به وعدم اجترأهم على الكلام عنه إلى حد أن كتابا واحدا من كتب التاريخ التي اهتمت بتدوين الحوادث على حسب الشئخ لم تذكر حتى سنة وظاهره ، مع ماله من جليل القدر والمهولة في الكتابة وذلك بعزيمته عن هم أقل منه شأنًا والذين ذكرت سنة وفاتهم .

وكان يميزه شيء من خفة الروح . وائل إلى المرح والدعابة ، ولكن المؤرخين لم يرووا الكثير عن هذا الجانب من حياته : إما لأنه كان يترفع عن التبذل أمام الناس ، وإما لأنه لم يعيش طويلا ، ولم يجرؤ أحد من عصره على كتابة أخباره لما ذاع عنه من زندقته .

على أن أظهر خصلة بلورت أخلاقه كلها وطباعه هي روح السخرية التي سبها إحساسه وشعوره بالكرامية للعرب الذين أدالوا دولة الفرس وسيطروا على بلاده تمام السيطرة ، ومعاملتهم إياهم موالي فلا يفتأون يشعرون ، بالذلة والانهانة وبخاصة في الدولة الأموية . وقد روى ابن عبد ربه . وابن برد كثير من الأخبار التي تدل على عظيم احتقار العرب للفرس ، هذا إلى جانب شعوره بالميزات العقلية والفنية التي وهبه الله إياها ، وإلى أنه لم ينل ما كانت تصبو إليه نفسه ويطمح إليه من مناصب عالية في الدولة الجديدة التي انتزعت من كانوا أحق بها في نظره ألا وهم العلويون هؤلاء الذين كان من المحتمل أن يرفعوه إلى المقام الذي كان يأمل أن يصل إليه لو نجح الثائرون الذين كتب لهم من قبل - وهم أعمام المنصور - في إدالة دولة العباسيين والظفر بالحقم .

كل هذا - ولا شك - ولد السخرية في نفسه ، تلك السخرية التي كانت تختنق أحيانا في أعماقه ، وتطل برأسها في كتابته ، وكانت أحيانا أخرى تظهر على لسانه حينما كان يعبت ببعض الناس . ولعل أكبر هدف سدده إليه سهامه اثنتان : أحد الحكام في عصره وهو سفيان بن معاوية ، والهدف الثاني الذي استهدف لسخريته تلك الأمة التي كان يتعالى عليها ويحتقرها في قرارة نفسه ، وبخاصة كلما قارن بين ماضيها وماضي أمته .

أما سفيان بن معاوية بن يزيد المهلبى : فلم يورد المؤرخون عنه الكثير ، وكل ما نستطيع أن نورد هنا : هو أنه قد حقد على ابن المقفع ، لاتصاله بعده وسلفه المسيح الخويلدى الذي كتب له ابن المقفع قبل أن يخلقه معاوية على ولاية سابور ، فانضم ابن المقفع إلى المسيح . وكان هذا الذي أوجر

صدره على ابن المقفع ، وما أغضبه أيضا سخرية الكاتب به . فلهذا أجاب ، قال له :  
 ابن المقفع كان يسأل سفيان عن يومئذ أسفيان : ما تقول في شخص مات  
 أخطأت راجعاً وزوجة ؟ أراد بذلك أن يسخر منه على مسمع من الناس  
 ومراى . وقال سفيان يوما : ما ندمت على مكوت قط - وكان ابن المقفع  
 جالسا - فقال : الخرس زين لك ، فكيف تندم عليه ؟

وما أوجع سفيان سخرية ابن المقفع بأنفه - وكان كبيرا - فيروى أنه  
 كان إذا دخل عليه قال : السلام عليكما ! يعنى بذلك سفيان وأنفه . وإن هذه  
 السخرية من عضو مادي طبيعي باق بقاء صاحبه ، لمرجعة مؤلة ، لأن أثرها  
 لا يفتأ يعمل في النفس البشرية ما دامت على قيد الحياة ، إذ أنه ليس  
 عيباً يمكن استئصاله فيمنع بذلك الساخر من اتخاذ هدفه لسخريته ،

وقد سخر ابن المقفع أيضا من العرب ، كما سخر بهم الموالى جيماء شعراء  
 وكتابا كبشار وأبى نواس وغيرهما ، وكان ذلك رد فعل لمعاملتهم كموالى  
 وتخصوصا في العصر الأموى . ويذكرون في معرض التذليل على ذلك أنه  
 التقى ببعض أصحابه في المربد ، فسألهم : أى الأمم أعقل ؟ فأخذوا يسردون  
 عليه أسماء الأمم الواحدة تلو الأخرى ، فبدأوا بفارس ، فقال : لأنهم ملكوا  
 كثيرا من الأرض ووجدوا عظيما من الملك ... فما استنبطوا شيئا يعقوبهم ،  
 ولا ابتدعوا باقى حكم في نفوسهم !

قالوا : الروم قال : أصحاب صنعة !

وهكذا أخذوا يعددون أمامه الأمم كلها : الروم ، والصين ،  
 والهند ، والسودان ، والترك ، والخزر ... ثم قالوا له ، فقل . قال : العرب <sup>(١)</sup>

(١) وهو في ذلك يشبه سقراط في ادعائه الجهل وسؤاله الحاضرين وهو

عند سماعهم ، ثم تفوقهم أخيراً على سائر الأمم ، فأخذ يمدح العرب ، ويذكر أصلهم وجملهم ، وهو فيها يتخلق العرب من حيث يحقد عليهم ، ويحسد لهم حيث يسخر بهم ، جلساؤه أولاً حين قال : إن العرب أعقل الأمم ، ومن أجل ذلك ألح هو في مدحهم ؛ ليخفى ما يمتثل في نفسه ، ولا يكن لاشك أن جلساءه كانوا يفتنون إلى ما بآعماقه جيداً ، وكانوا يدركون أنه يريد أن يقول لهم : إن العرب قوم لاحظ لهم من الحضارة أو الرقي ، وهم جياح لا يجحدون ما بآ يكون ، ومع ذلك فقد فتحوا الفتوح ، وما كوا الأمصار وهم لا يستحقون من هذا كله شيئاً .

### مؤلفات ابن المقفع (١) :

يذكر لابن المقفع كثير من المؤلفات ، وصل إلينا بعضها ، وضاع بعضها الآخر ، وما وصل إلينا ينقسم قسمين :

أحدهما يبحث في الأخلاق والاجتماع : كالأدب الكبير والأدب الصغير ، ورسالة الصحابة : أما الأولان فكان فيهما نافلاً أكثر منه مبتكراً ، وكان حريصاً على أن يكثر فيهما من إيراد حكم الفرس وأمثالهم ، حتى يملأ أذهان الناس بهذه الحكم والأمثال . وأما رسالة الصحابة ، فكان فيها مؤلفاً نافلاً نعى فيها على الصحابة - وهم رجال البلاط أو بطانة الخليفة - فجورهم وظلمهم ، وعن ذكرهم ابن المقفع أيضاً : القضاة والجنود وأعمال الخراج . وأما ما لم يصل إلينا ، فيذكر منها : كتاب تفسر ، والخذائنه ، والأيين نانه ، وهي كتب تاريخية .

أما ما به من كتب جديده ، إذ هو الذي يختص به بحثنا ، فهو كتاب :  
« كليله ودمنة » .

## كائلة ودمنة :

والكلام كشر حول هذا الكتاب ، تكلم عنه الأقدمون ، وأفاض في الكلام عنه المحدثون ، شكوا في هذا الكتاب : أترجمه ابن المقفع كما زعم في مقدمته ، أم ألفه ؟ قال ابن خلدون : « ويقال إن ابن المقفع هو الذي وضع كتاب كائلة ودمنة ، وقيل : إنه لم يضعه وإنما كان بالفارسية فنقله إلى العربية ، وإن الكلام الذي في أول هذا الكتاب من كلامه . » وذكر الدينوري في الأخبار الطوال نصا يدل على أن الكتاب قديم قبل ابن المقفع ... أن كسرى بن هرمز سار إلى بهرام ... وانصرف إلى كسرى ، فكان مما أنجز به : أن بهرام إذا نزل المنزل دعا بكتاب كائلة ودمنة ، فلا يزال منكبا عليه طول نهاره ، (١) .

وعما يؤيد الرأي الأخير أن هرقل Hertel عثر على بعض الأصول الهندية المسماة « الباشتاترا » (٢) ، ومعناها « المقالات الخمس » ، ومن ثم لم يعد أحد يشك في أن بعض هذه القصص هندی الأصل ، ولو أن ذلك لا يمنع من أن تكون هذه القصص نفسها تطورت بعد .

وهذا يدور بأذهان الباحثين سؤال آخر ، وهو : إذا كان الكتاب قديما ، فهل هو هندي حقا أم فارسي لم ينسب إلى الهند إلا لزيادة قيمته أم هو هندي أصناف إليه الفرس أبرابا ، ثم نسبوه كله إلى الهند ؟ وأخذ الباحثون يبحثون في الكتاب وقصصه من الناحية الموضوعية . فوجدوا أن هذا الكتاب يخلو من أثر للجوسية وبه بعض الآثار الهندية ، كالكلام عن الدراويش

(١) الأخبار الطوال ص ٨٩ .

(٢) ترجمه الأستاذ الدكتور عبد الحميد بونس عن الإلهامية وطبع في الكويت

والرهبان والنار المطهرة والحيوان المقدس في قصة « الناسك » وابن عرس ،  
وفكرة تحريم البوذية أكل اللحم في قصة « اللبوة الممتنعة عن أكل اللحم » ،  
وكذلك اشتقاق الكلمات : « كايلا » ، ودمنة ، وشتربة ، من أصل هندي حرفت  
عن « دمنكا ، كاراناكا ، شرباكا » .

وانتهى "باحثون من بحثم إلى : إثبات بعض أبواب جزموا بأنها  
فارسية : كباب « بعثة برزويه إلى بلاد الهند ، رباب « ملك الجرذان ، الذي  
يرى نوله أنه لا بد أن يكون من إضافة الفرس .

وعلى كل ، فلا شك أن الكتاب مر بأدوار كثيرة وبطبقات وأجناس  
مختلفة من الناس ، وتداولته الأيدي والعقول جهلاً بعد جيل منذ أن بدأ  
المؤلف الهندي - كائنا ما كان عقله - يجمع قصصه ثم يتلفه المؤلف  
الفارسي - كائنا ما كان شعوره وعقله وتفكيره - يترجمه إلى لغته من جهة ،  
ويضيف إليه من عبارات وقصص ، ويصغره بالصيغة الفارسية والروح  
الفارسي من جهة أخرى ، ويستقل من مترجم فارسي له أهواؤه ونزعاته إلى  
فارسي آخر يختلف عن صفوه نزعات وأهواء ، حتى يصل بعد عدة قرون  
من تأليفه ، أو إن شئت الضدق في التعبير ، بعد عدة قرون من تحريفه أو  
جمعه جمعاً ما ، حتى يصل إلى ابن المقفع ، الذي لا شك قد قرأه مرة ومرتين  
وأكثر ، ثم أمعن فيه فكره المرة بعد المرة حتى تمثله في أعماقه ، فصادف  
منه هوى لأن يترجمه ، إعجاباً به من جهة ، ولا تخاذة وسيلة من وسائل التعبير  
عما في نفسه من جهة أخرى . وربما كان الغرض الأخير هو الغرض الأهم  
الذي دفع الفيلسوف الفارسي إلى ترجمة هذا الكتاب ، إذ أن كل كائن حي  
لا يستطيع إلا أن يعبر عما يشعر به من فرح أو ترح ، وأن يخرج شعوره  
إلى خارج نفسه أو بعبارة أرسطو - « أن يطهر عواطفه » - كما قال في كتابه  
الشعر Poetica ولا بد أن يسلك ابن المقفع مسلك الإنسان المثقف المتحضر ،  
الذي يتقادم هذا الجبروت الذي سله المنصور على أبناء عصره . لذلك كله اتخذ من

الحيوان الأعجم في دكيلة ودمنة ، لسانا ناطقا لأن يعبر عن حقه وكرهه  
آما ، واستخفافه واحتقاره أنا آخر لهذا الجبار الذي خشي الناس في عهده  
التعبير عما يحسونه من ظلم ، لدرجة أنهم يقصرون قصصا أشبه بالأساطير  
في ذلك ، منها أن سهما عثرا سقط بين يدي المنصور وفيه :

أحسنت ظنك بالأيام إذ حسنت  
ولم تخف سوء ما يأتي به القدر  
وسالمتك الليالي ، فاغتررت بها  
وعند صفو الليالي يحدث الكدر

واتضح أن رجلا من همدان سجنه الوالي ليسلب ضيعته هو الذي فعل  
هذا ، وقد ذكر المسعودي قصصا كثيرة في تعذيب العلويين حتى بلغت القسوة  
بالمنصور أن قتل أحدهم ، ثم أرسل برأسه إلى أخيه في السجن المظلم ،  
ووضعت في حجره ..... وإذا به يلتفت إلى الربيع ويقول - وفي قلبه  
مرارة الأسى وفي عينيه ظلمة السجن وعلى لسانه هزه الفاني : د قل لصاحبك  
قد مضى من يومنا أيام ، والملتقى القيامة ا ، ويقال إن المنصور قبل أن يموت  
بأيام ، قرأ بيتين على جدار :

أبا جعفر ، حانت وفاتك وانقضت  
سنوك ، وأمر الله لأبد نازل  
أبا جعفر ، هل كاهن أو منجم  
يرد قضاء الله ، أم أنت جاهل

ويقال إنه لم يكن أحد يجرؤ على مجاهرة المنصور بأفعاله ورفض عطاياه

---

(١) المسعودي : مروج الذهب ٢ / ٢٢٢ وقد اعترف المنصور بأنه جبار  
في قصة أ. ردما المسعودي في المرجع السابق ٢ / ٢٢٢



بشعم وإباء وتمنع غير عمرو بن عبيد الذى كان يعظ المنصور حينما يطلبه.  
وهكذا نرى إلى أى حد ساد الناس الظلم والعسف والتعذيب أيام المنصور  
وقتل من يتصدى للمعارضة ، ولذلك كان على ابن المقفع أن ينقد هذا  
الأسلوب الوحشى الدامى فى الحكم ، فاستطاع - ولا شك - أن يصل إلى  
مأربه من خلال قصص كليلة ودمنة وعباراتهما بالتزويد فى هذه العبارات ،  
بل وصيغ أسلوبها بأسلوبه ، حتى يمكن أن نقول : إنها هيكل عظمى  
اكتسب بأسلوب ابن المقفع ، وغذاها بأرائه وأفكاره التى أوجلتها فى عبارات  
كليلة ودمنة : قال البارون دوساسى وربما كان من العسير علينا أن  
نقول : إلى أى حد استطاع ابن المقفع أن يتحلى من النسخة  
الجهلوية أو يبعد عنها ؟ ، وقال د. عبد اللطيف حمزة رحمه الله : أثبت  
ابن المقفع فى ترجمته العربية أنه كان لا يتقيد كثيرا بالنسخة الجهلوية  
التي اتصل بها ، كما أثبت أيضا أنه كان يرى من وراء كتابه إلى  
أغراض كثيرة رمز إلى بعضها : منها أنه أراد أن يخاطب فيه غربا سذجا  
يظهرهم على آثار أسلافه من الفرس ، ومنها أنه أراد أن يوجه الكلام فيه  
إلى خليفة داهية كان - لبطشه وطغيانه - لا يستطيع أحد أن يلفته إلى  
أخطائه ومعايبه ، ومنها أنه أراد أن يشكك المسلمين فى دينهم الذى كان  
وحده مدعاة إلى فخرهم على غيرهم من الأمم : فكيف كان يتبنى لابن  
المقفع إذن إدراك هذه الأغراض جميعها ، إن هو قيد نفسه بالنسخة الجهلوية  
التي اتصل بها ؟

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أنه كان يبلغ به التصرف إلى أنه يحذف  
الجملة أو الفقرة بتمامها من النص الجهلوى ، وذهبوا إلى أنه كان

يضيف الفصل الكامل إذا احتاج الأمر ، والأمر قد احتاج فعلا إلى أن يضيف الباب الأول وهو مقدمة الكتاب لعلي بن الشاه الفارسي ، والباب الثالث في عرض الكتاب ترجمة عبد الله بن المقفع والباب السادس وهو باب الفحص عن أمر دمنه ، والباب السادس عشر وهو باب الناسك والضيف ، والباب العشرون وهو باب البطة ومالك الحزين ، والحادي والعشرون وهو باب الحمامة والثعلب ومالك الحزين ، ويميل الدكتور حمزة إلى إضافة باب « برزويه المتطرب » إلى ما وضعه ابن المقفع .

ومما يدل على أن ابن المقفع قد أخضع الكتاب كله إلى أسلوبه ، وتصرف فيه بما يمايه عليه مزاجه وشعوره ، أننا لانجد اختلافا بين الأبواب التي ثبتت بدليل قاطع أنها هندية ، والأبواب التي ثبتت بدليل قاطع أنها كتبها بأسلوبه ولم يترجمها عن غيره .

ويدل على تصرف ابن المقفع بما يمايه عليه هو أن تلك الإضافات التي نجدها في نسخته ما ، ولا نجدها في نسخة أخرى من النسخ القديمة التي وجد أصلها ، وأعني بها النسخة القديمة التي نشرها الأب لوبس اليسوعي سنة ١٩٢٢ ونسخة الأخرى التي نشرها عزام ، وقد قرأتها قراءة فاحصة ثم قارنت بينهما في عدة مواضع أهمها قصة « إبلاد وإبلاد وإيراخت » فوجدت القصة مختلفة في نسخة منها عن الأخرى .

وأخيرا يقول فولدكه : « يجب أن نلاحظ أن ابن المقفع لم يكن مترجما دقيقا في جميع الأحوال ، وإنما كان محررا خصب . . . » وقد اعترف البيروني أن « كيلة ودمنه » تردد بين الفارسية والهندية ، ثم العربية والفارسية وعلى السنة قوم لا يؤمن بتغييرهم إياه كعبد الله بن المقفع في زيادته باب « برزويه » فيه ، فاعسدا تشكيك ضعيف العقائد في الدين ، وكسرهم ( م ٩ - السخرية )

للدعوة إلى مذهب المانوية ، وإذا كان متهما فيما زاد ، لم يخل من مثله فيما نقل<sup>(١)</sup> .

من هذا كله نعرف إلى أى حد كان ابن المقفع واسع التصرف في النسخة البهلوية لكتاب كليله ودمنة . وأستطيع أن أقارن هنا بين ابن المقفع الفارسي ، وبين رابليه الكاتب الفرنسي Rebelaيس مؤلف Pantagruel ذلك الكتاب المليء بالسخرية من طبقات كثيرة ، والذي أثار نقاشا حادا وبجسا مستفيضاً حول ما يقصده المؤلف من هذا الكتاب: وهو يخلط في شخصياته خلطاً عجيباً متعمداً أن يربك من بعده من الناقدين ، فتارة يذكر أشخاصاً حقيقة يمين بأسمائهم الصحيحة ، وتارة يستر أشخاص كتابه بقناع خفيف ، يشف عما تحته من أشخاص حقيقة يمين ، وطوراً ثالثاً يستخدم شخصيات خلقها بخياله ، فاختلف النقد لذلك في تفسير الغرض من هذا الكتاب : فقيل إنه هجاء سياسي شخصي ، وقيل بل هو نقد للكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وقيل إنه دفاع عن الفلسفة المادية الأبيقورية التي تنادي بالبحث عن حياة لذية ممتعة ، وأخيراً ذهب بعض النقاد إلى أنه مخادعة ماكرة من مؤلف ماهر أراد بها أن يضال قراءه ، فيوهمهم أن شيئاً مقصوداً يكمن وراء هذه الألفاظ ، وعليهم أن يتعقبوه ليكشفوا عنه ، وكل ما قاله النقاد عن رابليه ، بل كل ما قصده رابليه ، ترجع أنه الذي قصده ابن المقفع من غير أن يفصح به في كتابه أو حديثه مع أهل عصره ، ولكن - كسكل ساخر متحفظ محتاط - أحاط كتابه بمسحة أجنبية : فارسية هندية من حيث موضوع المقدمة ، وأسماء الأشخاص ، ونسبه المقدمة إلى بهنود بن سحوان الذي يشك بعض الباحثين في نسبتها إلى هذا الشخص الخيالي الذي لم يسمع به في التاريخ . كل ذلك ليبعد القراء عن الغرض الحقيقي من ترجمه أو تأليف

(١) تحقيق ما للهند من مقولة للبيروني ص ٧٦ .

هذا الكتاب ، وليتخذ من تساؤل القراء عن الغرض من تأليف هذا الكتاب ستاراً مخفياً - على الأقل - شخصية المؤلف الحقيقية أو الباعث الحقيقي لتأليف هذا الكتاب إخفاء أدياً أو على الأقل مدة حياة ابن المقفع الذي كان يخشى كل الخشية أن يصاب بأذى إن هو كشف أمره ، وليست صورة مصرع صديقه عبد الحميد الكاتب ببعيدة عن ذهنه أو ذاكرته .

وايس أدل على هذا من ذكره في المقدمة التي لا يشك باحث في أنه كتبها بقله ، تلك العبارة بعد أن عدد الأغراض الثلاثة من ترجمة هذا الكتاب :

« والغرض الرابع - وهو الأقصى - وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة » (١) . ( والمعجب أن عنوان الباب في جلّ المراجع يذكر هكذا : « باب عرض الكتاب لا غرض الكتاب » ) . وبما نلاحظه أنه أوماً إلى غرضه في إصلاح الملوك تصريحاً ، حينما ذكرهم في الغرضين الثاني والثالث فقال : « والثاني : إظهار خيالات الحيوان بصنوف الأصباغ والألوان : ليكون أنسا لقلوب الملوك ، ويكون حرصهم عليه أشد للزخرفة في تلك الصور . والثالث : أن يكون على هذه الصفة ، فيتخذ الملوك والسوقة ، فيكثر بذلك اتساخه ، ولا يبطل ، فيخاف على مرور الأيام ، ولينتفع بذلك انصر والناسخ أدياً . فنلاحظ أنه لا يلح - بعد ذكره الملوك - في النصيح لهم ، والإبانة عن غرضه إبانة ظاهرة مباشرة ، بل يعقب على ذلك بذكر : « السوقة وانتفاع الصور والناسخ به أدياً » .

إذن لا يمكن أن يكون كائلة ودمنة قد ترجم ترجمة حرفية لم تتدخل فيها

---

(١) والعبارة في نسخة بيروت ص ٥٩ ( والغرض الرابع وهو الأقصى ؛ وذلك يخص الفيلسوف خاصة ، أعني الوقوف على أسرار معاني الكتاب الباطنة )

روح ابن المقفع وأغراضه ، ولا يمكن أن يكون إلا معبرا عن نقد ابن المقفع الملوك ، والدليل على ذلك شيثان : أولها أن الأديب الساخر الذي يخشى بطش الملوك يستحيل عليه أن ينقد نقدا صريحا ، بل لابد له أن يعتمد إلى المواربة والأسلوب غير المباشر في النقد كما فعل صامويل بتر القصصى الإنجليزى وغيره . وإلا لو أظهر نفسه على حقيقة ما تعرض لما يخشى مغبته كما فعل الشافعى حينما سأله المأمون عن خلق القرآن فصخر به قائلا - بعد تعداد القرآن وغيره على أصابعه : كل هؤلاء مخلوقون ( يشير إلى أصابعه ، لا إلى القرآن الذى أراد المأمون على الاعتراف بخلقه ) ، وبذلك نجا من هلاك محقق ، ومثله جبر المندرى الذى أمره محمد بن يوسف أن يلعن عليا ، فقال - زاعما أنه ينفذ أمره - إن الأمير محمد بن يوسف أمرنى أن ألعن عليا ، فالعنوه - لعنه الله - فعاها على أهل المسجد ، فما فطن لها إلا رجل واحد (١) .

فأنيهما : أن ابن المقفع قد حث على معرفة ظاهر الكتاب وباطنه ، فقال : « وكذلك من يقرأ هذا الكتاب ، ولم يعلم غرضه ظاهرا وباطنا ، لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه ، كما لو قدموا الرجل جوزا صحيحا لم ينتفع به إلا أن يكسره ويستفح بما فيه ، . يريد من قارئه الذى تفهمه وفطن لما فيه أن يعمل بما به ، قال : « ثم إن العاقل - إذا فهم هذا الكتاب وتفهمه وبلغ نهايته وعلم ما فيه ، ينبغي له أن يعمل بما عليه منه ، لينتفع به ، ويجعله مثلا لا يحيد عنه ، فإذا لم يفعل ذلك كان مثله مثل الرجل . . . إلخ (٢) ، .

وزاه يلح في ذلك حتى يقول في آخر الباب : « فمن قرأ هذا الكتاب فليعرف السبب الذى وضع عليه كتاب كيلة ودنة ، وحول من أرض الهند إلى أرض فارس . . . ، وهكذا يلح في قراءته ، وكفلك في معرفة سبب تأليفه وكذا في نسبة الكتاب إلى الهند وفارس .

(١) أخبار الأطراف والمتاجنين لابن الجوزى ص ٢٣

(٢) ص ٥٢ طبعة بيروت الكليية ودنة .

ثالثا : أن ابن المقفع كثيرا ما يذكر القصص التي يقدمها أمثلة وبرهانا على صدق نصيحته ودعواه ، يذكرها وفيها طابع السخرية ، كمثل الرجل الذي علم العلم ، ولم يعمل به : كالذي أعطى صحيفة صفراء ، وجعل عالما يكتب له فيها علم الحرية ، فكتب له في الصحيفة ما أراد ، فانطلق الرجل إلى منزله ، وجعل يقرأها ولا يدرى ما معناها ... وظن أنه قد أحكم ما في الصحيفة ... وأنه تكلم في بعض المجالس - وفيه جماعة من أهل الأدب والفصاحة - فقال له بعضهم : لحت ! فقال - وهنا موضع السخرية - ألحن ، والصحيفة الصفراء في منزلي ؟!

وكذلك قصة السارق الذي خدعه صاحب البيت بأنه ظفر بمناعه عن طريق السرقة بواسطة ارتقاء شعاع ضوء القمر الذي ينفذ من كوة في حجرة من الحجر ، وذلك بواسطة عدة كلمات يقو لها اللص في أثناء نزوله على الشعاع . شولم . شولم ،<sup>(١)</sup> وكذلك هناك قصة بائع السمسم<sup>(٢)</sup> . وقصة الغادر ، وسارق البير<sup>(٣)</sup> .

رابعا : هناك عدة مواضع في الكتاب يذم فيها الملوك وحكمهم بالهوى ونجبرهم ، إذ تقرأ حواراً رائعاً بين كليلة ودمنة في ذم صحبة السلطان ينتهى بقول كليلة : أمور ثلاثة لا يجترىء عليها إلا الأمواج ، ولا يسلم منها القليل : صحبة السلطان ، واثمان النساء على الأسرار ، وشرب السم للتجربة ،<sup>(٤)</sup> .

وقد أكترت كتب الحكمة القديمة والأدب من ذكر فصول في ذم صحبة

(١) كليلة ودمنة طبعة دار المعارف ص ٢٢٢

(٢) كليلة ودمنة (دار المعارف) ص ٨

(٣) المرجع السابق ص ١٠٠٩

(٤) المرجع السابق ص ٥٠

السلطان ، فالأرجح أن الدافع إلى ترجمة الكتاب أنه صادف هوى  
 في نفس ابن المقفع فترجمه تعريضا بالسلطان ، وصاغ العبارات ، وأضاف  
 إليها لتوافق هواه في ذم السلطان والتعريض به ، وإشعار نفسه بأنه لم يفقد  
 كثيرا حينما لم يتخذ للخليفة كاتباً له وهو ما هو عليه من حذق في الكتابة  
 وبراعة فيها كعبد الحميد صديقه ، وتصديقا لذلك قال : أمران لا ينبغي لأحد  
 — وإن كان ملوكا — أن يجعل شيئا منهما في غير مكانه وأن يزلّه غير  
 منزله : الرجال والحليّة<sup>(١)</sup> . وفي أول باب كاملة ودمنة ، يذكر عادة ذميمة  
 من عادات الملوك : « وقد قيل في أمور شتى : من كانت فيه لم يستقم أمره  
 له ... ومنها : التصديق لكلى مخبر ، ورب رجل يخبر بالشيء لا يقبله ، ولا  
 يعرف استقامته ، فيصدق به ، لما يرى من تصديق غيره ، فيتأدى به ذلك  
 حتى يكون كما أنه عرفه ، ورجل يصدق به لهواه في الأمر الذي يخبر به ،  
 فالعاقل لا يزال للهوى متهما ... فمن قرأ هذا الكتاب ، فليقتد بما في هذا  
 الباب ، فإننى أرجو أن يزيد بصرا ومعرفة . فإذا عرفه اكتفى واستغنى عن  
 غيره ، وإن لم يعرفه ، لم ينتفع به ، فيكون مثله كمثل الذى رمى بحجر في ظلمة  
 الليل . فلا يدري أين يقع الحجر ، ولا ماذا صنع !

ومن نحايله على الملوك ، أو تصويره إياهم بمظهر المصدق للشوايات  
 الفادر بالصدق ماضر به مثلا لذلك بقصة الأسد والثور ، وهى أطول  
 قصة في الكتاب ، ولعله قد زاد فيها من الزيادات ما يشفى به غليله ، وإنى لأعدها  
 أكبر قصة صورت ما يحدث بين الملك وأقرب المقربين إليه ، وحينما أقرأ  
 شخصية الأسد في هذه القصة أتمثل شخصية أبى جعفر المنصور بعنفه وقسوته  
 حينما قبل الثور في النهاية ، وليس هناك من فرق في ذلك بين مصرع الثور

ومصرع من أسسوا دولته كأبي سلة الخلال وأبي مسلم الخراساني وغيرهما من صرعه. ويكاد ابن المقفع ينطق بلسانه مخاطباً أبا جعفر في قصة الملك والطائر فزة ، قال : د زحاً للملوك الذين لا عهد لهم ولا وفاء أو بل لمن ابتلى بصحبة الملوك الذين لا حميم لهم ، ولا رحيم ، ولا يحبون أحداً ، ولا يكرّم عليهم إلا من يطمعون عنده في غناء ، أو يحتاجون إليه ، فيقرّبونه عند ذلك ، ويكرمونه فإذا فضوا منه حاجتهم ، فلا ود ولا إخوان ولا البلاد الحسن مجازى عندهم ، ولا الذنب مغفور ، وليس أمرهم إلا الفخر والرياء والسمعة وكان عظيمًا من الذنوب يركبونه ، هو عندهم صغير ، وعليهم حين (١) ...

ولا شك أننا نلاحظ أسلوباً غنياً في هذه العبارة ، ما كان لابن المقفع أن يستخدمه لو لم يكن واجداً - في نفسه - على من قصد به هذا الكتاب ، ونلاحظ استطراداً وإطناباً في العبارات ، مما يجعله يشعر براحة كلما زاد في العبارات والمترادفات وأطنب فيها معدداً مساوياً الملوك الذين هم في ضمير ابن المقفع : أبو جعفر المنصور ، وليس أحد غيره .

وقال أيضاً : « قال فزة : إن الأحقاد مخوفة حيثما كانت ، وأخوفها وأشدّها : ما كان في أنفس الملوك ، وإن الملوك ، يدبّرون بالانتقام ويرون الطلب بالوتر مكسرة ونفرا » . (٢) ثم ينصح الملك بنحو ما نصحه به في رسالة الصحابة : من الاهتمام باختيار الأعوان : ... ثم على الملك - بعد ذلك - ألا يترك تعاهد عماله ، والتفقد لهم والأموال ، حتى لا يخفى عليه إحسان محسن ، ولا إساءة مسيء . ثم عليهم - بعد ذلك - ألا يتركوا محسناً بغير جزاء ، ولا يقرّوا مسيئاً ولا عاجزاً على العجز والإساءة ، فإنهم إن صنعوا ذلك ،

(١) كلية ودمنة ( طبعة دار المعارف ص ٢٣٨ ) وطبعة شيخو ص ٢٤٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٥١ ( طبعة دار المعارف ) .



تهاون المحسن ، واجترأ المسيء ، ففسد الأمر ، وضاع العمل ... (١) ، ومن يدري لعله قصد نفسه بتذكير الملك أو الخليفة بالإحسان إلى المحسن ، حتى لا يتهاون المحسن ، ولعمري إن هذه الفقرة السابقة من الفقرات التي جث الملك على قراءتها وتفهمها ثم العمل بها كما نصح في أول الكتاب : « وكذلك من يقرأ هذا الكتاب ولم يعلم غرضه ظاهراً وباطناً ، لم ينتفع بما بدا له من خطه ونقشه ، وهو لاشك يقصد الخليفة ومن حوله لا السوق ، لأن السوق ليس في يدهم شيء من زمام الملك أو تصرف أمور الناس ولا يتحكمون في صغير أو كبير من أرزاق الناس وما يصلح لمعاشهم ، أما الحكام فهم الذين عليهم المعول ، وبالتالي هم الذين يوجه إليهم ابن المقفع أمثال هذا الكتاب للعمل بما فيه ، فينفعون به وينفعون أنفسهم .

وأعتقد أنه ليس من المستبعد أن يكون قد مر بذهنه في قصة « الأسد والأرنب التي تخلصت منه ، و« الذئب والغراب وابن آوى يهلكون الجمل ، أنهما مثلاً لا انتصار الضعيف على القوى - مهما أوتى من قوة - وسخريته بهذا القوى الذي يشقى غليله منه .

وبذلك تكون السخرية من النوع الذي يطلق عليه الأوربيون « سخرية الجوادث » (Lucky events) أو ما يسمى سخرية القدر التي تجعل الإنسان يبتسم من مغارقات القدر حينما يتجبر شخص ما وإذا به يغلب برامطة شيء ضعيف ما كان الإنسان يظن أنه سيغلبه ، وحينذاك يبتسم المرء ابتسامة السخرية ، وهذا شائع في حياتنا الدنيا . وما يستوقفني في نهاية باب الفحص عن أمر دمنة ، تلك العبارة : « ثم قال الفيلسوف الملك : « فليُنظر أهل الفكر في الأمور هذا وأشباهه ، وليعلموا أنه من يلتمس منفعة نفسه بهلاك غيره ظالمًا له بخديعة أو مكر ، أو خلافة ، فإنه غير ناج من وبال ذلك عليه وعاقبته

ومغبته ، وإنه مكافأ به ، ويجزى بما عمل ، عاجلا وآجلا ، وصائرا إلى البوار على كل حال ، ، (١) .

وهناك حديث طويل لتفقد الأشحاء اللثام وذمهم يمكن أن يكون تعريضا بالمنصور ، لفرط ما عرف عنه من شح شهر به (٢) . ولا شك أن ابن المقفع قد اتبع في أسلوبه ، ما جاء في عبارات الكتاب عن التعريض .... حتى ربما أغضبه بعينه - وهو لا يغضب - إنما يضرب له الأمثال ويحدثه عن عيب غيره ، فيعرف به عيبه ، ولا يجد للغضب عليه سبيلا . ، ، (٣) . وقد عرض ابن المقفع بمرعة غضب الملك على إسان لإبلاد - لما طلب منه الملك أن يذكر حاجته بعد إصلاح شأنه - ليست في حاجة فيما قبله إلا التاني عند الغضب ، والروية عند الفكر ، ، (٤) .

وقد عرض ابن المقفع بنهاية الظالم في قوله : « فلم يزل هذا البلاء بأهل البلد ، فوئب من بقي منهم ومن به رمق ، وتجمعوا إلى باب الملك ، فقتلوه ووزيره وأهله ، ولم يبق منهم أحد . ، ، » (٥)

\* \* \*

وقد تجلّت سخريّة ابن المقفع الحقّة التي هي أقرب إلى التصريح منها إلى

(١) كليله ودمنة ص ٢٤ .

(٢) جاء في مروج الذهب للمؤيد ٢٣٢ / ٣ وكان مع هذا يضمن بماله ، وينظر فيما لا ينظر فيه العوام ، ووافق صاحب مطبخه على أن له الرؤوس والأكارع والبلود ، وعليه الحطب والترايل . ، ، وانظر كليله ودمنة ( طبعة دار المعارف ) ص ١٣٨ .

(٣) كليله ودمنة ص ٢١٤ .

(٤) المرجع السابق ص ١٣٤ .

(٥) المرجع السابق ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

الإبهام ، في ذلك الحوار الرائع الذي عقده في نهاية قصة إبلاد وإيراخت وشادرم ، وتتلخص هذه القصة في أن ملكا من الملوك يدعى « شادرم » غضب على زوجته ، لأنها هفت معه هفوة صغيرة ، رأى أنها تستحق العقاب فقسا عليها إلى حد أنه أمر وزيره « إبلاد » بقتلها . فأخذها الوزير بعيدا عن القصر ، وكل بها من يعنى بأمرها ، ثم رجع إبلاد إلى الملك . وقد خضب سيفه بالدم - زاعما أنه قد قتلها ، منفذا بذلك أمر الملك .

أما الملك فحينما سكن غضبه على « إيراخت » الملكة ، وتذكر « جالها » ورأيها وعظم عنايتها ، وجسم منفعتها اشتد حزنه ، وجعل يقوى نفسه ويتجلد ، وفطن إبلاد إلى ذلك ، فأخذ يعزى الملك ، ويضرب له الأمثال ، ويقص عليه القصص في السلوى والعزاء ، وأن لديه النساء الكثيرات ، وأن لاداعى للحزن على إيراخت ، فلما سمع الملك ذلك ، خشى أن تكون إيراخت قد هلكت .

فقال لإبلاد : أفى سقطة واحدة كانت منى فعلت ما أمرتك به من ساعتك وتعلقت بكلمة واحدة ، ولم تثبت في الأمر ؟

قال إبلاد : إن الذى قوله واحد ، لا يختلف كلامه عندى ، واحد .

قال الملك : ومن ذلك ؟

قال الله عز وجل : الذى لا يبدل كلامه ولا يختلف قوله !

وهكذا يبدأ حوار رائع بين إبلاد الوزير والملك شادرم ، يأخذ الوزير فيه بالعبث بالك ساخرًا منه تسرعه في الحكم ، وأول شيء يبصره به هو أنه ضعيف بجانب الملك الأكبر خالق كل شيء . وطريقة الوزير في هذه السخرية : هى محاولة الإجابة عن عبارة الملك أو تساؤله ( خبرا كان أو استفهاما ) بواسطة التفريع أو وضع حالة الملك - التى نسبها لنفسه

أو نسب نفسه إليها - بين عدة حالات ، ثم يثبت له أن حالته هذه التي نسبها لنفسه ليست من بين هذه الحالات التي تتكاد تكون الحالات الصحيحة الحقيقية التي اتفق عليها الفلاسفة - بكون إبلاذ فيلسوفا مثلهم - ويمكن أن يطلق على طريقته طريقة « التصامم » ، أو ادعاء الصمم ، أو التخالب أو التباه ، فهي أشبه بطريقة سقراط التي كان يدعى فيها عدم العلم أو الجهل ، فهو أيضا يدعى أنه لم يفهم أو أنه فهم ولكن قول الملك لا يعول عليه لأنه ليس صحيحا كما يظن ، ولأنه ليس واحدا من هؤلاء الذين يذكرهم له : فأجاباته فيها تعزية مزوجة بالخرية . ونستطيع أن نذكر هذا المثل تبياناً لذلك . يقول الملك : اشتد حزني لقتل إيراخت .

يرد عليه إبلاذ ساخرا ، متصنعا الجذ - وهو جد الفلاسفة - اثنان يذنبان لهما أن يشتد حزنهما :

الذي يعمل الإثم  
والذي لم يعمل برا قط  
لأن فرحهما في الدنيا قليل !

فهو كأنه يقول له : إنك إما أن تكون واحداً من هذين اللذين ذكرت أنفاً ، فحينذاك تكون من يعمل الإثم أو من لم يعمل برا قط ، وإلا ، فلا يحق لك الحزن ، وهذا شيء كبير بالنسبة للملك ، لأنه لا يحتمل أن ينسب إلى أحد هذين الأمرين اللذين ذكرهما الوزير ؛ ولا يحتمل أيضا أن لا يحزن لهذه الفجعة الكبرى - فجعة أمره بقتل إيراخت ، ولا يحتمل ثالثاً أن يخرج به الوزير من هذا الأمر الذي هو ظاهر للعيان أنه يستحق الحزن ، إلى أمرين بعيدين كل البعد عن ذهن الملك - في حالة الحزن الذي يسد المنافذ على الشخص ، فلا يجعله يفكر أو يتأثر بشيء غير الذي هو فيه .

وهكذا يستمر في العبث بالملك بطريقة السخرية أو الهجاء غير المباشر حتى إنه لما قال الملك : ما أنا بنظر إلى إراخت سوى ما نظرت ايرد عليه إبلاد - الفيلسوف - قائلاً : اثنان لا ينظران أبداً :

الاعمى ؛ والذي لا عقل له ؛ فإنه كما أن الأعمى لا يبصر السماء ولا النجوم ولا الأرض ، ولا يبصر القريب ولا البعيد ولا أمامه ولا خلفه وكذلك الذي لا عقل له ، لا يبصر منفعته من مضرته ، ولا يعرف العاقل من الجاهل ، ولا الحسن من القبيح ولا المحسن من المسيء .

وهو بهذا يقول له - بطريق غير مباشر - إنك : إما أعمى وإما لا عقل لك : فيسب الملك ، وبذلك يزيده حزناً - من غير أن يمنحه الفرصة لأن يغضب ولأن ينتقم منه هو الآخر، وهكذا يتشقى بالملك أعظم تشق حتى يظن الملك إلى هذا بعد أن يضيق به ذرعاً فيقول له :

إني لحقير في عينك يا إبلاد ايرد عليه إبلاد هازناً - كأنه لا يعنيه من أمر الملك شيء بل يعنيه مجرد السخرية به أو أن يظل سادراً في غي حكيمته وثلاثة يحقرون أنفسهم : الذي يهذى بالكلام ، ويتحدث بما لا يسأل عنه... والمملوك الغني وسيد فقير فلا يعطى سيده شيئاً من ماله ، ولا يعتد به ، والعبد الذي يغلظ عليه سيده في القول ويستعيل عليه أو نلاحظ أنه حتى اعتراف الملك بأنه حقير في عيني إبلاد ، لا يريد إبلاد أن يوافق الملك عليه أى على هذا الاعتراف - أو الاعتراف به ، ولذلك يظن الملك إلى ذلك فيقول - وقد لاحظ عليه سمات الانكسار التي تدعو إلى الإشفاق عليه والثناء لحاله : إنك لتسخر بي يا إبلاد ا ، أى إنني قد هنت عليك إلى حد أنك لم تكتف بتركي وحزني ، بل أخذت في السخرية بي ( ونلاحظ أن عبارة الملك هي العبارة الثامنة عشر من هذا الحوار ، أى قيلت تلك العبارة بعد سبع عشرة عبارة سالفة - ويستمر الفيلسوف في لدعه فيرد على عبارته السابقة بقوله :

ثلاثة يذبح أن يسخر منهم .... وهكذا يحير الملك هذه الحيرة العنيفة فيأبى حتى مجرد الاعتراف بأنه يسخر منه !

وهكذا نرى لإبلاد ( أو ابن المقفع ) يسخر سخرية لا ذعة تمتد حتى تصل إلى حوالى أربع وأربعين عبارة في عدة صفحات ، وإنى لأعدها بل أعتبرها أكرم مكان أو مناسبة سمحت لابن المقفع بأن يشفى ثليله من الملك أضف شفاء .

وقد أظهر ابن المقفع في هذه القصة ضعف الملوك وهم يتصنعون القوة ، أمام حوادث نافذة نسيها : كفقذ زوجة من الزوجات ، وأظهرهم أيضا بمظهر الحق والضبط الذى هم عليه ، والنقص كخيرهم من البشر بتسرعهم فى إصدار الأحكام ، ثم محاولة الندم على ذلك حيث لا ينفع الندم ! وإن هذه الحالة ائذ ذكر بعقدة ألف ليلة وليلة حيث تحاول شهرزاد إنقاذ بنات جنسها من ملك طاغية يريد أن يقتل بسبب وبغير سبب ، ولا يبغى من وراء ذلك إلا إظهار قوته المجنونة أو ضعفه أمام نزواته وشهواته !

ويحاول ابن المقفع أن يطنب أو يتوسع فى إظهار ضعف الملك بإظهاره بمظهر الحزين ، العميق الحزن ، فى مواضع كثيرة حتى إنه يأخذ فى تكرار ذلك على لسان الملك بعبارات مختلفة تدور حول معنى واحد هو الندم على خطأ لا يمكن إصلاحه ، مثل : اشتد حزنى لقتل إيراخت (٢) لئن رأيت إيراخت حية لا أحزن أبداً (٣) ما أنا بناظر إلى إيراخت سوى ما نظرت ( ) - لئن رأيت إيراخت ليشتد فرحى ( ) ما شبت من رؤية إيراخت قط ( ) صرت من إيراخت صفرا ( ) لقد ازددت حزنا بتمزيك يا إبلاد - هلكت إيراخت ضيعة فى غير شيء ( ) ليتنى قد رأيت إيراخت يا إبلاد ( ) لقد أوجعت قلبى يا إيراخت ( ) أنا الذى شققت على نفسى ( ) لن تطيب نفسى بقتل إيراخت يا إبلاد ( ) أفدت على العيش يا إبلاد ( )

ثم يظهر الكاتب الملك بمظهر الضعيف حتى إنه يبدأ فى تعنيف إبلاد ، ثم يبدأ فى تهديده وسبه : إنه لينبغى لنا أن نتباعد عنك يا إبلاد فإنك بذلك جدير (٧) إنك لأهل أن تعذب أشد العذاب (٢) . إنه اينبغى لك أن تسفه يا إبلاد (٢) كان ينبغى لك أن تسكت حتى يهدأ غضبى يا إبلاد (١٤) قد تصدم ماينى وبينك يا إبلاد (٢١) ماينبغى لى أن أكلحك يا إبلاد ! والغريب أن الفيلسوف - برغم هذه التهديدات - لا يتورع عن الرد على الملك بتفريع الإجابة كما تعود بطريقته الخاصة .

ويبلغ ابن المقفع منتهى السخرية بالملك حتى إنه ينطقه بهذه العبارات أمام وزيره إبلاد : إنى لحقير فى عينك يا إبلاد : (١٧) إنك لتسخر بى يا إبلاد (١٨) إنك لتجبر يا إبلاد ! (١٩) إنى لخائف منك يا إبلاد ! (٢٧) أماك رحمة فترحنى يا إبلاد ؟!

ثم يظهر الملك بمنتهى الضعف الذى يستحق الاستهزاء والراء حينما ينطقه ، بمثل قوله : لم يصبنى قط وجع أشد على مما وصل إلى من لإراخت لحلبها وعقلها ( ) لاأرى لإراخت فى النساء شيها ( ) ليس يأتنى النوم على حزنى لإيزاخت ( ) حسبك يا إبلاد فقد تركتنى فى شك من رأى (١٤) !

وهكذا يعبت إبلاد بالملك أشد العبت ، حتى إذا مارآه قد هوى وأصبح فى شدة القنوط ( كما تدل عليه العبارة الأخيرة ) فاجأه بإظهار إيراخت مرة ثانية ، وإنما لعمرى خاتمة ساخرة بالملك حتى لو أنه كان قد قتلها حقاً ، لكان أهون على مركز الملك وأحفظ لكرامته من أن يعنفه بكل هذه الأجوبة الطويلة السامة - إن سمح لى التعبير بذلك - ثم ينتهى أخيراً إلى إظهارها مرة ثانية : كأنه الطفل الغريب الذى عبت به بإخفاء أمه - مصدر حياته - ثم

عاد فأظهرها ، وكأنه يقول له مرتباً على كشفه لاتبك ، هاهى أمك قد عادت إليك أيها الطفل الصغير !

\* \* \*

وقد اختلف عدد عبارات الملك ووزيره في هذا الحوار باختلاف النسخ ، فبلغت في كتاب نتائج الفطنة في نظم كائلة ودمنة ، ثلاثين عبارة للملك ومثلها للوزير في الرد عليه . أما في نسخة دى ماس والنسخ المصرية ( التى طبعتها وزارة المعارف ومكتبة الهلال ) فهى مختصرة جداً لا تزيد على ثمانى عبارات للملك ومثلها للوزير ، أما أطولها فهى ما ذكر فى النسخة السريانية الحديثة (١) ونسخة شيخو إذ بلغت سبعة وثلاثين عبارة ونسخة عزام فتبلغ ستاً وأربعين عبارة ، وبذلك فهى أكثر النسخ إطناباً فى هذا الحوار . وإنى لأحار فى سبب الاختلاف فى عدد العبارات بين النسخ إلى هذا الحد ، وقد يكون اسقوط بعض العبارات فى النسخ الناقصة اضياع بعض الأوراق منها أو الزاماً للاختصار كما يملك بعض الناسخين الذين لا يراعون الأمانة والدقة فى النقل ، أو بسبب نزيد بعض الكتاب المتأخرين والنسج على منوال ابن المقفع فى هذا الصدد حباً فى هذا النوع من الإنشاء وفى هذا النوع من الحوار فى هذا الموقف بين الملك ووزيره الذى ربما قد استهواهم وحل من نفوسهم محلاً جعلهم يقلدون ويتزيدون ، ومهما يكن من أمر ، فإن النسخ المطولة : وهى نسخة ابن الهبارية وشيخو وعزام تحتوى على عبارات تتفق عليها النسخ كل الاتفاق أو فى كثير من الألفاظ : والنسخ تتفق كلها فى كيفية بدء الحوار ولا تختلف إلا فى بعض الألفاظ التى لا تنير من المعنى فى شيء : فى نسخة وزارة المعارف المصرية يبدأ الحوار هكذا :

(١) مقدمة كائلة ودمنة ( طبعة دار المعارف سنة ١٩٤٢ ) بقلم عبد الوهاب



- لم لا تأنيث وتثبث ، بل أمرعت عند سماع كلمة واحدة ، فتعلقت بها .  
وفعلت ما أمرتك به من ساعتك !

فقال إبلاد : إن الذى قوله واحد ، لا يختلف : هو الله الذى لا تبدل  
لكلماته ولا اختلاف أقوله .

أما ابن الهبارية ، فيذكرها هكذا :

فقال يا بهلار هل من كلمة ؟      قتلناها ، لقد جنيت ، مؤلمه  
هلا تثبت ولم تستمع لمجل      فالخير فى الرفق وفى القمهل  
قال له : إن الذى لا يختلف      منه الكلام واحد إذ تعترف  
فقال : من ذاك ؟ فقال الله      لغيره الأضداد والأشياء

أما فى نسخة شيخو فقد بدأها كما ذكرنا فى أول هذا الفصل ( منذ بضع  
صفحات ) وكانت نسخة عزام وشيخو أكثر النسخ اتفاقاً ، حتى كأنهما  
من مصدر واحد ، ولا يختلفان إلا فى بعض الكلمات ، ونمثل لذلك بمقارنة  
الفقرة رقم ٣٦ لدى شيخو بالفقرة رقم ٤٢ عند عزام :

قال الملك : لقد غبنتنى وغبنت نفسك يا إبلاد .

فتذكر فى نسخة الدكتور عزام محرفة هكذا :

قد غنيت نفسك يا إبلاد وإياى معك ( غرقت غبن إلى غنى ) .

ثم يقول فى نسخة شيخو : ثمانية يغبنون أنفسهم وغيرهم .

فتذكر فى نسخة عزام : تسعة نفر يعنون أنفسهم وغيرهم .

وفى نسخة شيخو : « والذى الفجور الأشر العادى طوره المستغنى برأيه  
عن مشاورة الأخلاء .

فتذكر فى نسخة عزام مختصة هكذا « والذى الفاجر العادى طوره » .

وفي نسخة شيخو : « ومطالب العلم الذي يخاصم فيه من هو أعلم به منه ، ولا يقبل منه ما عليه ، .

وتذكر في نسخة عزام : « وطالب العلم بخصوصه من هو أنبل منه ، .

وهكذا نرى الاختلاف بين النسختين في بعض الأحيان هينا لا يتعدى الاختلاف في ترتيب العبارات ، وفي بعض الأحيان كبيرا إلى حد حذف بعض العبارات الموجودة في نسخة دون غيرها أو وجود عبارات جديدة ذات معنى مختلف عن مثيلاتها في النسخة الأخيرة ، أو حذف بعض فقر برمتها كالعبارة رقم ٢٩ في نسخة شيخو وهي غير موجودة في نسخة عزام وهي :  
« قال الملك : إن ذوى الكرم من الناس لا ينبغي لهم أن يضاحكوا ولا يلاعبوا ، أى لا يجوز المزاح معهم .

قال إيلاذ : « أربعة لا ينبغي لهم أن يضاحكوا ولا يلاعبوا ، <sup>(١)</sup> .

وكذلك الفقرة التالية لها برقم ٣١ ، رقم ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢ فإذا اتخذنا نسخة عزام أساسا في عدد الفقر وجدنا أن نسخة شيخو تحتوى على هذه الفقر من نسخة عزام : ١ - ٢٦ ، ٢٠ - ٢٢ ، ٣١ ، ٣٥ - ٢٧ .

أما ترتيب ابن الهبارية في منظومته وعدد فقراته فهو كالآتي <sup>(٢)</sup> :

١ - ٢١ ، ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، فقرة مزیدة ، ٢٢ ، ٣٥ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٧ ،  
١٨ ، ١٢ ، ٢٦ ، ٢٨ ، ٣٣ ، ٤ - ، فقرتان مزیدتان ، ٤٣ .

(١) كليله ودمنة ( طبعة بيروت التي نشرها شيخو ) ص ٢٢٦ .

(٢) ص ٢٠٤ - ٢١٤ من طبعة نتائج الفطنة في نظم كليله ودمنة للوزير

الشریف أبی یعلی بن أحمد بن الحسین المعروف بابن الهبارية . هذبه الخورى  
نعمة الله الأسمر الماروني اللبناني ، وطبع في المطبعة اللبنانية سنة ١٩٠٠ .

( م - ١٠ - الصخرية )

أما ترتيب طبعة مكتبته الهلال (وهي الطبعة المصرية المتداولة) فهي كالآتي : ١ - ٩ فقط<sup>(١)</sup> .

ونلاحظ أن جميع النسخ تتفق في البدء بالفقر التسع الأولى ثم تختلف بعد ذلك ، ولهذا أرى أن تحقق نسخة شيخو وابن الهبارية ( التي أعترف ناشرها اللبناني بأنها مذبذبة ) وذلك بالاستعانة بباقي المخطوطات وفي مقدمتها نسخة عزام- التي عني بها عناية كبيرة وحققها تحقيقاً أميناً - وبذلك نستطيع أن نخرج للعالم العربي نسخة أقرب إلى الدقة ، وإلى الأصل الذي أخرج عليه ابن المقفع نسخته الأولى إلى العالم العربي ، ويمكن الاستعانة بالمجهود القيم الذي بذله المرحوم الدكتور عزام في تحقيق أسماء الكتاب لما لحذفه اللغة الفارسية .



أما تفريع إبلاد لعبارة الملك فهي في المتوسط أربع حالات ، ولكنها قد تصل إلى عشر حالات كما ذكر في الفقرة الأخيرة من الحوار رقم ٤٤ . أما أجوبة إبلاد في هذا التفريع فهي أجوبة فلسفية حكيمة ، فيها شيء من الغموض أحياناً . وفي بعض عبارات ابن المقفع تعريض كقوله : « والفجرة الذين يسفكون الدماء - بغير حق - ويرجون أن تكون أرواحهم مع الشهداء الأتقياء ، فلا شك أن هذا تعريض بأبي جعفر المنصور<sup>(٢)</sup> » وتبلغ سخريته بالملك إلى حد أن شادرم الملك حينما يوجهه بقوله : إن ذوى الكرم من الناس لا ينبغي لهم أن يضاحكوا ،<sup>(٣)</sup> أي لا ينبغي أن يمزح معهم حاول الكاتب - كما دته - الهزء به بطريقته الخاصة . وحينما قال له الملك : كأنك

(١) كليله ودمنة طبعة مصر سنة ١٩٢٤ ص ٢١٧ - ٣١٩ .

(٢) كليله ودمنة ( طبعة عزام ) ص ٢٠٦ .

تريد أن تعلم الناس حتى يمهروا ، وتعلمنى أيضا حتى أكون ماهرا ، بنفلك منه الفيلسوف أيضا ولا يقر بذلك - مع أن قول الملك هو الحقيقة - ويحاول أن يذكر له أمثلة أخرى غير ما ذكر الملك وما اعتقد .

ونلاحظ على العناصر التى احتوت عليها أجوبة الفيلسوف أن بعضها مكرر ، وبعضها عناصر من الطبيعة كقوله : أربعة الحقد فيهم ثابت : الذئب والحروف ، والسنور والجرذ ، والبوم والغربان ، والبازى والدرج (١) . أو « أربعة يخافون بما لا ينبغي : الطائر الصغير ... والكركى ... والدودة ... والحفاش ... » وبعضها يتخذ عناصر مما يتكون منه المجتمع الإنسانى ، غير أنه أكبر من المرأة وصفاتها وأخلاقيها وبخاصة ضرب المثل بالمرأة الفاجرة « رقم ٢٧ . صفات المرأة التى هى حقيق أن يحزن عليها ، رقم ٢٥ ، رقم ٢٨ ، رقم ٢٦ ، رقم ١٨ والمرأة التى تذكر أنها عذراء وليست بعفيفة ولا حصان . ومن أفراد المجتمع أيضا بطانة الملك ، والملك - وبخاصة السريع الغضب كما فى رقم ٤٢ « سبعة لا يزالون فى سخط : الملك السريع الغضب الضيق الصدر غير المتشد . وفى رقم ٤٤ « ... والملك فى الغضب كيف يكون حله وعلمه ، وفى رقم ١٣ « ... الملك الحقود الهذر فى القول ، وفى رقم ٣٠ « ... والملك الذى يأتى المعروف إلى كل غامط كفور منكسر لكل ما يصنع ، وفى رقم ٣٢ « ... والملك يكرم العبد ، وفى رقم ٢٥ « ... والملك الذى يهتم بالأمر العظيم ويرتكبه . وتمتلىء أجوبة لإبلاد أيضا بحكم رائعة صادقة كما فى رقم ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ مثلما ذكر فى رقم ٣٠ « أربعة لا يخالط بعضهم بعضا : النهار والليل ، والبر والفاجر ، والظلمة والنور ، والخير والشر ، ١ .

وأخيرا فإن عبارة من عبارات الفيلسوف فى هذا الحوار لا تكاد تخلو من الكلام فى الأخلاق وكيف تكون .

وإن طريقة كاتب هذه القصة وكاتب هذا الحوار «التفريعي» ، لنذكر في  
بطريقة كان يمارسها الأمير الشماخي - الذي كان معاصراً لمحمد علي الكبير والي  
مصر - إذ كان إذا سئل السؤال ولم يعجبه أو لم يرد الرد عليه ، تظاهر بأنه لم  
يسمعه أو لم يفهمه وأجاب - بكل ثبات - على سؤال آخر لا يمت إلى هذا  
السؤال بصلة وقد اتبع هذه الطريقة مع جميع السياسيين المعاصرين له وبذلك  
كان يسخر منهم سخرية لازدة من غير أن يحرك ساكناً<sup>(١)</sup> .

وليست هذه القصة التي حللتها وعلقت عليها فيما سبق هي القصة الوحيدة  
الساخرة في كلية ودمنة ، بل هناك الكثير مما يمكن أن يدخل في هذا النوع  
من السخرية المسمى بسخرية الحوادث Irony of events مثل «بائع السمسم»<sup>(٢)</sup>  
وسارق الثوب والبر<sup>(٣)</sup> والسارق راكب الشعاع<sup>(٤)</sup> وقصة القدر الذي لا بد أن  
يصيب الإنسان كالرجل الذي هرب من الذئب في البحر ثم وقع عليه  
الجدار<sup>(٥)</sup> وإن على رأس هذه القصص اثنتان هما قصة القرد والقيلم وسخرية  
القرد بأنه ترك قلبه فوق الشجرة<sup>(٦)</sup> وقصة الخمار الذي زعم الشعب أنه ليس  
له قلب ولا أذنان<sup>(٧)</sup> .

وبعد ، فإن هناك كلمة أخيرة في سخرية ابن المقفع : هي أنها سخرية  
جادة حزينة ، ليست بالضحكة ولا بالخففة ، فهي أشبه بأن تكون صارمة ؛  
وبأن يكون منبعها رجل مفكر عظيم التفكير ، ونستطيع أن نطلق عليها السخرية  
الحكيمة أو الحكمة الساخرة ، وهو لم يسلك في سخريته الأساليب الهازلة  
المختلفة كأسلوب الأمر أو النهي أو الاستفهام أو غيرها من الأساليب التي

(١) مجلة الاثنين سنة ١٩٤٨ من مقال للأستاذ حبيب جاماق بعنوان  
« تاريخ ما أهمله التاريخ » .

(٢) كلية ودمنة ص ٨ (٣) المرجع السابق ص ٩ ، ١٠

(٤) المرجع السابق ص ٣٠-٣٢ . (٥) نفس المرجع ص ٤٥

(٦) نفس المرجع ص ١٧٥ . (٧) نفس المرجع ص ١٨١ من طبعة عزام.

ذكرت سابقا ، وذلك لأنه يخاطب ملوكا غاضبا فلا يستطيع أن يظهر له  
هزأه في حالة حزنه ؛ وإلا قتله ، وكذلك فإنه كان يصدد أسلوب فلسفي ساخر  
هو من طبيعة الفلاسفة كابن المظفر ، فلاغرو أن استخدمه ليكون في السخرية  
والنصح في آن واحد ، كذلك فطبيعة ابن المظفر طبيعة الرجل العاقل المميز  
الرزين الذي تتجافى رزائته عن أساليب السخرية للعبوب الأخرى .

- ٤ -

## الجاحظ

وننتقل الآن إلى كاتب يعد أكبر كتاب الدولة العباسية إن لم يكن أكبر  
كاتب ظفرت به اللغة العربية ، وأعفى به الجاحظ .

وهو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكنتاني ، ولد  
في البصرة ، في سنة ١٥٩ أو سنة ١٦٠ هـ وقالوا : كان الجاحظ مولد أبي القلم  
عمرو بن قلع الكنتاني ، ثم الفقيمي ، ومنهم من أضاف إلى هذا : وهو كنتاني  
قيل : صليبة ، وقيل : مولى . وكان جده أسود يقال له فزارة . وكان جمالا  
لعمرو بن قلع الكنتاني .

هذا كل ما يعرف عن نسبه وأصله ، وهذه المعرفة لاتضيء ظلمة ، فإن  
ناحية نسبه غامضة <sup>(١)</sup> . ولم يعرف من أقاربه إلا خاله - أو خال أمه كما قيل  
في رواية أخرى - يموت بن المزرع <sup>(٢)</sup> الذي توفي سنة ٣٠٤ هـ وكان من  
مشايخ العلم والأدب . أما أبوه فقد توفي وهو حديث السن <sup>(٣)</sup> .

## حياته :

طلب العلم - وعو عبي - في الكتاب مع أولاد القضاة وغيرهم من

(١) الجاحظ : شفيق جبري ص ٣٥ (٢) أدب الجاحظ للمندوب ص ١١

(٣) الجاحظ : حنا الفاخوري ص ١٥ .

طبقات المجتمع ، ثم راح يتعبد بعمل يديه فيبيع الخبز والسمك بالبصرة ، وهو لا يألو جهداً في طلب العلم ومطالعة الكتب ، وكانت البصرة أكبر حاضرات العلم والأدب بعد بغداد ، يجتمع في مسجدها طائفة من العلماء عرفوا بالمنجدين ، فجالسهم الجاحظ ، وأفاد منهم بفضل ذكائه المتوقد وحافظته القوية ، وتلقى الفصاحة عن خطباء العرب في « المريد » ، ومن العلماء الذين أخذ عنهم علومه : أبو عبيدة معمر بن المثنى ، والأصمعي ، وأبو زيد الأنصاري ، وأبو الحسن الأخفش ، وتخرج في علوم الكلام ومذاهب الاعتزال على أبي إسحاق النظام <sup>(١)</sup> . وقد بلغ شغفه بالقراءة أن كان يكثرى حوانيت الوراقين ، ويبيت فيها أحياناً للمطالعة - وبعد أن كان فقيراً تعيره أمه لعدم سعيه وراء رزقه وجريه وراء الكتب ، أصبح يصعد سلم الغنى رويداً رويداً ، حتى نال الجوائز السنوية من الأمراء ، فأعطاه محمد بن عبد الملك الزيات خمسة آلاف دينار لما أهداه كتاب الحيوان ، ومنحه أحمد بن أبي دواد مثلها لما أهداه « البيان والتبيين » ، وأخذ كثيراً من الجوائز غيرها ، حتى أصبح يمتلك ضيعة بالبصرة ، وكان يمتنى الخدم ، وربما ابتاع من الخدم من كان يخدم أهل الثروة واليسار وأشباه الملوك . <sup>(٢)</sup>

جمع هذا المال الطائس ، وتقلد جلائل الأعمال ، فقد صدر في ديوان الرسائل أيام المأمون ثلاثة أيام ، ثم إنه استعفى فأعفى . وكان سهل بن هارون يقول : إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أقل نجم الكتاب <sup>(٣)</sup> . وكان يتقلد خلافة إبراهيم بن العباس الصولي على ديوان الرسائل . وبلغ من ارتفاع

(١) أدب الجاحظ للسندوبى ص ٢٨ .

(٢) « البيان والتبيين » ٢ / ١٧٦ .

(٣) الجاحظ : لشفيق جبرى ٣٩ .

شأنه ، وبحبوحة عيشه أن سأل رجل عن حاله ، فأجاب : سألتني عن الجملة ، فاسمعها مني واحدا واحدا : حالي أن الوزير يتكلم برأى ، وينفذ أمرى ، ويؤثر الخليفة الصلات إلى ، وآكل من لحم الطير أسمتها ، وألبس من الثياب أفخرها ، وأجلس على أئين الطبرى ، وأتسكى على هذا الريش ، ثم أصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج ! فقال له الرجل : الفرج ما أنت فيه ! قال : بل أحب أن تكون الخلافة لى ، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمرى ، ويختلف إلى ، فهذا هو الفرج ... (١)

وتد اتصل الجاحظ بكثير من عظماء الرجال فى عصره ، فاتصل أول ما اتصل بابن الزيات ، وما أن غضب عليه المتوكل وأحرقه ، حتى أراد عدوه أحمد بن أبى دواد أن ينتقم من الجاحظ ، لانضمامه إليه ، فأرسل إليه وأقن به مكبلا ولكن ظرفه كان شفيما لديه لأن يعفو عنه (٢) قائلا : أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه ! وعمن اتصل بهم ومدحهم : إبراهيم بن رباح ابن شبيب الجوهري الكاتب ، وكان واليا على الأهواز ، وأبو الفرج نجاح ابن سلمة : وكان يكانب جماعة منهم إبراهيم بن المدبر (٣) .

وقد فطن الجاحظ إلى أن الضرب فى مناكب الأرض مشحذة للذهن ، مصقلة للخيال ، لما فى مشاهد الطبيعة من مختلف الصور ، ومتباين الألوان ، مما يكون مادة لرجال التجربة ، ولذلك فقد سافر إلى أنطاكية ودمشق ويقال إنه زار مصر أيضا (٤) .

(١) رسائل الجاحظ على هامش الكامل للمبرد ٢٤٨ / ٢

(٢) معجم الأدباء لياقوت ٥٨ / ٦

(٣) الجاحظ : لشفيق جبرى ص ٤٩

(٤) الحيوان ٤ / ٥١ ، ٥ / ١١٣



وأخيرا ، فقد أخذ هذا السراج الوهاج ، يخبر رويدا رويدا ، حتى أعيب بالفالج بعد أن بلغ الثمانين من عمره ، وقد قاسى من ذلك كثيرا ، كما روى المبرد وأبو علي القالي : « كيف يكون من نصفه مغلوج لوحز بالمنشير ما شعر به ، ونصفه الآخر منقرس لو طار الذباب بقربه لآلمه ١ ، (١) وتوفي في خلافة الممتز بالله سنة ٢٥٥ هـ بعد أن خبر كل أمر من أمور الدنيا ، خبر خشونة الحياة ونعيمها ، وامتنحن ذل السلطان وعزه ، وتقلد جلائل الأعمال وصحب أصاغر الناس وأكابرهم ، وذاق اللذات ، ومد الله في أجله طوال قرن كامل (٢) :

مؤلفاته وكتبه : —

وقضى الجاحظ أغلب حياته قارئا باحثا ، مطالعا على كل ما يصدر في عصره ، وكم كانت سخرية القدر به حينما كانت هذه الكتب التي ملأت جدران بيته السبب في هلاكه !

وكتب الجاحظ في كل موضوع تقريبا ، من الملعين إلى بني هاشم ، ومن اللصوص إلى الذئاب ، ومن الكلام في صفات الله تعالى إلى القيان ، ومن القضاة والولاة إلى أمهات الأولاد ، ومن الإمامة إلى الحور والعور ، « فإن نحن قلنا إن كتبته دائرة معارف ، زمانه ، غير مرتبة على أحرف الهجاء ، ولا على أى أساس ، كان ذلك صوابا ! وهو في تأليفه أنيس محاضر تحرر من قيود كثيرة تقيد بها علماء عصره ، تحرر من التزام الجدد وثقل الغموض الذي كرهه من أستاذه الأخفش ، فهو دائما يخلط جدا بهزل ، ويسبك

(١) أمالي القالي ١ / ٥ ، معجم الإديباء ٦ / ٧٩ .

(٢) الجاحظ : لشفيق جبرى ٥٧ ، ٥٨ .

القيمة الجافة بكثير من الحلوى ، ويجد ، حتى إذا أعدك للبكاء - رمال  
ينادى تمنع منها في الضحك<sup>(١)</sup> قال المسعودى : ولا يعلم أحد من الرواة  
وأهل العلم أكثر كتباً منه ... وكتب الجاحظ - مع انحرافه المشهور - تجلوه  
صدأ الأذهان ، وتكشف واضح اثبرهان ، لانه نظمها أحسن نظم ، ورصفها  
أحسن رصف وكساها من كلامه أجزل لفظ ، وكان إذا تخوف ملل القارىء  
وسامة السامع ، خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة إلى نادرة  
ظريفة ،، (٢) .

ألف في مواضيع المتكلمين مثل كتاب خلق القرآن وكتاب الرد على  
المشبهة وكتاب في الرد على النصارى وكتاب الاعتزال ، وكتاب الإمامة .  
وكتب في موضوعات سياسية تاريخية : ككتاب العرب والموالى ، وكتاب  
العرب والعجم ، ورسالة في فضائل الأتراك ، وكتاب السودان والبيضان ،  
وألف في الأخلاق التي كان يشعر بها في عصره وطبقات الناس : فألف كتاب  
البعلاء والسلطان وأخلاق أهله وكتاب الجوارى والحاسد والمحسود وألف  
في النبات كتاب الزرع والنخل وألف في الحيوان كتاب الأسد والذئب وكتاب  
البغال وكتاب الحيوان .

وألف في الفكاهة والنوادر - علاوة على ما بثه منها في كتبه السابقة - :  
كتاب نوادر الحسن ، كتاب الملع والطرف ، كتاب المضاحك ( ذكره  
أبو منصور البغدادى في كتابه « الفرق بين الفرق » ، كتاب المزاح والجدة ،  
كتاب فرط جهل الكندى ، كتاب الترييع والتدوير (٣) .

(١) ضحى الإسلام ١ / ٤١٠ .

(٢) مروج الذهب ٢ / ٣٤٤ .

(٣) انظر أدب الجاحظ للسندوب من ١١٦ - ١٤٤ وبمجموعة الروائع عدد ١٩

صفاته :

كان جد الجاحظ عبدا أسود ، فلا بدع أن يرث حفيده شيئا من خلفه ،  
فيأتي دميم الهيئة ، بشمع المنظر ، قصر القامة ، ناق العيين ، وعلى هذا دعى  
بالجاحظ . والحدق ، فغلب عليه اللقب الأول . وهو في بعض الأحيان  
يذكر بعض أخبار في قبج صورته على سبيل التغمكة ، فمارواه : ذكرت  
المتوكل لتأديب بعض ولده ، فلما رأى استشبع منظرى ، فأمرى بى عشرة  
آلاف درهم ، وصرفنى ، <sup>(١)</sup> وقال أيضا : « ما أخجلنى إلا امرأتان : رأيت  
إحداهما فى العسكر ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام ، فأردت أن  
أمازحها ، فقلت : انزلى كلى معنا ! فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا !  
( معرصة بقصره ) .

وأما الأخرى ، فإنها أتتني ، وأنا على باب دارى ، فقالت : لى إليك  
حاجة ، وأنا أريد أن تمشى معى . فقمتم معها إلى أن أتت بى إلى صائغ هودى  
فقال له : مثل هذا ، وانصرفت . فسألت الصائغ عن قولها ، فقال : إنها  
أتت إلى بفص ، وأمرتني أن أنقش عليه صورة شيطان ، فقلت : ياسينتى .  
ما رأيت الشيطان ، فأتت بك ! <sup>(٢)</sup> وقد هجاه بذلك أحد الشعراء فقال :

لو يمسح الخنزير مسخا ثانيا ما كان إلا دون قبج الجاحظ .

وقد عوضه الله خيرا من قبج المنظر سرعة حافظه ، ووفرة ذكاه ،  
والظاهر أن فقره الذى بدأ به حياته ، وقبح منظره وقصر جسده الذى عرف  
به قد هياه لأن ينكب على الكتب انكبأبا ، حتى يزيل بتفوقه فى العلم والأدب

(١) أدب الجاحظ للسندوبى ص ٢٧

(٢) المرجع السابق ص ١٦٦ .

ما كسى به من سوء المنظر. وقد طبعته خلقته - كما مثاله من غالية المشوهين - بطابع الظرف والفكاهة ، فهو أشبه في ذلك بإمام للعبد الأديب المصرى الذى عاش فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين والشيخ عبدالعزيز البشرى الذى كان دميما ، والممثل الهزلى على الكسار الذى طالما أضحك الملايين وقد ساعده على ذلك سمرة بشرته وخلقته الخاصة .

وكان الجاحظ أميل إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم ، وينظر إلى الأمور كما هى فى واقعها كما ينظر إلى الناس نظر الخبير بطباعهم وأخلافهم ، فيحاسن الكبراء دون إسفاف ، ويحسب مخاشنتهم ، تفاديا لشرهم ، ويحسب عن الأشرار طبعاً وتطبعاً ، ويتبعد عن الحاسدين للتخلص من شرهم . وكان يحب اللهو وسماع القيان والمغنين ، لا يأنف إلا بما يضيع الوقت سدى<sup>(١)</sup> . وكان فكها يحب الفكاهة ، ويتطلبها ، حتى فى أقدس المواقف وأوفر المواضع خطراً وأهمية ، وله ولوع شديد بالضحك والإضحاك ، ، فمما يدل على اهتمامه بالضحك واستحسانه له قوله : « ولو كان الضحك قبيحاً من الضاحك ، وقبيحاً من المضحك ، لما قيل للزهرة والحبرة والحلى والقصر المبنى : كانه يضحك ضحكاً ، وقد قال الله جل ذكره : « وأنه هو أضحك وأبكى ، وأنه هو أمات وأحيى ، فوضع الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت ، وإنه لا يضيف الله إلى نفسه القبيح ، ولا يمن على خلقه بالنقص ، وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيماً ، ومن مصلحة الطباع كبيراً ، وهو شئ فى أصل الطباع ، وفى أساس التركيب ، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبي ، وقد تطيب نفسه ، وعليه يثبت شحمه ويكثر دمه ، الذى هو علة سروره ومادة قوته ، ولفضل خصال الضحك عند العرب تسمى أولادها بالضحاك

وبيسام وبطلق وبطليق ، وقد ضحك النبي ﷺ وفرح ، وضحك الصالحون وفرحوا ، . . . . . (١) وقد ذكر أيضاً أن من فوائد الضحك أنه يساعد على هضم الطعام (٢) . وما يدل على ميله إلى الفكاهة معايشة المرأة والتعريض بطولها بقوله : انزلى كلى معنا . وجاءه يوماً بعض الثملاء ، فقال : سمعت أن لك ألف جواب مسكت ، فملنى منها . فقال : نعم : فقال : إذا قال لى شخص : يازوج الفجبة ، يا فيل الروح ، أى شيء أقول له ؟

قال : قل له : صدقت (٣)

وكان الجاحظ يأكل مع محمد بن عبد الملك الزيات ، فجأوا بفالودجة ، فتولع محمد بأبى عثمان الجاحظ ، وأسر بأن يجعل من جهته مارق من الجام ، فأسرع فى الأكل فتتظف مابين يديه ، فقال ابن الزيات : تقشعت سماؤك . قبل سماء الناس ! فقال الجاحظ : لأن غيمها كان رقيقاً (٤) .

ومن فرط شغف الجاحظ بالفكاهة أنه كان يخاطب أهل المنزل ، ويروى من النوادر ولوعه على نفسه كقوله : « فأما الذى أصابنى أنا من الذبان ، فإنى خرجت أمشى فى المبارك (٥) أريد دير الربيع ، ولم أقدر على دابة ، فمررت فى عشب أشب ، ونبات ملتف ، كثير الذبان ، فسقط ذباب من تلك الذبان على أنفى ، فطرده ، فلم أقدر ، فتحول إلى عيني فطرده ، فعاد إلى موق عيني ، فزدت فى تحريك يدي ، فتنجى عني بقدر شدة حركتي ، وذبت عن عيني ولذبان الكلا والغياض والرياض وقع ليس لغيرها ، ثم عاد إلى ، فعدت عليه ، ثم عاد إلى ،

(١) كتاب البخلاء ص ٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٨ .

(٣) أدب الجاحظ للسندوبى ص ١٦٩ .

(٤) المرجع السابق ص ١٧١ .

(٥) أى مبارك الإبل .

فعدت بأشد من ذلك ، فلما عاد ، استعملت كفى ، فذبيت به عن وجهى ، ثم عاد وأنا فى ذلك أحوث السير ، أو مل بسرعتى انقطاعه عنى ، فلما عاد ، نزع طيلسانى عن عنقى ، فذبيت به عنى بدل كفى ، فلما عاود ، ولم أجد له حيلة استعمات العدو ، فعدوت منه شوطاً تاماً لم أتكلف مثله منذ كنت صبياً ، فتلقانى الأنداسى ، فقال لى : مالك يا أبا عنبان ؟ هل من حادثة ؟

قلت : نعم ، أكبر الحوادث ، أريد أن أخرج من موضع اللذبان على فيه سلطان ! فضحك حتى جلس ، وانقطع عنى ، وما صدقت بانقطاعه عنى حتى تباعد جداً ! ( ونلاحظ التكملة فى استعماله السجع فى نهاية نادرته : اللذبان على فيه سلطان ) .

#### الجاحظ السـاخـر :

عرفنا شخصية الجاحظ ، ورأينا إلى أى حد كان مشوه الصورة : فجحوظ عينيه ، وسواد بشرته ، وقصر قامته : كان كل ذلك يلفت الأنظار إليه ، كذلك فإن شعوره بالنقص لإحساسه بأصله البسيط ولنشأته الفقيرة كل ذلك قد بث فى نفسه الشعور بالنقص ، ومن ثم فقد حاول أن يعلو بنفسه عن ذلك الدرك الأسفل الذى ولد فيه ونشأ . وقد اكتشف فى نفسه - منذ الصغر - ميله إلى الاطلاع والقراءة ، ميلاً جعله يصبر على أن يجلس نفسه الزمن الطويل فى القراءة ، تلك الوسيلة التى كانت تدفعه دفعاً إلى التفوق ، وكما أنه تنقل بين معارف شتى ، فكذلك أخذ يختلط بأناس كثيرين فى عصره : ينتقل من طبقة إلى أخرى ومن بلد إلى آخر ، زد على ذلك أنه عمر دهرأ طويلاً ، فكان لا يمر عليه يوم إلا ويزداد فيه معلومات ، ويمتلئ فيه بالتجارب ، ويكتشف رويداً رويداً متناقضات الحياة التى يحياها الإنسان : أولها ذلك الحظ الذى لا يسير بين الناس بالمنطق الذى يرضاه العقل الإنسانى : فأنأ يرفع من لا يستحق رفعه ولا يطمح إليها ، وأنأ آخر يهبط بمن يريد الارتفاع .. كل ذلك

قد ولد في نفسه العجب والدهشة والتفكير الطويل من تلك المتناقضات التي مالبث أن ابتسم لها ، ثم بدأ يوطن نفسه على ألا يهتز لها اهتزازاً عاطفياً أو ينفعل بسببها ، بل حسبها منها ، وحسبها منه أن ينظر إليها نظرة السخرية ، وتلك دائماً خاتمة مطاف كبار الفلاسفة والمتاملين في تلك الحياة العجيبة المتناقضة ، وفي ذلك الزمن المليء بالمفاجآت والغرائب ! ولعله قد ورث الاستعداد للسخرية عن تلك الأم التي سخرت به منذ صغره حينما تعبت في محاولة إثنيه عن القراءة ، والانكباب على الاطلاع إلى عمل يكسب منه قوته ، فقدمت إليه ساخرة - لما طلب منها طعاماً - طبقاً عليه بعض الكراريس !

وإذا به يرد عليها بنفس الأسلوب ، حينما خرج مغتماً ، وجلس في الجامع ، فمرف قصته موسى بن عمران ، فأعطاه خمسين ديناراً فاشتري الدقيق وغيره ، وحمله الحمالون إلى داره ، فلما أنكرت الأم ذلك وسألته عن مصدره ، قال : من الكراريس التي قدمتها إلى (١) .

وقد بلغت به السخرية حداً جعلته لا يأبه أن يروى عن نفسه استبشاع جارية منظره واصطحابها إياه إلى صانع الكي يرسم لها صورته - صورة عفريت - على خاتما ! أو أن يعترف برفض المتوكل بحالته ، ومنحه بعض الدنانير ، تطييباً لحاظره مع أن هذا الخليفة قد تمنى رؤية أبي العيناء الأعشى ! ومن كانت هذه حاله وتلك طبيعته ، فلا عجب أن يمتزج به المجون والفكاهة امتزاجاً يجعله يعبت بكثير ممن صادفهم في حياته (٢) . ولعله قد اتخذ هذا الأسلوب في الحياة ترويحاً عن نفسه لما شعر به من محاولة التضيق عليه من كانوا يحسونه حسداً جعله آناً ينسب كتيبه إلى غيره كما اعترف غير مرة - مع

(١) أحمد بن يحيى بن المرتضى : ذكر المعتزلة طبعة حيدر آباد ص ٣٨ .

(٢) انظر الحدوان ٢ / ١١٣ ، ١٠١ .

أن النتائج الفتي كالولده ، يعز على الإنسان نسبته إلى غيره - وأنا آخر يحاول أن يداريهم ويصايعهم ومرة ثالثة يؤلف رسالة عنهم .

ومما يروى عن تماجنه وسخريته أنه قال ما جنا ساخرأ بنفسه : نسيت كنييتي .

ولا شك أنه عرف ما يدور حول الوظائف الكبرى من حسد ودس وشايات - وهو رجل لا قبل له باحتمال ذلك - ولهذا فقد رفض ذلك المنصب الخطير الذى عرضه عليه المأمرون - رئاسة الكتاب - ولم يمكث فيه إلا ثلاثة أيام ، خوفاً من الحاسدين من جهة ، ولحبه للحرية وانطلاقه فى ذلك الجو الذى طبع عليه وخلق له : وهو التحلل من القيود التى يتقيد بها الناس لما تفرضه عليهم طبيعة وظائفهم ، وميله إلى النقد المستمر ، وخصوصاً النقد الساخر الذى طبع عليه ولا قبل له بمفارقتة أو انتزاعه من نفسه <sup>(١)</sup> ومن عبته الساخر - الذى يدل على حبه لهذا الأسلوب دائماً - تلك القصة التى رواها ابن عساکر فى تاريخه وهى : دخل رجل على الجاحظ فقال له : يا أبا عثمان ، كيف حالك ؟ فقال الجاحظ : سألتنى عن الجملة فاسمعها منى واحداً واحداً : حالى أن الوزير يتكلم برأى وينفذ أرى ويؤثر الخليفة الفصلات إلى ، وآكل من لحم الطير أسمها . . . . . ثم أصبر على هذا حتى يأتى الله بالفرج !

فقال له الرجل : الفرج ما أنت فيه . قال : بل أحب أن تكون الخلافة لى ، وممل محمد بن عبد الملك بأمرى ، ويختلف إلى ، فهذا هو الفرج <sup>(٢)</sup> ! فهو يتكلم بهذه العبارات تماجناً كماداته ، مصوراً طموحه الذى لا يستحق منه إلا السخرية . . . ومن الطبيعى أن يقول تلك العبارات وهو

(١) شفيق جبرى : الجاحظ ص ١٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢ .



يعرف تمام المعرفة ويعرف الناس معه أنه يقولها على سبيل السخرية ،  
والإلما استطاع أن يتفوه بها ، وأن تشيع عنه فيتحدث بها في مجالس  
الخليفة وابن الزيات ، وإلا لدمرت الأرض من فوقه جزاء هذا  
التهور ! وهو يشبه في سخريته بنفسه الممثل الساخر « نجيب الريحاني » ،  
حينما سأل الأطباء - وهو على فراش المرض - عن لسانه لكي يطمئن على  
صحته - بعد خصه - فلم يجيبوه خروفا عليه من التأثر ، وإذا به يقول لهم ساخرا :  
« أنا عارف إنه وسخ وطول عمره وسخ » ، وما يدل على عبثه - مع أنه  
أصبح كبير الكتاب - عبثه بأبي العيناء حينما أسر إلى حاجبه بالأيده يخرج  
ولا يمكنه من الرجوع إليه ، فلما خرج أبو العيناء من بين يديه ، وصار في  
الدليلين حجزه وضيق عليه . فنادى بأعلى صوته . يا أبا عثمان ، قد أريتنا  
قدرتك ، فأرنا عفوك<sup>(٢)</sup> . ونما يدل على ذلك قصصه التي رواها عن  
نفسه<sup>(٣)</sup> .

وقد ائس الجاحظ لباس الساخر حتى في تأليفه الذي لا يتصل بذلك ،  
إذ كثيرا ما يؤلف الكتاب مدحا في قوم أو رأى أو مذهب من المذاهب  
ثم يؤلف الآخر في مدح أعداء هؤلاء القوم أو تحييد الرأي أو المذهب  
المخالف لما مدح أو أثنى عليه ، وهو في الحقيقة لا يمدح أو ينقض مدحه ،  
لأن غايته من وراء هذا وذاك هو العبث بكل تلك الطوائف المتعددة في الحياة  
والتي تتناحر على شيء لا يستحق التناحر ، وتتفاخر بأشياء لا تستحق أن  
يفتخر بها ، ومن أجل هذا عابه ابن قتيبة - عصبية عليه وكرامية له - إذ قال :

(١) أنظر تراجم أبي العيناء للمؤلف .

(٢) أنظر أدب الجاحظ للسندوني ص ١٧٠ ، ١٧١ ورسالة البخل ص ٦٠ ،

٦١ ، ٩٤ من نشرة الحاجري طبعة المعارف سنة ١٩٥٨

وتجده في كتبه يتهدد للمضاحيك والعبث<sup>(١)</sup> وفطن المسعودي إلى ذلك فقال :  
 « ولم يصنف الجاحظ هذا الكتاب - وهو كتاب الاحتجاج للراوندية -  
 ولا استقصى فيه الحجاج للراوندية - وهم شيعة ولد العباس - لأنه لم يكن  
 مذهبه ، ولا كان يعتقده ، لكن فعل ذلك تماجنا وتطربا<sup>(٢)</sup> » ، ويقول أيضا :  
 « وقد صنف أيضا كتابا استقصى فيه الحجاج عند نفسه ، وأيده بالبراهين ،  
 وعضده بالأدلة فيما تصور من عقله ، ترجمه بكتاب العثمانية يحل فيه عند نفسه  
 فضائل علي<sup>(٣)</sup> ومناقبه ، ويحتج فيه لغيره طلبا لإماتة الحق ومضادة أهله ... ثم  
 لم يرض بهذا الكتاب المترجم بكتاب العثمانية حتى أحرقه بتصنيف آخر في  
 إمامة مروانية وأقوال شيعتهم<sup>(٤)</sup> » .

وهكذا نرى الجاحظ لا يأبه بما يدور حوله من تطاحن الناس فيعبث  
 بهم ، منجازا أو متظاهرا بأنه ينحاز إلى تلك الطائفة مرة ، ثم إلى ضدها  
 مرة أخرى ، وإذا عرفنا هذا ، عرفنا السبب في تأليفه المكتاب وعكسه ،  
 كما نراه يؤاف كتابا في ذم أخلاق الكتاب وآخر في مدحهم ؛ ولعل الذي  
 ساعده على ذلك حبه أو غرامه بالجدل والحجاج الذي اكتسبه من طول  
 دراسته لعلم الكلام ، وكذلك لطبيعته التي تميل إلى شيء قليل أو كثير من  
 التحلل من القيود والاستمتاع بملاذ الحياة وأطايبها ؛ ولم يكن يتورع - زيادة  
 في الواقعية - أن يذكر ألفاظ العورات والفعل الجنسي أو العملية الجنسية  
 كقوله : أربعة أشياء مسرخة : أكل الرز البارد : . . . في الماء ، والقبل  
 على النقاب ، والغناء من وراء الستار<sup>(٥)</sup> ولعل كثيرا من أعدائه قد شكوا

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٨٧

(٢) مروج الذهب ١٦٨/٢ (٣) المرجع السابق ١٢٠/٣

(٤) أدب الجاحظ للسندوني ص ١٧٥ وانظر رسالته مفخرة الجوارى والغلمان

في أكثر من موضع .

(٥) م ٢١ - السخرية )

في عقيدته لمثل هذه العبارات ولعدم تأدية الفرائض ومنها الصلاة ، ولما أخذوه عليه من صفة «الوضع» في الحديث وقد اعترف أبو العيناء بأنه وضع هو والجاحظ حديث ذلك<sup>(١)</sup> .

والحق أن طبيعة ميله إلى «الوضع» التي سرت في دمه وروحه ليست لها غاية دينية وضيعة - كالشعوبية وغيرهم - بل هي طبيعته الأدبية التي يساعد عليها ويخلقها جوج الخيال وحب الفن الذي يجعله لا يأبه ، ذلك بالحقائق - كما يراها الناس - أحيانا<sup>(٢)</sup> . قال الدكتور طه الحاجري : « والجاحظ لم يكن يتخرج - لغاية في نفسه - من أن يكتب الكتاب ، ثم ينسبه إلى غيره ، وما كانت هذه الغاية إلا نوعا من العبث بخصوصه ، أو الرغبة في إذاعة ما يكتبه وترويجه ، ومثل هذا لا يبلغ مبلغ ذلك الحافظ الفنى الذى يحفزه إلى وضع الأحاديث إرضاء لتلك النزعة الغالبة عليه<sup>(٣)</sup> ، وسنتكلم عن وضع الأحاديث وغيرها حين الكلام عن كتاب «البخلاء»<sup>(٤)</sup> .

### سخر الجاحظ :

وقد سخر الجاحظ - أول ما سخر - من أصدقائه ، حتى قال السندوبى : «وهو أول من استباح لنفسه التندر بالأصدقاء والإخوان تارة بالتلبيح وذكر الصفات ، وأخرى بالتصريح وإبانة السمات ، ففقد عليهم أنفاسهم ، وخلد غرائب أطوارهم وعجائب تصرفاتهم ، وشواذ أغراضهم .. وعرض

(١) مقدمة نوادر أبي العيناء الطبعة الأولى ص ١٢

(٢) وجاء عنه في جمع الجواهر للحصرى ص ١٢١ « والجاحظ صنع هذه الأشعار لما وضع هذه الأخبار ، وكان قديرا على الشعر ،

(٣) البخلاء ( طبعة المعارف ) سنة ١٩٥٨ ص ٢٨

(٤) انظر ص ١٦٥ من هذا المبحث .

لأخدمهم بأغلاطهم وفلمات ألسنتهم ومساوىء أعالهم ، وقد يجابه من شاء منهم بالنقد والذع والتجريح غير عابىء بعتبهم ولا معتد بلامتهم<sup>(١)</sup> .

ولأننا نستطيع أن نقسم نقداً الجاحظ وسخرية من ناحية الموضوع إلى تلك الأقسام :

أولاً : نقده الأحاديث الموضوعية ورفضه الخرافات وتفسير بعض آى القرآن بها ، وذلك لأنه عالم معزلى مدق لا يستمع إلا لصوت العقل وحده .

ثانياً : انتقاده العيوب الشائعة فى عصره وعلى رأسها التطفيل والبخل واللصوصية .

ثالثاً : انتقاده بعض الطوائف كالقضاة والمعلمين .

\* \* \*

### أولاً - التفسير والخرافات :

ولتحكيمة العقل ، فقد خرج عما يعتقد الجمهور فى تفسير بعض الآيات كمنقده تفسير رؤوس الشياطين بثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها منظر كريحه<sup>(٢)</sup> أو تفسير « وطلع منضود ، أن الطلح هو الموز<sup>(٣)</sup> . وتعرض الجاحظ لبعض المفسرين الذين قد يتصورون تصورات غريبة ، فقال : « وزعم بعض المفسرين أن السمور خلق من عطاسة الأسد ، وأن الخنزير خلق من سلحة القيل ، لأن أصحاب التفسير يزعمون أن أهل سفينة نوح لما تأذوا بكثرة الفأر ، وشكوا إلى نوح ذلك ، سأل ربه الفرج ، فأمره أن يأمر الأسد فيعطس ، فلما عطس خرج من منخره زوج سنابير من ذكر

(١) أدب الجاحظ. للسندون ص ٢٠٠ . (٢) الحيوان ٦/٦٤ .

(٣) الحيوان ١/١٦٨ .

وأثني ، خرج الذكر من المنخر الأيمن ، والأثني من المنخر الأيسر ؛ فكيف قام مؤونة الجرذان ؛ ولما تأذوا برائحة نتجوها شكوا ذلك إلى نوح ، وشكا ذلك إلى ربه ، فأمره أن يأمر الفيل فيسلمح ، فسلمح زوج خنازير ؛ فكيف قام مؤونة الخنزير ، وهذا الحديث نافي عند العوام وعند بعض القصاص (١) .

ويظهر تهكم الجاحظ ببعض المفسرين من مجرد ذكره لتفسيرهم ، ومن هذا النوع قوله على لسان كيسان تعليقا على قول المفسرين السابق : « فينبغي أن يكون ذلك السنور آدم السناءير ؛ وتلك السنورة حواءها » (٢) .

قال شفيق جبري : « للجاحظ أسلوب في التهكم على بعض أهل التفسير والتأويل بسيط جدا ، وقد بلغ من بساطته أنه لا يكاد يظهر عليه أثر الاستهزاء والسخرية ؛ فهو بدس هذا التهكم دسا دون أن يظهر على بيانه ، فبدلا من أن يتعرض لهذه الطائفة من العلماء تعرضا ، ويجادلهم جدالا ، يكتفي في أكثر الأوقات بالدلالة على آرائهم والإشارة إلى مذاهبهم ولكن هذه الإشارة مهما تكن خفية ، ومهما تكن رمزا ، لا تخلو من روح التهكم ، فبينما الجاحظ مثلا يمدح قوله في باب من أبواب العلم ، ككباب ما يعترى الإنسان بعد الخصاص وكيف كان قبل الخصاص ، وبينما يفيض في هذا الباب في أمور علمية ، إذ يعرض له رأى من الآراء التي لا يؤيدها العلم ، فيكتفي بالتنبيه عليه ( كقصة خلق السنور لتأذى أصحاب نوح بالغار ) ثم يردف هذا القول كلامه على لسان كيسان ( الذي ذكرته آنفا (٣) ) أن مجرد ذكره لأشياء هذه الآراء في أثناء بحثه عن أمور مبدئية على العلم والعقل كاف للدلالة على سخريته بأصحابها ، فكأنه يغمز بعينيه غمزا ؛ فهو لا يتولى الطعن على هذه الآراء والمذاهب ، وإنما يكفى نفسه مؤونة هذا الطعن بتركه

(١) الحيوان ١٠٦/٥ وانظر ١٤/٦ ، ١٥٣/٥ ، ١٦٢/٦ .

(٢) المرجع السابق ٦٧/١ .

(٣) الجاحظ لشفيق جبري ص ٢٠٤ ، ص ٢٠٥ .

للقارىء حق الحكم على مثل هذه الآراء ؛ وهذا الأسلوب على نزاهته الظاهرة لا يخلو من مهارة وحذق . فإن الجاحظ لا يتبرلى فيه التشنيع والتهجين ، وإنما يجزى القارىء جراً إلى هذا التشنيع وإلى هذا التهجين (١) .

ثانياً : العيوب العامة :

## ١ - كتاب البخلاء

موضوع الكتاب :

حاولت أن أجيب عن هذا السؤال قبل قراءة الكتاب وبعده : إلى أى حد تتفق الأخبار التى أوردها الجاحظ عن البخلاء مع الواقع ؟

إنه يروى تلك الأخبار فى كثير من الأحيان عن بعض من عاصرهم كشاهد عيان أو بطريق رجال آخرين : كما قال فى أحد المواضع : « وكنت أنا وأبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام ، وقطرب النحرى ، وأبو الفتح مؤدب منصور بن زياد على خوان فلان بن فلان ... الخ » ، ويضرب مثلاً للفرع الآخر من الرواية : « وحدثنى صاحب لى قال ... » ، وفى موضع آخر من الصفحة نفسها : « وحدثنى عما حب مسلحة باب الكرخ قال ... » ، وفى بعض الأحيان لا يسمى من يحدثه كالمثاليين السابقين ، وفى كثير من الأحيان يسمى من ينقل إليه الخبر كقوله : « حدثنى أبو الجهماء النوشرائى قال ... » (٢) ، وهناك كثير من هذه الأسماء حاول محققو البخلاء وآخرهم الدكتور الجاثرى معرفة أشخاصها فلم يوفقوا : إما لعدم اهتمام المعاصرين لهم بالكتابة عنهم ، وإما لأنهم أشخاص وهميون

(١) انظر الحيوان ٩٩/٤ . (٢) البخلاء (دار المعارف) ص ٥٤

(٣) المراجع السابق ص ٤٤ . (٤) المراجع السابق ص ٤٥

اختلفهم الجاحظ. اختلافا كما شك في ذلك الدكتور الحاجرى بصدد شخصية  
د أبى الفاتك ، ود الثورى ، وغيرهما<sup>(١)</sup>.

ومهما يكن الأمر في مدى صدق الجاحظ. في تلك القصص والأخبار  
التي ينسبها إلى المعاصرين له والسابقين عليه سواء رآها حقا أو سمعها ممن كان  
يجلس إليهم أو نقلها مما قرأ ، مهما يكن الأمر في ذلك ، فإن هذه الأخبار  
أو القصص قد كتبت - ولا شك - بأسلوب الجاحظ ، وحتى ما يمكن أن  
يكون قد رواه عن أهل عصره بلسانهم حقيقة - فلا شك أنه قد بدل فيه  
التبديل الذى يخضعه لأسلوبه أو الذى يجعله طيعا لقلبه ، فيصهره ثم يلونه  
كما يشئى : والدليل على ذلك أمران :

أحدهما عدم الاختلاف بين أسلوبه فيما قاله بلسانه ورواه فى البخلاء  
وغيره من الكتب التى صنفها ، وعما رواه ونسبه إلى أحد معاصريه ،  
كعجل بن هارون فى رسالته وكابن التوءم فى رده وفى تحامله على البخلاء .

ثانيهما : عندما عرضت للأحاديث النبوية التى استشهد بها الجاحظ -  
وهى كثيرة تربو على المائة - وجدته لا يرويهما بلفظها غالبا - وأعنى بها كما  
هوت فى كتب الأحاديث الصحيحة - بل يخضعها لقلبه ، ومن كان هذا شأنه  
فى أحاديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - فأولى به أن يصوغ ما يرويه  
حسب هواه ، أو بعارة أخرى تبعا لروحه واستجابة لغرضه فى التحدث  
هن البخلاء والرواية عنهم .

وللتدليل على ما قلناه عن أسلوبه - الذى يكاد يذساب فى كتاب البخلاء  
من أوله إلى آخره - أنه يمتاز بصدمة ميزات لا يكاد يخلو منها موضع  
فى الكتاب : وأظهر هذه الميزات التى لا تخفى على فطنة القارئ العادى

ولوعه بتشقيق الكلام أو الخروج من جملة إلى جملة منشفة عنها وتنبعها هكذا  
الجل التوالى لها : فهو في كتاب الحيوان ، يحاول أن يعدد مساوىء الفأرة ،  
فبدلاً من ذكرها في جملة أو اثنتين أو عدة جمل ، فإنه يستفيض في ذلك  
لسعة خياله ومحاولة الإحاطة أو الشمول بذاكرته الغزيرة للموضوع وبذلك  
تتدفق المعاني عليه في إطناب غريب فيقول في معرض التهمك بزرادشت  
وفي اعتقاد المجوس بمساوىء الفأر :

« ويزعم زرادشت - وهو مذهب المجوس - أن الفأرة من  
خلق الله ، وأن السنور من خلق الشيطان - وهو إبليس - وهو أهرمن ،  
فاذا قيل له : كيف تقول ذلك ، والفأرة مفسدة ، تجذب فتيلة المصباح ،  
فتحرق (١) بذلك البيت ، والقبائل الكثيرة ، والمدن العظام ، والأرباض  
الواسعة بما فيها من الناس والحيوان والأموال ، وتقرض دقاتر العلم ،  
وكتب الله ، ودقائق الحساب والصكك والشروط ، وتقرض الثياب ، وربما  
طلبت القطن لتأكل بذره ، فتدع اللحاف غربالاً ، وتقرض الجرب ،  
وأوكية الاسقية ، والأزقاق ، والقرب ، فتخرج جميع ما فيها ، وتقع في  
الآنية وفي البئر ، وتموت فيه ، وتحوج الناس إلى مؤن عظام ، وربما عضت  
رجل النائم ، وربما قتلت الإنسان بعضها ، والفأر بخراسان ربما قطعت  
أذن الرجل ، وجرذان أنطاكية تعجن عنها السفاير ، وقد جلا عنها قوم ،  
وكرها آخرون لمكان جرذاتها ، وهى التى فجرت المسناة ، حتى كان ذلك  
سبب الحسر بأرض سبأ ، وهى المضروب بها المثل ، وسيل العرم بما تورخ  
بزمانه العرب ، والعرم المسناة ، وإنما كان جرذاً ، وتقتل النخل والفسيل ،  
وتخرب الضيعة ، وتأتى على أزيمة الركاب والخطم ، وغير ذلك من  
الأموال . . . الخ (٢) »

(١) هنا يبدأ فى تشقيق الكلام أو فى تعديد النتائج المختلفة المترتبة  
على الحريق .  
(٢) الحيوان ٤/ ٩٩



ونجده من هذا الضرب الذى ذكرنا من كتاب الحيوان ، مثله حينما يتحدث عن الضحك وفوائده فى أول البخلاء :

« وإذا كان البكاء - وما دام صاحبه فيه فإنه فى بلاء ، وربما أعمى البصر ، وأفسد الدماغ ، ودل على السخف ، وقضى على صاحبه بالهلع ، وشبه بالآمة اللكماء ، وبالحدث الضرع كذلك . فما ظنك بالضحك الذى لا يزال صاحبه فى غاية السرور إلى أن ينقطع عنه سببه ، ولو كان الضحك قبيحا من الضاحك وقبيحا من المضحك ، لما قيل للزهرة والحبرة والحلى والقصر المبني : كانه يضحك ضحكا . وقد قال الله جل ذكره : « وأنه هو أضحك وأبكى وأنه هو أمانت وأحيى » فوضع الضحك بحذاء الحياة ، ووضع البكاء بحذاء الموت ، وإله لا يضيف الله إلى نفسه القبيح ، ولا يمن على خلقه بالنقص . وكيف لا يكون موقعه من سرور النفس عظيما ، ومن مصلحة الطباع كبيرا ، وهو شئ فى أصل الطباع وفى أساس التركيب ، لأن الضحك أول خير يظهر من الصبى وبه تطيب نفسه وعليه ينبت شجعه ، ويكثر دمه الذى هو علة سروره ومادة قوته ، (١) .

وهكذا نرى أسلوب الجاحظ - على ألسنة البخلاء - يكثر فيه من الاحتجاج المنطقي ، ومن العناية بكثرة إيراد الشواهد عن المتأخرين من حكماء وشعراء أو الأحاديث النبوية الشريفة من غير عناية كبيرة بتحقيقها وتخبر القوى منها والابتعاد عن المشكوك فيه أو المضعف أو الثابت أنه موضوع عقلا أو بمجرد النظر إليه نظرا بسيما (٢) . وكذلك يلاحظ على أسلوبه الذى يستخدم فى الحكاية عن البخلاء أو النطق به على ألسنتهم نلاحظ عليه العناية بأسلوبه الأدبى الرفيع ، حتى ما يحكيه عن أناس لا يقطن أنهم

(١) البخلاء ( طبعة دار المعارف ) ص ٦

(٢) المرجع السابق

في كلامهم ونوادهم الفصحية التي تقال بديهة يعنون بهذا النوع من الترف  
اللفظي والتأليف القوي بين الجمل أو الاستطراد في إيراد المعلومات المختلفة  
من تاريخيه وجغرافية وطبيعية (فيزيكية) وحيوانية وفلسفية وغيرها مما يدل  
دلالة واضحة على عقل الجاحظ الذي ألفها : ذلك العقل الفلسفي الممتاز الذي  
استوعب جل ما كان في عصره من معلومات وعلوم .

\* \* \*

وبعد ذلك نحاول أن نسأل أنفسنا : ما السبب في تأليف كتاب البخل ؟  
يحاول الجاحظ أن يجيب عن هذا السؤال في أكثر من موضع في ثنايا  
الكتاب : فهو يبدأ كتابه ببيان السبب : وهو أن أحد الناس طلب منه  
تأليف ذلك الكتاب بعد أن أفاد من كتابه السابق « حيل الصوص النهار »  
وحيل سراق الليل ، فحاول أن يذكر نوازل البخل ، واحتجاج الأشحاء ،  
وما يجوز من ذلك في باب الهزل ، وما يجوز منه في باب الجد ، لأجل الهزل  
مستراحا ، والراحة جماما ،<sup>(١)</sup> ، وأغلب الظن أن هذا السبب قد اختلعه  
الجاحظ اختلاقا ليصدر به الكتاب ، لأن البخل ليسوا إلى هذا الحد من  
الحفاء عن أعين الناس أو ضمايرهم أو بهائهم حتى يحاول الجاحظ أن يكشفهم  
للناس فيتنجبوهم ويتقوا شرهم ، كذلك فليس البخل شيئا مما يتعلم أو يمكن  
تجنبه أو اتباعه والتطبع به : إذ أنه غالبا ما يكون طبيعة في بعض النفوس التي  
تكون ذات استعداد فطري خاص للتطبع به ، وينتج عن عوامل وراثية  
بيئية تتصل بالمجتمع الصغير وهو الأسرة والمجتمع الكبير الذي يضم آلاف  
الأسر في الوطن الواحد الذي تتحكم فيه تيارات اقتصادية خاصة : وهكذا  
نرى أنه ليس من الصعب أن يدرك الإنسان بقلبه السليم وبفطرته أن هذه

المقدمة لا يقصد بها شخص معين يقدم له الكتاب بها ، وإلا فليس من المتعذر ذكر اسمه ، بل هي محاولة لإخفاء "غرض من تأليفه إخفاء ما وفي شيء من القاجن ، لئلا يلام الجاحظ. اللوم الكبير على محاولة السخرية من البخلاء وكشفهم للعيان ، وقد أوما إلى شيء من ذلك في موضع من الكتاب بقوله : «ولسنا من تسمية الأصحاب المتهتكين ولا غيرهم من المستورين في شيء ، أما الصاحب فإننا لانسميه لحرمته وواجب حقه ، والآخر لانسميه لستر الله عليه ، ولما يجب لمن كان في مثل حاله ، وإنما نسمى من خرج من هاتين الحالين ، وربما سمي الصاحب إذا كان عن يمازح بهذا كثيرا ، ورأيتاه يتظرف به ، ويجعل ذلك الظرف سلما إلى منع شينه» (١) .

وبالإضافة إلى ما سبق ، فنرى الجاحظ قد أوما إلى أحد أسباب تأليف هذا الكتاب وهو الهزل الذي أفاض في الكلام عليه في مقدمة الكتاب ، وهو ما يعبر عنه - كما يفهم من كلامه تليفاً - التعبير العلمي أو العصري بالسخرية من هؤلاء ، لكي يضحك منهم المجتمع من جهة ، ولكي يحذر من تحدته نفسه بالانتماء بهم ، والسير على منهاجهم من جهة أخرى .

وأغلب الظن أن السبب الرئيسي في تأليف هذا الكتاب سبب شخصي : إذ أن الجاحظ يروي كثيراً من نوادر كتابه على أنها قد حدثت أمام سمعه وبصره وقد صدرت عن أصحابها الذين حينما كان يحضر مجالسهم كما حدث بينه وبين محفوظ النقاش حينما يختم ملاحظته على بخله بقوله «فما ضحكك قط كضحكتي تلك الليلة» (٢) . وكذلك ما يحكي عن أبي الهذيل (٣)

(١) البخلاء ص ٥٧ .

(٢) البخلاء ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٣) البخلاء ١٣٥ ، ١٣٦ .

ولذلك قال في أحده واضع الكتاب : هذه ملتقطات أحاديث أصحابنا وأحاديثنا ، وما رأينا بعيوننا ،<sup>(١)</sup> وما يدل على ضيقه بالبخلاء وعلى أنه كان يعاني منهم ما يحكيه قوله : « وهذا وشبهه إنما يطيب جدا إذا رأيت الحكاية بعينك ، لأن الكتاب لا يصور لك كل شيء »<sup>(٢)</sup> .

وفي أحيان أخرى يضرب هذه النواذر إلى بعض الأشخاص المجهولين ، ويذكرهم أنهم رأوا مارأوا ، وقصروا عليه ذلك كقوله : « ومن أعاجيب أهل مرو ما سمعناه من مشيختنا على وجه الدهر » ، « حدثتني امرأة تعرف الأمور » ، وبمحاولة البحث عن هؤلاء الأشخاص كأحمد بن خلف ، والباساني لا نجد لهم ذكرافيما بين أيدينا من مراجع : فإما أنهم أشخاص غير حقيقيين اخترعهم اختراعا كطريقته في وضع الشعر والأخبار والأحاديث ، وإما أن أكثرهم وهميون وبعضهم حقيقيون أهملهم التاريخ ولم يعن بذكرهم .

ويمكن أن نقول في شيء من الاطمئنان إن السبب المباشر لتأليفه هذا الكتاب هو سخريته من هؤلاء البخلاء الذين حضر مواعدهم أو رأى أحوالهم المضحكة فأراد الانتقام منهم لفراط حساسيته من جهة ، ولروح الفكاهة Sesne of Humour من جهة أخرى ، فألف هذا الكتاب لأن الأديب الحق لا بد وأن يكون قوى الحساسية ، وإذا أحسن فلا بد له أن يعبر ، وإذا عبر فلا غضاضة من أن يطلق لخياله العنان ، وأن يترك طبيعته على سجيته ، حتى تنتج له ما يخفف عنه ما يحس به ، وما يرضى به تلك الطبيعة الفنية الخلاقة التي يسخر بها من البخل والبخلاء بعامه ، ومن بعض البخلاء بخاصة دون التعرض لذكر الأسماء كقوله : « وقد كتبنا لك أحاديث كثيرة مضافة إلى أربابها ، وأحاديث كثيرة غير مضافة إلى أربابها ، إما بالخوف منهم ، وإما بالإكرام لهم »<sup>(٣)</sup> .

(١) البخلاء ص ١٤٨

(٢) المرجع السابق ص ٥٨

(٣) المرجع السابق ص ٨

أما طريقته في ذلك فهي متعددة الجوانب :

فهو آنا يتحدث عن أهل بلد بعينه اشتهروا بالبخل كأهل مرو (المرأوزة) والمسجدين من أهل البصرة .

وآنا آخر يتحدث عن بعض البخلاء المشهورين بذلك كزبيدة بن حميد وأحمد بن خلف وسهل بن هارون .

وآنا ثالثا لا يذكر أسماء ، بل يسوق مجرد نواذر أو تشبيهات ( كما يسمى الآن ) لا يضيفها إلى أحد ، بل حسبه أنها حول البخل والبخلاء .  
وأكثر بخلاء الجاحظ. من أهل عصره ، ونادرا ما يذكر بخلاء سابقين ، كذلك الذي روى عن ابن المقفع ، وبعض الخلفاء الأمويين كعاوية وهشام ابني عبد الملك .

وأكثر بخلائه ومعظمهم يبخلون بطعامهم ، وهذه هي الناحية الغالبة على البخلاء في جل مواضع الكتاب .

وفي بعض الأحيان لا يخصص الفصل من كتاب لبخل واحد بل يستطرد بذكر نواذر لبخل آخر ، كما قال بعد أن أورد عن ثمامة نادرة في نهاية الحديث عن المرأوزة ، وليس هذا الحديث من حديث المرأوزة ولكننا ضممناه إلى ما يشاكله <sup>(١)</sup> ، ، وليس هذا الحديث لأهل مرو ، ولكنه من شكل الحديث الأول <sup>(٢)</sup> .

وفي بعض الأحيان يوجز في إيراد النادرة : كتلك التشبيعة التي يرويها عن المرأوزة ويفتح بها الحديث عنهم <sup>(٣)</sup> . وفي بعض الأحيان يطيل حتى تستغرق القصة الصحيفتين .

---

(١) البخلاء ص ٣٨ .

(٢، ٣، ٤) المرجع السابق ص ١٧

والجاحظ. يحاول في هذا الكتاب أن يظهر بعض أخلاق البخلاء ومن أظهرها : الجبن والرضى بالذل<sup>(١)</sup> .

وأخيرا فن أطرف ما جاء في هذا الكتاب أربع رسائل وضعها الجاحظ. وضعا : إما أسلوبا فحسب ، وإما أسلوبا وأفكارا وموضوعا .

\* \* \*

### كيفية السخرية في كتاب البخلاء :

وقد ظهرت للسخرية في كتاب البخلاء جليلة واضحة ، ولو أنه حاول أن يخفيها إخفاء ، فتظاهر بأنه إنما يروى نوادر ووقائع حدثت وأن دوره في الكتاب هو دور المصنف أو جامع النوادر ، وأن ليس له من هدف إلا مجرد تسلية القارىء ببعض ما يضحك : وقد ظهر عبث الجاحظ بالبخلاء وأنه كان يقصد قصدا إلى الاستهزاء بهم وجرحهم إلى أن يتكلموا لكي يضحك منهم ملء فمه في عدة مواضع من الكتاب فعبث مرة بالحزamy وأخذ يثيره بقوله ساخرأ : أعلمت أن خبز البلدى ينبت عليه شيء شبيه بالطين والتراب والغبار المتراكم ؟ قال : حبذا ذلك من خبز أوليته قد أشبه الأرض بأكثر من هذا المقدار<sup>(٢)</sup> وسخر منه مرة ثانية قائلا :

استسلف منه على الأسرارى مائة درهم ، فجاءنى وهو حزين منكسر . فقلت له : إنما يحزن من لا يجد من أسلاف الصديق ، نخافة ألا يرجع إليه ماله ولا يعد ذلك هبة له . أو رجل يخاف الشكية ، فهو إن لم يسلف كرما ، أسلف خوفا ، .. إلخ .

قال : اللهم غفرا ! ليس ذاك بى . إنما بى أنى قد كنت أظن أن أطماع الناس

(١) ص ٦١ ، ١٤٧ من البخلاء .

(٢) البخلاء ص ٦٠ .

فقد صارت بممزل عني وآيسة مني ... إلخ ( وهكذا أخذ يصوغ العبارات على لسانه تدل على فرط بخله <sup>(١)</sup> ) .

وقال لمحمد بن أبي المؤمل : أراك تطعم الطعام وتتخذة ، وتنفق عليه المال وتجوده . وليس بين قلة الخبز وكثرته كثير ربح . والناس يبخلون من قل عدد خبزهم ، ورأوا أرض خوانه ، وعلى أنى أرى جماجم من يأكل معك أكثر من عدد خبزك ... إلخ .

فرد عليه قائلا :

قال : يا أبا عثمان ، أنت تخطيء ، وخطأ العاقل أبداً يكون عظيماً ، وإن كان في العذر قليلاً ... إلخ <sup>(٢)</sup> .

وللجاحظ طرق في السخرية بالبخلاء بأساوبه على لسانهم :

١ - التصوير المضحك :

فقال على لسان الحارثي يدافع عن كرده دعوة الناس لتناول الطعام على مائدته :

« هذا على الأسواري ، أكل مع عيسى بن سليمان بن على ، فوضعت قدامهم سمكة عجيبة ، فأنق السمن ، فخلط بطنها جلاطة ، فإذا هو يكتنز شحما وقد كان غص بلقمة - وهو المستسقي - ففرغ من الشراب ، وقد غرف - بطنها كل إنسان منهم بلقمته غرفة . وكان عيسى ينتخب الأكلة ، ويختار منهم كل منهم فيه ولمفتون به . فلما خاف على الأسواري الإخفاق ، وأشفق من الفوت وكان أقربهم إليه عيسى - استلب من يده اللقمة بأسرع من خطفة البازي وانكسدار العقاب ، من غير أن يكون أكل عنده قبل مرته . فقيل له : ويحك ! استلبت لقمة الأمير من يده ، وقد رفعها إليه ، وشجا لها

فاه ، من غير مؤانسة ولا بمأزحة سائلة . قال : لم يكن الأمر كذلك ، وكذب من قال ذلك . ولكننا أهوينا أيدينا معاً ، فوقعت يدي في مقدم الشحمة ، ووقعت يده في مؤخر الشحمة معاً ، والشحم ملتبس بالأمعاء ، فلما رفعنا أيدينا معاً ، كنت أنا أسرع حركة ، وكانت الأمعاء متصلة غير متباينة ، فتحول كل شيء في لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتي ، لاتصال الجنس بالجنس ، والجوهر بالجوهر ،<sup>(١)</sup> .

فهذا وصف مضحك مليء بالتهكم الخفي من الجاحظ. إزاء هذا البخيل الذي يصوره الجاحظ. نأثراً على هذا الطاعم الجشع الذي أكل مع عيسى ابن سليمان ، ويحاول الجاحظ. أن يصفه - على لسان الحارثي - وصفاً دقيقاً كأنه - أي الحارثي البخيل - كان ينظر طوال تناول الطعام إلى كل لقمة يأكلها على الأسوارى ، وإلى كل حركة يقرم بها ، ومن هنا يمكن التهمك وتنبع السخرية ، كذلك حينما يتحدث بلسانه مستخدماً بعض الألفاظ المضحكة والحركات المثيرة مثل : فخلط بطنها جلطة ، كان عيسى ينتخب الأكلة ، كل منهوم فيه ومفتون به ، استلب من يده اللقمة بأسرع من خطفة البازي ( وهذه الجملة تدل وتوصي إلى شدة بخل القاص من جهة وإلى هزء الجاحظ. من جهة أخرى ) ، وكما هو ساخر مضحك حينما يصف في النهاية كيف استلب اللقمة من يد الأمير ، ولكننا أهوينا أيدينا معاً ، فوقعت يدي في مقدم الشحمة ، ووقعت يده في مؤخر الشحمة معاً ، فلما رفعنا أيدينا معاً كنت أنا أسرع حركة . . . . . فتحول كل شيء كان في لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتي . . . . .

ويصف آكل آخر منهما على لسان أبي فاتك قائلاً - ولا يملك الإنسان نفسه من الإغراب في الضحك من البخيل مرة ، ومن الجاحظ. الساخر واضح هذا الكلام مرة أخرى :



وما ظنكم برجل نهش بضعة لحم تعرقا ، فبلع ضرسه وهو لا يعلم !  
 ( وهذا من تشبيهات الجاحظ ) فعل ذلك عند إبراهيم بن الخطاب مولى سليم  
 وكان إذا أكل ذهب عقله أو جحظت عينه أو سكر وسدد وأنهر ، وتربد  
 وجهه ، وعصب ولم يسمع ، ولم يبصر ، فلما رأيت ما يعتريه ، وما يعترى  
 الطعام منه ، صرت لا أذن له إلا ونحن نأكل التمر والجوز والبقاقل . ولم  
 يفجأني قط وأنا أكل تمرأ إلا استفه سفا ، وحسأه حسوا ، وزدأ به زدوا  
 ولا وجده كنبزا إلا تناول القطعة كجمجمة الثور ، ثم يأخذ بحضنها ، ويقلمها  
 من الأرض ، ثم لا يزال ينهشها طولا وعرضا ورفعا وخفضا ، حتى يأتي  
 عليها جميعا ، ثم لا يقع غضبه إلا على الأنصاف والأثلاث . ولم يفصل ثمرة  
 قط من ثمرة . وكان صاحب جل ، ولم يكن يرضى بالتفاريق . ولا رعى  
 بنواة قط ، ولا نزع قمأ ، ولا نقى عنه قشرا ، ولا قشده مخافة السوس  
 والدود . ثم ما رأيت له إلا وكأنه طالب ثار ، وشحشحان صاحب طائلة .  
 وكأنه عاشق مغنم ، أو جائع مقرور !

وهكذا يصور الجاحظ البخيل - بطريق غير مباشر - تصويرا ساخرًا  
 عن طريق إنطافئه بكل هذه الجمل المضحكة ، معبرة عن مدى غيظه البخيل عن  
 يأكل لديه أو على مائدته ، وهو بهذا يصور شدة حساسية البخيل ، ومن ثم  
 مبالغته في تصور من يأكل عنده تصورا يدفعه دفعا إلى تصويره بهذه الصور  
 المضحكة : إذ هي تضحكنا من هذا النهم ، وتضحكنا من هذا الذي ينصوره  
 قد أوتى كل هذا النهم : ولا يألوا الجاحظ جهدا في رسم الصورة مستخدما  
 كل ما يستطيع من ألوان ومن قوة كامنة في نفسه على السخر .

فن ناحية الألفاظ يستخدم هذه الألفاظ المعبرة الغنيغة التعبير مثل :  
 نهش ، ما يمتري الطعام منه ، استف الترسفا ، ويستخدم المفعول المطلق  
 لتقوية المعنى الذي أراد ، ثم المترادفات : وحسأه حسوا ، وزدأ به زدوا .  
 وهو حينما يصور النهم ، يصل إلى الغاية في ذلك مصورا ليأبه بأنه فقد عقله

حين هم يتناول الطعام ، في حين أن الذي فقد عقله هو هذا البهيم الذي  
لذلك القصة .

ويبان في ذلك مبالغة مضحكة حتى يقول إنه ابتلع ضرسه ! دسكرو وسدر  
وانهر ، ( لاحظ الجناس القوي اللطيف بين الكلمتين سكر وسدر ) وترد  
وجهه ، وعصب ولم نسمع ، ولم يسمع ، ولم يبصر ، وبلغ نهاية القوة حينها  
قال : ما يعتريه وما يعتري الطعام منه !

ثم يستخدم التشبيه الضحك مما يدل على تحسره على طعامه الذي أكل :  
يتناول القطعة كجذعة الثور ! ثم يعاملها كما يعامل الأسد فريسته : ثم يأخذ  
بعضنها ويقطعها من الأرض ... ثم لا يزال ينهشها طويلاً وعرضاً ، ويرفها  
وخفضاً - وهذه مبالغة في إعطاء الصورة وانعيتها - ويتفكك فيقول : وكأنه  
صاحب جمل ولم يكن يرضى بالتفاريق ! وكأنه طالب نار ، وشحنجان  
صاحب طائلة ، وكأنه عاشق مغتلم ، أو جانيح مفرور (١) !

ويقول على لسان الثوري ناسبا إليه هذا المثل المعروف : وكان  
يقول : كوا الباقي بقشوره ؛ فإن الباقي يقول : من أكلني بقشوري فقد  
أكلني ، ومن أكلني بنشوري فأنا الذي أكله ! فما حاجتكم إلى أن  
تصيروا طعاماً لطعامكم ، وأكلنا جعل أكلنا لكم ؟ (٢) .

ويبلغ الجاحظ نهاية السخرية والإضحاك حينما ينطق البخلاء بجمع على  
فوائد أشياء تافهة ، لا يصدقها العقل كما أنطق الثوري بقوله مخاطباً أولاده :  
لا تلقوا نوى النر والرطب ، وتعودوا ابتلاعه ، وخذوا حلوقكم  
بتسويغته ؛ فإن النوى يعقد الشحم في البطن ، ويدفع الكليتين بذلك الشحم !

فهو هنا يغالط بقوله إن النوى يعقد الشحم في البطن ، وبينى مغالطة على مغالطة بقوله : يدق الكاينين بذلك الشحم !  
ثم يستمر في احتجاجه :

واعتبروا ذلك يبطون الصفايا وجميع ما يختلف النوى ، وهنا يربط بين الإنسان والحيوان في محاورته - لشدة بخله - تشبيه الأول بالثاني في قوة الاحتمال : والله لو حملتم أنفسكم على البذر والنوى ، وعلى قضم الشعير واعتلاف القث ، لو جردتموها سريرة القبول ، وهنا يبدأ الجاحظ في هزله ومجونه على لسان هذا البخيل : وقد يأكل الناس القث قداحاً ، والشعير فريكاً ، ونوى البسر الأخضر ، ونوى العجوة ! فإنما بقيت الآن عليكم عقبة واحدة ( وكأنه وجدتم قد انصاهوا له ووافقوا على ما يقول ) لو رغبت في الدفء لالتصمت الشحم ؛ كيف لا تطلبون شيئاً يغنيكم عن دخان الوقود ؟ ، وهنا يبدأ في ذكر مبالغته وبناءه مغالطة على مغالطة - وعن شناعة السكر ، وعن ثقل الغرم ، والشحم يفرج القلب ، ويبيض الوجه ، والنار تسود الوجه<sup>(١)</sup> .

ويحاول الجاحظ أن يتمم لكم بتام بن جعفر ووضع في صورة مضحكة حينما يحاول أن ينسب ألم غريمه الذي يأكل طعامه إلى جشعه فحينما يشكو وجع ضرسه ، يرد عليه رداً مضحكاً مغيظاً قائلاً :

عجبت كيف اشتكيت واحداً ، وكيف لم تشتك الجميع ؟ وكيف بقيت إلى اليوم في فيك حاكه ؟ وأي ضرر يقوى على الضرر والطنن ؟ والله إن الأرحاء السورية لتكحل ، وإن المنحاز الغليظ لبتعبه الدق ، ولقد استبطأت لك هذه العلة . أرفق ، فإن الرفق يمن ، ولا تحرق بنفسك فإن الحرق شؤم !

وهكذا يطلب الجاحظ على لسان هذا البخيل في مخاطبة هذا النهم الذي يشكو ضرره ، إطناباً لا يجعل مجالاً للشك في أن هذه الجمل وهذه المترادفات

هى من أسلوب الجاحظ ومن كلامه ، أطال فيها إطالة وأظن فيها إطناباً  
لكى يستجلب الضحك ، فيصل إلى غرضه من السخرية والتهكم ١

ويستمر الجاحظ في تمككه هكذا في قصة تمام بن جعفر حين يعدد أنواع  
الشكاوى التى يشكو بها صاحبه أو نديمه ، أو أنواع المزايا التى يتمتع بها  
كفوته على المشى قائلا : ما فى الأرض أحد أمشى منى ، ولا على ظهرها أقوى  
على الحضر منى (٢) .

قال : وما بمنك من ذلك ، وأنت تأكل أكل عشرة ؟ وهل يحمل الرجل  
إلا البطن ؟ لا حمد الله من يحمك ! فإن قال - بالعكس - لا والله لا أقدر أن  
أمشى ، لأنى أضعف الخلق عنه ، لئى لأنهر من مشى ثلاثين خطوة ! قال :  
وكيف تمشى ، وقد جعلت فى بطنك ما يحمله عشرون حمالا ؟ وهل ينطلق  
الناس إلا مع خفة الأكل ؟ وأى بطن يقدر على الحركة ؟ وإن كان عظيماً  
يحبز من الركوع والسجود ، فكيف بالمشى الكثير ؟

ومكذا يستمر الجاحظ فى الكلام على لسان تمام بن جعفر البخیل مبتكراً صاحبه  
بطريقة مضحكة ساخرة تهملنا لأننا أنفسنا من الضحك من هذا البخیل بهذا  
النشئ الذى يظهر فى عباراته ، تلك التى يستخدم فيها كثرة المترادفات وإن هذا  
الأسلوب ليزكرنا بطريقة ابن المقفع فى سخريته من الملك على لسان الوزير  
فى قصة إبلاد وإيراخت وشادرم التى تكلمت عليها سابقاً (٣) .



٢ - ومن طريقة سخرية الجاحظ أيضاً بالبخلاء : الكلام على لسانهم  
بمغالطات فى الاحتجاج لبخلهم أو التعليل له بهمل مضحكة كما قال بشار :  
وللبخیل على أمواله عطل . . . ذرق العيون عليها أوجه سود .

(١) لاحظ استخدام الجملة الثمانية فى هذه العبارة التى تدل على أن هذا  
الأسلوب ذا المترادفات التى يقنى بعضها عن بعض هو أسلوب الجاحظ .  
(٢) انظر صفحتى ١١٦ ، ١١٧ من البخلاء .

أو المغالطات الجدلية ، أو المبالغة في الاحتجاج ، أو الإطالة فيه ، أو تشويق الكلام ، أو ذكر الانماط الخاصة بالمصطلحات الفلسفية في كلامهم ، أو الخروج من شرط إلى شرط آخر مبنى على سابقه .



فن تعليقه لعدم ارتياحه لقبول زقاق دبس أهدى إليه قوله : أول ذلك كراء الحال . ثم هو على خطر حتى يصير إلى المنزل . فإذا صار إلى المنزل ، صار سبباً لطلب الهدية والأرزاء والمستندود . فإن بعته فراراً من هذا ، صير تموي شهرة ، وتركتموني عنده آية . وإن أنا حبسته ، ذهب في المصائد وأشياء المصائد ، وجذب ذلك شراء السمن ( لاحظ ما توحى به لفظة جذب من خفة وتهكم ) ، ثم جذب السمن غيره ، وصار هذا الدبس أضرب علينا من العيال . وهكذا يستمر الجاحظ في إيراد العلل المختلفة التي يعتل بها ذلك البخيل في كراهيته لقبول الدبس هدية ، فيدعي فعلاً على فعل ، ويخرج من شرط إلى شرط ، ويذكر متاعبه وتوزعه بين أنواع الملوك المختلفة التي لا يقل أحدها عن الآخر تحميراً له .

ثم يذكر فقرة أخرى مكونة من عشرة أسطر حول قلقه من جعل هذا الدبس نبذاً :

وإن أنا جعلته نبذاً ، احتجت إلى كراء القدور ، وإلى شراء الحب ، وإلى شراء الماء ، وإلى كراء من يوقد تحتها ، وإلى التفرغ له .

فإن ولبت ذلك الخادم اسود ثوبها ، وغرنا ثمن الأثمان والصابون ، وازدادت في الطعم على قدر الزيادة في العمل ( وهكذا يهيم استخدام الخادم في صنع التنفيذ وما ينتج عن ذلك من نتائج لا يعرفها إلا البخلاء ، ولا يفتن إليها ويولدها إلا أمثال الجاحظ في تهكمه وسعة خياله الساخر )

ثم يذكر في الفقرة الثالثة التي تبلغ سبعة أسطر همه وحزنه وطول تفكيره

إذا جلس في البيت ليشر به ، وما يحتاجه للنيذ ، لا بد له من درجهم لحم (١)  
ومن طسوج نقل وقدر اطر بحان ، ومن أبنار للقد . . . . . الخ .

ثم يبدأ يذكر النديم في خوف وهلع مضحك : وهو بعد هذا شوم  
وخرقة وخروج من العادة الحسنة او الجملة الأخيرة من جمل الجاحظ  
النهمكية - إ فإن كان النديم غير موافق ، فأهل الجبس أحسن حالا مني .  
وإن كان - وأعوذ بالله - موافقا - فقد فتح الله علي إلى بابا من القلف لأنه  
حينئذ يسير في مالي كعبري في مال من هو فوقى وإذا علم الصديق أن عندي  
زائرا ويذبا ، دق الباب دق المدل : فإ حجبناه فنبلاء ، وإن أدخلناه فشقاء .  
وهكذا يختم تلك الفقرة بهذه الجملة للنهمكية الرائعة التي لا تخلو من  
سجع لطيف .

ثم يبدأ الفقرة الرابعة من احتجاجة متضمنة ما سبق من خصائص نهمكم  
الجاحظ . باللفظة المفردة أنا وبالجملة أنا آخر ، كقوله : « وإن بدا لي في  
استحسان حديث الناس ، كما يستحسنه مني من أكون عنده ، فقد شاركت  
المسرفين ، وفارقت إخواني من المصلحين ، وصرت من إخوان الشياطين .  
ونلاحظ هذه الجملة الأخيرة المقتبسة من الآية ، يستعملها في خفة وبراعة  
مقابلة للجملة السابقة لهم » ثم يبدأ في استنتاج المغالطة تلك التي تبقى دائما على  
ما في أدمغة البخلاء الموهومين من وهم ومن تصور مبالغ فيه لضرر الإسرف :  
« فإذا صرت كذلك ، فقد ذهب كسبي من مال غيري ، وصار غيري  
يكسب مني » .

ثم أخيرا يختم احتجاجة بهذه العبارة المضحكة التي تجمع نفسية البخيل  
الخائفة الوجهة في تلك الكلمات :

(١) لاحظ استعمال الجاحظ بالصغر درهم وما يدل ذلك على نهمكم خفي .

هذا الدوشاب دسيس من الحرقه ، وكيد من الشيطان وخدعة من الحسود  
وهو الخلاوة التي تعقب المرارة ، ما أخوفنى أن يكون أبو سليمان قد مل منادمتى  
فهو يحتمل لى الحبل ١ ، ، (١)

ومثل ما سبق ما قاله الجاحظ. على اسان أبى سعيد المدائنى فى تعليقه عدم  
غسله الشرب وتركه قدرا :

ويبدأ بذكر أضرار الغسل ، وأول ذلك الغرم الذى يكون فى الماء  
والصابون ، والجارية إذا ازدادت غناء ، ازدادت أكلا . ثم ينتهى بعد  
أثنى عشر سطرا إلى هذه العبارة المضحكة ، تلك التى تضحكننا من عقل البخلاء ،  
ومن لدغ الجاحظ. ونعشه : فيصير ذلك مدعاة إلى دخول الحمام . فإن دخلته  
فغرم ثقيل ، مع المخاطرة بالثياب ، ولى امرأة جميلة شابة إذا رأتنى قد  
اطليت وغسلت رأسى ، ويضمت ثوبى ، عارضتنى بالتطليب وبليس أحسن  
ثيابها ، وتعرضت لى ، وأنا فعل ، وفعل إذا هاج ، لم يرد رأسه شىء ،  
فإذا أردت مرافقتها ، ورأت حرصى ، ثرت على الحوائج نثرا . ثم احتجنا  
إلى تسخين الماء ، وأشد من هذا كله أن تعلق ، فاحتاج إلى ظئر ، فنقع فى  
ملاعاية له ١ ، ، (٢)

ثم يتأهى الجاحظ فى المبالغة فيقول أخيرا : ومع أمور كثيرة ، نسي  
بعضها ، وبعضها أنا ، ،

ولست أدري ، ما الأمور التالية التى يمكن أن يتفتق العقل البصرى عنها  
بعد الذى ذكره فى عشرين سطرا ١ إنها لعمرى إحدى خباثات الجاحظ فى  
التم كـ ١

(١) البخلاء ص ٦٣ ، ٦٤

(٢) البخلاء ص ١٣٩ ، ١٤١ وانظر أيضا ص ٦٨

وهناك أمثلة تشبه ما سبق في احتجاج البخلاء بهذه الطريقة منها تحليل  
أبي سعيد المدائني سبب ذهابه للمطالبة بدينه والإلحاح في ذلك على الرغم مما  
يتعرضه من صعاب في ذلك : (١)

° ° °

وما يستخذه الجاحظ في حجاج البخلاء - أو حجاجه على أنفسهم : كثرة  
الاستشهاد وهي إما الاستشهاد بأقوال من سبق وإما الاستشهاد بأقوال النبي  
صلى الله عليه وسلم ، ولا يراعى في ذلك اختيار الصحيح منها ، بل يستخدم  
كل ما دار على ألسنة العوام والخواص من أقوال النبي أو أفعاله إن صدقوا وإن  
كذبا : كاستشهاده على البخل وعدم التأذي بلبس المرقع من الثياب بأن النبي  
« كان يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويلطع إصبعه ويقول لو أتيت بفدراع  
لا كنت ، ولو دعيت إلى كراع لأجبت » (٢) ومن ناحية التزييع ، فهو ثابت  
لكن النبي (ص) كان يفعل ذلك زهدا لا بخلا !

واستشهاده بقول النبي (ص) وهو موضوع (٣) « إذا طابختم لحما فز يدوا  
في الماء ، فإن لم يصب أحدكم لحما ، أعصاب مرقا » ،  
وذكر هذا المثل دادعى أنه حديث : « من الذود إلى الذود ليل » (٤)  
أو استشهاده بهذا الحديث الموضوع : جمع الشر كله في بيت ، وأغلق عليه ،  
فكان مفتاحه السكر (٥) .

(١) البخلاء ١٣٨ .

(٢) ، (٣) ص ١١ من البخلاء

(٤) أنظر البخلاء ص ٣٠ وتعلق الدكتور الجاجري عليه .

(٥) قال المجلوني في كشف الخفاء ١ / ٢٨٣ ما يلي باختصار « والله صكرى

عن أم أيمن موفرا : إياك والحر ، فإنها مفتاح الشر ، وله أيضا (بصغ الجهرى)

مثل ما سبق ... وشواهد هذا المعنى كثير ... ص ٣٦ من البخلاء



وما جاء به من الأحاديث الموضوعة التي لم يعن بحقق البخلاء بالبحث فيها الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق ، (١) .

وهكذا نرى أن الجاحظ يذكر على السنة بخلافه كثيراً من الأحاديث التي يستشهدون بها وهي تربو على المائة - كما لاحظت - وهو يورد هذه الأحاديث في معرض النهكم بأصحابها ، وعندما يكون قد تخلصه روح السخرية ، وهو لذلك لا يفتى بشيء من تحقيق أو اختيار بل يهمله إيرادها ، كأنه يبايراد مثل هذه الأحاديث الموضوعة أو التي لا يحتاج العقل إلى إثبات عدم صحتها ، كأنه يبايراد مثل هذه الأحاديث يزيد تمسكهم بها بمن يوردون هذه الأحاديث في معرض حجاجهم واستشهادهم على صواب رأيهم في البخل فهو كأنه يطبقهم إلى سحرية من يظلمهم تمسكهم بجهلهم بإيراده هذه الأحاديث مثل سيد الطعام الثريد ، ومثل عائشة في نفسه ، مثل عائشة في الطعام ، (٢) .

وكما يذكر لعمر قوله لأهله : املسكروا المعجين ، فإنه أربيع الطحينيين ، (٣) وكما يفدى زيدة بن حميد النبي بقوله : بأبي وأمي رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول : جمع الشر كله في بيت ، وأخلق عليه . فكان مفتاحه السكر ، فهو يفدى النبي - صلى الله عليه وسلم - لأنه قال حديثاً - موضوعاً - وافق هواه ولهذا انتهاء النهكم بالبخلاء والإضرار بهم .

وهو أحياناً يستعين بما ينسب إلى القدماء فيما يوافق مذهب البخلاء ويعتقد احتجاجهم ، وغالباً ما يكون هؤلاء الأقدمون من الزاهدين في الدنيا : كعمر بن الخطاب ، والمسيح عليه السلام وغيرهما (٤) وفي بعض الأحيان

(١) ضمه المجلد في كهف الحفا / ٣٢٧

(٢) البخلاء ص ٧٤

(٣) البخلاء ص ١٠

(٤) انظر ص ١٠٨ ، ١٠٩ من البخلاء .

يذكر الاحتجاج بأشخاص اشتهروا بالبخل منذ القدم كبعض الجاهليين  
وأبي الأسود الدؤلي والأصمعي وخالد بن عبد الله القسري<sup>(١)</sup>.

### ٣ - المصطلحات الفلسفية .

وبما يلاحظ على أسلوب الجاحظ. الحجاجي على السنة البخل استعماله  
بعض المصطلحات الفلسفية كقوله : وربما عجل عليه ، فقدمه حاراً ، متعماً ،  
وربما كان من جوهر بطيء الفتور<sup>(٢)</sup> .

وجاء أيضاً : « فتحول كل شيء كان في أقمته بتلك الجذبة إلى أقمتي ،  
لاتصال الجنس بالجنس ، والجوهر بالجوهر »<sup>(٣)</sup> .

وقال على لسان المنكي « فإذا هو يريد أن تدفع جوهرًا بجوهر ، وعرضًا  
بمرض ، حتى لا تريح أمه إلا صرف ما بين العرضين . . . وما كانت إلا أن  
تبادلها الأعراض وتسلم إليه الجوهر »<sup>(٤)</sup> .

وهكذا يأتي الجاحظ إلا أن يفصح عن أسلوبه بصياغة كتابه هذه  
الصياغة التي تخضع لما اشتهر عنه من اشتغاله بعلم الكلام والفلسفة من جهة  
ولما عرف عنه من روح هائلة ساخرة من جهة أخرى .

وبما يدخل في هذا الحجاج الذي يتخذ صورة الحجاج المنطقي الفلسفي  
الجدلي قوله « وعبتموني حين زعمت أنني أقدم المال على العلم ، لأن المال به  
يغاث العالم ، وبه تقوم النفوس ، قبل أن تعرف فضيلة العلم . وأن الأصل  
أحق بالتميز من الفرع ، وأني قلت : وإن كنا نستبين الأمور بالنفوس ،  
فإننا بالكفاية نستبين ، وبالحلة نعمي . . . »<sup>(٥)</sup> .

(١) وقد شك الدكتور الحاجري في صحة رمي القسري بالبخل .

(١، ٢) البخل ص ٦٩

(٥) البخل ص ١٤ ، ١٥

(٤) البخل ص ١١٣

ومن قوله أيضا ويدخل في هذا الباب ، وأكلى وحدى هو الأصل ،  
وأكلى مع غيرى زيادة فى الأصل ، (١) .

وكذلك هذه العبارة . . . ومن يشك أن الوحدة خير من جليس السوء  
وأن جليس السوء خير من أكل السوء ، لأن كل أكل جليس ، وليس  
كل جليس أكل ، (٢) ، ومن هذا القبيل الاحتجاج للزجاج وذكر فضله  
على غيره (٣) .

ومن أروع ما جاء فى الاحتجاج هو ما ساقه على لسان سهل بن هارون فى  
رسالته التى يشك فيها الحاجرى وينسبها للجاحظ ، وأنا أنضم إليه فى هذا  
الشك ، وهذه الرسالة تحوى من طرق الحجاج والمغالطات السوفسطائية  
ما يصل بالجاحظ إلى رتبة كبار المتشككين الوضاعين لافى الأدب العربى  
فحسب بل فى الآداب العالمية ! فما يذكره من هذا الباب على لسان سهل  
ويدخل فى موضوعنا قواه ، وعبتمونى حين زعمت أن التبذير إلى مال القمار  
ومال الميراث ، وإلى مال الانتقاط وحباء الملوك أسرع ، وأن الحفظ إلى  
المال المكنسب والغنى المحتلب ، وإلى ما يمرض فيه لذهاب الدين واهتصاص  
المرض ونصب البدن واهتمام القلب أسرع ، وأن من لم يحسب ذهاب نفقته  
لم يحسب دخوله ، ومن لم يحسب الدخول فقد أضاع الأصل ، وأن من لم  
يعرف للغنى قدره ، فقد أذن بالفقر ، وطاب نفسا بالذل (٤) .

(١) ص ٢٤ من البخلاء

(٢) ص ٦٧ من البخلاء

(٣) ص ٢١ من البخلاء

(٤) ص ١٢ من البخلاء

وبما يدخل في باب المغالطات الجدلية المضحكة قوله على لسان الثوري  
لابنه :

« أى بنى إن إيمان القراريط يفتح عليك أبواب الدوائيق وإمناق  
الدوائيق يفتح عليك أبواب الدرام ، وإمناق الدرام يفتح عليك أبواب  
الدنانير ، والعشرات تفتح عليك أبواب المئين ، والمئين تفتح عليك أبواب  
الألوف ، حتى يأتى ذلك على الفرع والأصل ، ويطمس على العين والأثر  
ويحتمل القليل والكثير .

أى بنى : إنما صار تأويل الدرهم « داراهم » ، وتأويل الدينار « يدنى  
من النار »<sup>(١)</sup> .

ونستطيع أن ننظم الكلام على استخدام الجاحظ الاحتجاج والمبالغة فيه  
أو إطالته كوسيلة من وسائل السخرية بالبخل أو استخدام الألفاظ أو  
الجل الفلسفية الجدلية بالاكتفاء بما ذكر من أمثلة والإحالة إلى صفحات  
أخرى من الكتاب كامثلة مطولة لما ذكرنا ولا نستطيع مردها ، كهذا  
الاحتجاج الطويل الذى بلغ تسع صفحات<sup>(٢)</sup> أو كثرة الاحتجاج بأقوال  
السابقين<sup>(٣)</sup> أو الاحتجاج على منافع الملاة<sup>(٤)</sup> أو الاحتجاج للبخل والبخلاء  
وما نقابه من أسماء<sup>(٥)</sup> أو استطراده اللطيف<sup>(٦)</sup> فن استشهاده المضحك :  
وقال عمر : من أكل بيضة فقد أكل دجاجة<sup>(٧)</sup> ، ، ،

(١) ص ١٠٦ وهو يقترب من هذا المثل الانجليزى المعروف مع ما بينهما من

فرق فى التعبير وعدم المبالغة . . . . . Take Care of the Pence ... etc ...

(٢) ص ١٨٢ من البخلاء (٣) ص ١٤٦ من البخلاء

(٤) ص ١٠٥ من البخلاء (٥) ص ٦٢ ، ٦٣

(٦) ص ١٢٧ (٧) البخلاء ص ١٢

٤ - والطريقة الرابعة هي السخرية بجملة يشيع فيها التهم بصرف النظر عن العبارة بآجمعها : وأولها استخفافه بالجملة الاعتراضية كثيرا : كقوله على التلذذ الذى يستخرج منه الدبس وهو ضائق بقبوله هدية : ... وإن سلم - وأعوذ بالله - وجاد وصفا ، لم نجد بدا من شربه ، ، (١) ...  
وهناك عبارات أخرى غير الجمل الاعتراضية مثل قوله على لسان بحيل :  
ألهم لى استعرقك ، فأحرق كل شىء لنا ! (٢)

وقوله : د وأن الناس يظلمون الكذب يتناسى مناقبه ، ، (٣) وقوله : ...  
ومن أطعم الثار ، جعله الله يوم القيامة طعاما للنار ، ، (٤)  
وقوله على لسان قوم استمعوا إلى حديث أحد البخلاء . فأعجبوا بحسن تدبيره : د هذا بتوفيق الله وحده ، ، (٥)

وقوله على لسان أحدهم : ، أرجو أن يكون الله قد جمع لك بهذا السمال مصالح كثيرة ، لما فتح الله لك بهذه النخالة ، ، (٦) ... ويرد عليه آخر : د صدأت ، مثل هذا يكتسب بالرأى ، ولا يكون إلا سماويا ، ، (٧)  
وقوله : د ... والقداحة الغليظة بالثمن الموضع ، ، (٨) وقوله : د قزعم لنا صديقنا الثورى ، وهو ما علمت أحد المرشدين ، ، (٩)

- 
- |                         |                               |
|-------------------------|-------------------------------|
| (١) ص ٦٣ من البخلاء .   | (٢) ص ٢٨ من البخلاء .         |
| (٣) ص ٣٠ (نفس المرجع) . | (٤) ص ٢٠ ، ٢١ المرجع السابق . |
| (٥) ص ٢٩                | (٦) ص ٣١                      |
| (٧) ص ٣٢                | (٨) ص ٣٤                      |
| (٩) ص ١٣٢               |                               |

وعلى لسان معاذة قوله : « صار كية في قلبي ، وقذى في عيني ، وهما لا يزال يعودني . » ،<sup>(١)</sup>

ومن الجمل التي تشتمل على سجع قوله : « يذهب بحر مالي ؛ ما أراد إلا استئصالى ! » ، وهناك غيرها من الجمل المسجوعة الكثير .<sup>(٢)</sup>

وقوله : « فلما حضر وقت الغداء ، صوت بفلامه - وكان ضحما جهير الصوت صاحب تقهير وتفخيم وتشديق وهمز وجزم ... » ،

وقوله على لسان بخيل : « إن من إفلاس المرء طمع الناس فيه ! » ، وقوله : « فقبض صاحب الحمار ، والماء العذب ( وهما بخيلان ) قبضة من حصي ثم ضرب بها الأرض ، ثم قال : لا تعلم أنك من المرففين ، حتى تسمع أخبار الصالحين ! » ،<sup>(٣)</sup>

وقال على لسان بخيل رفض أن يستضيف الجاحظ وصحابه في يوم قاتظ : « وقال ضاحكا ... فضعه في سويداء قلبك ! » ،<sup>(٤)</sup>

وقال على لسان بخيل ادعى أنه سكران : « سكران والله أنا سكران ! » ،<sup>(٥)</sup>

وقوله على لسان أحد البخلاء تضايق بمن كان يأكل معه : « أجهز على الجرحى ، ولا تعرض للأصحاء ! » ،<sup>(٦)</sup> يتحدث عن الطيور !

(١) ص ٩٦ من البخلاء

(٢) ص ٦١ من البخلاء

(٣) ص ٢٣ من البخلاء

(٤) ص ٢٨ من البخلاء

(٥) ص ٢٨ ، ٢٩ نفس المرجع

(٦) ص ٤٤ ، ٤٥ نفس المرجع

وقوله : د اجرش يا أباكعب اجرش ا ، (١)

وقوله على لسان أحد البخلاء : د أنى لما غلبتنى يوما مشهوتى ، وأخرجت  
يوما درهما لقضاء وطرى ، ووقعت عيني على مسكته ، وعلى اسم الله المكتوب  
عليه ، قلت فى نفسى : إنى إذا لمن الخامس بن الضالين إثن أنا أخرجت من يدى  
ومن يبق شينا عليه : د لا إله إلا الله ، وأخذت بدله شيئا ليس عليه شيء .  
والله إن المؤمن لينزع خاتمه للأمر يريد ، وعليه : د حسبى الله ، أو : د توكلت  
على الله ، فيظن أنه قد خرج من كنف الله - جل ذكره - حتى يرد الخاتم  
فى موضعه ، وإنما هو خاتم واحد ، وأنا أريد أن أخرج فى كل يوم درهما  
عليه الإسلام كما هو ؟ إن هذا العظيم ا ، (٢)

وقوله : د أنا والله أحتمل الضيف والضيف ، ولا أحتمل اللعموز  
ولا الجرديل ... ، (٣)

٥ - التثنيع : وكان الجاحظ كثيرا ما يضع النوادر أو القصص القصيرة  
حول بخلائه ، وكانت هذه التثنيعات كثيرا ما تكون مبالغيا فيها ، ويصدر  
بها دائما الكلام على البخيل ، ومن أمثلة ذلك قوله عن أحمد بن خلف :

د فقلت له - وقد ورث هذا المال كله - : ما بطأ بك الليلة ؟

قال : لا والله إلا أنى تعشيت البارحة فى البيت ا ، (٤)

(١) ص ١٢٧ من البخلاء .

(٢) ص ٥١ من البخلاء .

(٣) ص ٦٧ ، وأطر مخاطبة أحد البخلاء ص ١٢١

(٤) البخلاء ص ٤١

ويشنع على صاحب له - لا يسموه - فيقول :

أكلنا عنده يوماً ، وأبوه حاضر ، وبني له بجىء ويذهب . فاختلف مراراً ، كل ذلك يرافنا كل .

فقات الصبي : كم تأكلون ، لا أطعم الله بطونكم ١٩  
فقال أبوه : - وهو جد الصبر - ابني ورب الكعبة ٢٠  
ويشنع على الثورى قائلاً :

حم الثورى ، وحم عياله وخادمه ، فلم يقدرُوا - مع شدة الحمى على  
أكل الحبز ، فربح كيلة تلك الأيام من الدقيق ، ففرح بذلك ، وقال : لو  
كان منزلى سوق الأهواز أو نضاء خير أو وادى الجحفة ، لرجوت أن  
أستفضل كل سنة مائة دينار - كان لا يبالى أن يحم هو وأهله أبداً ، بعد  
أن يستفضل كفايتهم من الدقيق ٢١

وبالغ فى التشنيع على البخلاء حتى يجعل أبا سعيد المداينى ينهى خادمه  
أن تخرج الكساحة من الدار ١ وأمرها أن يحجمها من دور السكن ، وتلقها  
على كساحتهم ، فإذا كان فى الحين بعد الحين ، جلس وجات الخادم ومعهما  
زبيل ، فعزات بين يديه من الكساحة زيلاً ، ثم فقتشت واحداً واحداً ...  
إلخ. ٢٢

ومن تشنيعه أنه كثيراً ما يجعل البخل يذافع عن البخل والبخلاء ٢٣

(١) البخلاء ص ٤٤

(٢) البخلاء ص ١٠٤

(٣) البخلاء ص ١٤٢

(٤) البخلاء ص ٦٥ ، ٨٢ ، ١٠٦ ، ١١٦



وكثيرا ما يزيد في بخل البخلاء (١)

٦ - التعريض : وكان في بعض الأحيان يسخر بالبخلاء تعريضا كما قال عن نفسه :

« وكنا مرة في موضع حشمة ، وفي جماعة كثيرة والقوم سكوت ، والمجلس كبير . وهو بعيد المسكان مني . فأقبل على المسكى ، وقال - والقوم يسمعون - : يا أبا عثمان من أبخل أصحابنا !

قلت : أبو الهذيل . قال : ثم من ؟ .

قلت : صاحب لنا لا أسيه !

قال الخزاعي من بعيد : إنما يعني (٢)

• • •

هذه هي سخرية الجاحظ من البخلاء ، وقد نجح نجاحا كبيرا في إخفاء قصده الساخر ، وهذا من يرفع من قيمة السخرية ، ولا يحذقها أو يمر فيها إلا من أوتي خيالا خصبيا ، وصبرا وطول ممارسة لهذا الفن ، غير أني آخذ عليه - في بعض الأحيان - كثرة المترادفات التي يوردها كثيرا عما تسمى إلى أسلوب الساخر : فالسخرية تتطلب الاختصار والإيجاز الشديد ما أمكن لأنها كاللمحة أو السهم الصغير الذي يزيد إيلاؤه كلما دق حجمه ، ومن أمثلة ما نقول ، قوله في إحدى صفحات البخلاء : « الفتي لا يكون نشالا ، ولا نشافا ، ولا مر سالا ، ولا لكاما ولا مصاصا . ولا نقاضا ، ولا دلاكا ، ولا مقورا ، ولا مغربلا . ولا محلقما ، ولا مسوغا ، ولا مانعما . ولا مخضرا . . . إلخ (٣)

(١) أنظر الصفحات ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٥١ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٨١ ، ٩٣ ،

١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١٣ ، ١١٣ ، ١٣٥ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ،

(٢) ص ٦٤ ، ٦٥ من البخلاء

(٣) ص ٦٧ من البخلاء

## ٢ - رسالة الترييع والتعوير

السبب في كتابة هذه الرسالة :

أما السبب في كتابتها : فلم يصرح الجاحظ بالدافع الحقيقي إليه ، كذلك لم يعرف شخصية أحمد بن عبد الوهاب الذي قيلت فيه هذه الرسالة ، معرفة تامة ، ولم ينقل لنا التاريخ ترجمة مفصلة عن حياته أو العلاقة بينه وبين كتاب عصره بعامة والجاحظ بخاصة لكي تتمكن من الإحاطة بالأسباب أو الدوافع لكتابه هذه الرسالة .

وكل لما يصفه به كتاب الحيوان ، هو أنه كان كاتباً من الكتاب .

ويحاول محقق الرسالة وهو المستشرق الفرنسي شارل بلات ، الوصول إلى أحد أسباب كتابه هذه الرسالة فيقول : إن الواقع كان قد أعجب ، بقلم الصالحية ، جارية ، صالح بن عبد الوهاب ، أخى ، أحمد بن عبد الوهاب ، حينما سمعها تغنى ، فأراد شراءها ، فطلب صاحبها خمسة آلاف دينار ، وأن يتولى مصر ، كل ذلك لقاء بيعها للخليفة والتنازل عنها له ، وكان على الوزير عبد الملك بن الزيات وزير المتوكل تنفيذ هذا الأمر ، ولكن الوزير غضب من مضايبة ابن عبد الوهاب بحقه .

ثم تحول صالح بن الوهاب إلى مكة ، واشترى هناك ضيعة قضى فيها بقية عمره بعد أن اعتزل خدمة الخليفة .

ويظن المستشرق أن أحمد بن عبد الوهاب قد اتبع أخاه إلى مكة واستقر هناك ، وقد جاء هذا الظن من جملة ذكرت في الرسالة وجه فيها الجاحظ الكلام إلى أهل مكة : لكي يفتنوا إلى حقيقة الهارب إليهم والفازل بين ( م ١٣ - السخرية )

ظهر انهم وهو أحمد بن عبد الوهاب ، . . وقد يكون هذا الظن صحيحاً وقد يكون أحد أسباب كتابه الرسالة ، ولكنة - على ما نرى - سبب غامض لم يصرح به أو يؤيده التاريخ أو المؤرخون .

وحينما درست الرسالة دراسة دقيقة مفصلة ، أحسست بمدى الحقد الدفين الذى يحسه الجاحظ إزاءه ، ذلك الحقد الذى جعله يكتب تلك الرسالة الطويلة بذاك النفس الذى لا ينعير ، فجعلنى هذا أظن ظناً أقرب إلى اليقين أنه كانت ثمة عداوة تأصلت بمرور الأيام بين الجاحظ وأحمد بن عبد الوهاب ومن الجائز أن هذا العدو كان قوى الشكيمة إلى حد أنه آذى الجاحظ ، وكان يحسده حسداً صرح به الجاحظ . فى عدة مواضع من الرسالة كقوله عنه ويحسد العلماء من غير أن يتعلق منهم بسبب ، ، <sup>(١)</sup> وكذلك فقد يكون د أحمد بن عبد الوهاب ، ، من أدياء العلم والأدب <sup>(٢)</sup> وحسن المنظر والمخبر ، حتى إن الجاحظ استغل ذلك الادعاء فى محاولة السخرية منه سخرية امتدت من أول فقرة فى الرسالة إلى آخر فقرة فيها ، وقد يكون هذا السبب أو الدافع أقوى من محاولة سخرية الجاحظ . به لمجرد أخوته لصالح بن عبد الوهاب الذى أراد للوزير الخطير محمد بن الملك الزيات الانتقام منه بواسطة قلم الجاحظ الحاد

\*\*\*

### منهج الرسالة :

يقدم الجاحظ لرسائله أولاً بمقدمة عن أحمد بن عبد الوهاب وعن ادعائه

(١) الرسالة ص ٦ فقرة ٣ (تحقيق شارل بلات وطبعة بيروت ١٩٥٦) وأنظر

أيضاً ص ١٠ / ١١ ، ١٠ / ١١ ، ١٢ / ١٣

(٢) رسالة التبريع والتدوير الفقرتان ٢ ، ٤ .

ما ليس فيه : فيصف جسمه وصفاً حسيّاً : « كان مفرطاً القصر ، وبدعى أنه مفرط الطول . وكان مربعا . . . وكان جعد الأطراف . . . وكان طويلاً

الظهر قصير عظام الفخذ وكان كبير السن متقادماً الميلاد . . . ، ومن هذا الوصف الحسّ اشتق اسم الرسالة وهي « الترييع » ، لأنه كان ربة أو مربعا على حدّ تعبيره ، و« التدوير » ، لأنه حاول أن يتخيله كأنه مدور لسعة جفرتة واستفاضته خاصرته ، ،

وقد جعل هذه المقدمة ملخصاً للعناصر التي سيسخر منه بسببها :

فسخر من جسمه ، وكان هذا الجانب من سخريته موجزاً بالنسبة للعنصرين لتأيين : وهما سخريته من ادعائه التبحر في العلم ، وسخريته من كبر سنه ولادعائه طول التجربة الناشئة عن كبر السن .

وبعد هذه المقدمة التي استغرقت خمس صفحات يبدأ في الرسالة . والغريب أنه يحاول أن يبدأ هذا الجزء الذي يعد القسم الأكبر من الرسالة ، يحاول أن يبدأ بالبجملّة ، يتمهيد له ، بما يشعر كأنه يبدأ بدءاً جديداً منفصلاً عن سابقه .

أما من ناحية طريقته في إيراد ما أورد في الرسالة : فلم يحاول أن يستمر سخريته من عنصر ما من هذه العناصر حتى إذا ما انتهى منه انتقل إلى عنصر آتالي ، بل كثيراً ما يداخل بين هذه العناصر بعضها البعض آخر ولو أنه قد خصص الفقرات الأولى لسخريته من جسمه ، وقلل منها في فقرات التالية .

وكان الجاحظ لا ينسى أسلوبه الذي طبعته به كتابته في أغلب كتبه ، بعض فقرات هذه الرسالة : وأعني به مسحة المزاج أو التفلسف ونشيق

الكلام و كثرة إيراد المترادفات الكثيرة<sup>(١)</sup> . كما ذكرت في التعليق السابق على كتاب البخلاء . ولا ينسى كثرة استشاده بالحكم والأمثال والاحاديث النبوية والآيات ، ولو أنها أقل نسبياً عما انتهجه في البخلاء ، ويحاول أن يكثّر من الأمثال ومن الروايات المختلفة أو الصنع المختلفة لهذه الأمثال<sup>(٢)</sup> .

وكثيراً ما يتخلل سخريته استطراده إلى الكلام عن موضوعات أخرى لا تمت إلى موضوعه بسبب قريب ، بل هي استطراد بسبب لفظة أو عيب ذكره : كاستطراده في الكلام عن المراء<sup>(٣)</sup> أو المزاح<sup>(٤)</sup>

\*\*\*

### عيوب الرسالة :

أما أول هذه العيوب فهو العبارات الهجائية الصريحة التي بثها هنا وهناك في أجزاء الرسالة في حين أنه كان من الأجدر أن لا تحتل رسالة ساخرة على ألفاظ هجائية أو تعنى من قريب السب الذي تخالفه السخرية كل المخالفة إذ هي تقوم على التورية والتعمية والإيلاام غير المباشر كما السهم المميت الذي لا يظهر أثره إلا بعد أن يكون قد تمكن من الرمية كل تمكن من غير أن تفتن له في أول الأمر .

فن أمثلة ذلك قوله :

(١) رسالة التزييع والتدوير ٥ / ٢

(٢) رسالة التزييع والتدوير ٥ / ٧

(٣) رسالة التزييع والتدوير ٨ / ٨ ، ٩ / ٨

(٤) رسالة التزييع والتدوير ٤٦ / ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٩٠ ، ٩١ / ٩٤

٩٧ ، ٩٨ / ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩

« وما أدرى - حفظك الله - في أى الأمرين أنت أعظم إثماً ، وفي أيهما أنت أخش ظلياً : أبتعضك للعوام ، أم يافسذك الخواص ، ، (١) »  
وقوله أيضاً :

« وقد سألتك - وإن كنت أعلم أنك لا تحسن من هذا قليلاً ولا كثيراً ... ، (٢) »

وقوله أيضاً :

« وأى نظام أفسد من عرض مجاوز للتقدير ، وطول مجاوز للقصد ، ، (٣) »  
ومن هذه العيوب أيضاً : كثرة ذكره أسماء المشهورين من الرجال حتى ربما عد ستة عشر اسماً كقوله : « وقد رأيتك زماناً تحتج بالنعمان بن المنذر وبضمرة بن ضمرة ، وبمجاعة بن مرارة ، وبمجاعة بن سمر ، وبأوفى بن ربيعة ... الخ ، (٤) »

أو الصفات الكثيرة كقوله : « ... غير منخوب ولا متشعب ولا مدخول ولا مشترك ولا ناقص النفس ولا واهن العزم ولا حبيود ولا منافس ولا مغالب ولا معاقب ... ، (٥) »

ومن هذه العيوب أيضاً : إطالة الجملة أحياناً كقوله : « ... ولكن حدود الأشياء إذا خفيت ومقاديرها إذا أشكلت ، ولم يكن مع الناظر فيها مثل تمامك ولا مع المتكلف لها مثل كمالك ، دخل عليه من الخلال بقدر عجزه ، وسلم منه بقدر نقاده . ، (٦) »

(١) رسالة التزييع والتروير ١٦ / ٢٠ (٢) المرجع السابق ١٨٩/٩٧

(٣) د د د ١٩ / ١٥ (٤) د د ٢١ / ١٦

(٥) المرجع السابق ١٩ / ٢٦

(٦) د د د ٨٦/٤٧ ، وانظر أيضاً مثلاً آخر ١/٥٦ ، ١٠٢/٥٦

ومن هذه العيوب أيضا : المبالغة في السخرية ، مبالغة غير مقبولة أو مستملحة كقوله : ،

« وليس حسدك - أبقاك الله - الذي تبقى معه توبة ، أو تصح معه عقيدة أو يدوم معه عهد أو يثبت معه عزم أو يميل صاحبه التثبت أو يتسع للتخير أو يهنه زجر أو يهذه خوف ... الخ ، <sup>(١)</sup>

ويبالغ في قياس فلسفى تمجيد السخرية التى لا تميل إلا إلى الإيجاز كقوله : « وحى لو كنت إمام الرافضة ، لقتلت فى طرفه ، ولو قتل فى طرفه لهلك الأمة لأنك رجل لا عقب لك ؛ والإمامة اليوم لا تصح فى الأخوة ، ولو صلحت فى الأخوة كانت تصلح فى ابن العم ، ثم إنها ذلت من الأرحام بعد ذلك فصارت لا تصلح إلا فى الولد ، وفى هذا القياس إنها بعد أعوام لا تصلح إلا ببقاء الإمام نفسه إلى آخر الأبد ، وهذا هو علة أصحاب المناسخة ، وأنت رافضى ، ولم يكن هذا عندك ... » <sup>(٢)</sup>

ومن عيوب الرسالة أيضا الاستطراء وهو المنهج الذى اتبعه فى كتبه العلمية كالحجوى والبيان والتبيين إذ هو يصلح فى هذا المجال ولكنه لا يصلح فى رسالة قائمة على الهزء وتتطلب العريضة والإيجاز ، وقد أحسن الجاحظ بذلك فصرح غير مرة بإحساسه قائلا :

« فلا تعجب - أيها السامع - ولا تظن أنى مفرط ... » <sup>(٣)</sup>

وقوله : « وقد تعجب ناس من إطالتي ومن كثرة مساءلتى ، وتعجبى من تعجبهم أشد والذى كان من إنكارهم أعظم ... » <sup>(٤)</sup>

(١) المرجع السابق ١٠٧/٦٠

(٢) الترتيب ١٢٠ / ٧٣

(٣) المصدر السابق ١٠٥ / ٥٨

(٤) المصدر السابق ٨٧ / ١٦٥

وعلى الجملة ، فإننا نأخذ على الجاحظ في هذه الرسالة : جملة المطولة أحيانا وأنسجتها العقلية البعيدة عن طرق التهمك ، في أحيان أخرى ، إذ يحذر بها أن تكون خفيفة الوزن ، سريعة لملاحظة فلا داعي للكثرة المترادفات ، مختلفة متنوعة حتى لا يمل القارئ ، قليلة في الناحية العملية لا كثيرة . وقد كان يستطيع إيراد بعض الطرف أو الأقاصيص المخترعة التي يتهكم بها في رسالته ، حتى يبعد السأم والملل عن القارئ . بالنزاهة هذه الناحية الواحدة التي حاول تنويعها بقدر طاقته الفنية الهائلة ، ولكنه على الرغم هذا لم يسلم من إملال في بعض أجزاء رسالته وسخف في بعضها الآخر .<sup>(١)</sup>

### طرق سخريته :

١ - التباه : أو محاولة الكلام على لسان أحمد بن عبد الوهاب بأن ينسب إليه كلاما يدافع به عن شكله أو قصر جسمه كقوله : « وقلت : إن كان الفضل في العدد ، فبنا يا جوج وما جوج ، ومنا الدعاء ميص والبعوض ! واحتججت بأن الحسن والفضل أصغارا في الإنسان كالناظرين والأنثيين .. الخ ، »<sup>(٢)</sup> ويحتج على لسانه فيقول : « وزعمت أن الإنسان إذا طال جسمه ... أسرع الانهدام إلى بدنه ، وأن القصير لا يتفوس ظهره ، ولا يميل عنقه ، ولا يضطرب شخصه ولا تعوج عظامه . ويسعه كل باب ، وبقلمه كل ثوب ولا نخرج رجلاه من النعش ، ولا يفضل عن الفراش ... »<sup>(٣)</sup>

(١) المصدر السابق ٥٩ / ١٠٦

وانظر أمثلة الكلام الفاسق في ٧٢ / ١٢٩ ، ١٠٣ / ٢٠٣

والاستطراد في ٤٦ / ٦٨٤ ، ٨٥ / ٤٧ ، ٨٨ / ٤٩ ، ٩٠ / ٥٣ ، ٩٧ / ٦٥

١١٥ / ٦٦ ، ١١٧ /

(٢) الترميز والتدوير ١٧ / ٢٣

(٣) المصدر السابق ١٧ / ٢٤



ويستمر في تنصيبه مدافعا عن نفسه ، كأنه يثلب به طارفا قائلا :  
«وقلت : لو الناس إن قالوا في الحسن كأنه طاقة ديجان ، وكأنه نحوط بان ،  
فقد قالوا في المريض كأنه المشتري وكلن وجهه دينار هرقل ، وكأنها دلوة  
القمير ، فقد تراهم وصفوا المستدير والمريض بأكثر مما وصفوا به القصير  
والطويل ،»<sup>(١)</sup>

## ٢ - المبالغة :

كقولہ «وبعد ، فن يطمع في عييك ، بل من يطمع في قدرك ، وكيف ،  
وقد أصبحت وما على ظهرك خرد إلا وهي تعثر باسمك ، ولا فينة إلا وهي  
تغني بمدحك ، ولا فتا إلا وهي تشكو تباريح حبك ، ولا عجيبة إلا وهي  
تنقب الحروق لمرك ، ولا عجز إلا وهي تدعو لك ، ولا غيور إلا وقد  
شقى بك أفك من كبد حري مضجة وصدوعة مفرثة . . . وكم من عبري  
موطئة وقتاة مغذبة قد أقرح قلبها الحزن وأجمد عينها الكمد . . . إلخ ،»<sup>(٢)</sup>

## ٣ - التلعب بالأسلوب :

وهي أن يذكر له الصفة وضدها اقتداراً من الجاحظ لسيطرته على زمام  
الكلام وامثلاً كه لا عنته كعزله فيه : «قد والله - عافانا الله بك وابتلى ،  
وأنعم بك وانتقم ، فترح لمن زهد فيك ، وسقيا لمن رغب إليك ، وويل  
لمن جهل فضلك ، بل الويل لمن أنكر فضلك إلا أنك - جعلت فذلك - كما لم  
تكن فكنت فكذا لا تكون بعد أن كنت ، وكما زدت في الدهر الطويل ،  
فكذا تنقص في الدهر القصير ، إذ كل طويل فهو قصير ، وكل متناه فهو

(١) المصدر السابق ٢١ / ٢٩

(٢) المصدر السابق ٥٩ / ١٠٦

قليل، فأياك أن تظن أنك قديم فتكبر، وإياك أن تشكر الله محدث  
فتشرك الله، (١).

وقال في موضع آخر... فلما رأيتك، علمت أنك عذاب صبه الله  
على كل رفيع، ورحمة أنشأها لكل وضعيع، (٢).

ويلاحظه مادحا ساخرا معظما قدره حاطا من قيمته بقوله: د ولو  
استحتمت عقابك بإقدامي عليك مع خوفي منك، لاستوجبت عفوك من  
إقدامي عليك لحسن ظني بك، على أني - متى أوجبت لك العفو، فقد أوجبت  
لك الفضل، ومتى أضفت إليك العقاب، فقد وصفتك بالإنصاف، ولا أعلم  
حال الفضل إلا أشرف من حال العدل، ولا الحال التي توجب الشكر إلا  
أرفع من الحال التي توجب لك الصبر...، وهكذا يتظاهر بأنه قد أجرم  
في حقه ثم يتظاهر بأنه يعظم قدره من الانتقام فيطلب منه - هازئاً - للفقرة ١١  
وهذا من طرق التهويل إذ يحاول الساخر أن يجعل من الشيء المبهين شيئا  
عظيما فيبني عليه تهكمه...

#### ٤ - المدح الساخر :

ويحاول أن يمدحه ويديح في مدحه كلمات بعضها تنطق بإفصاح عن سخريته  
اللاذعة، كقولته واصفاً بيانه وأسلوبه: د وتعطى المعنى حقه من اللفظ، كما  
تعطى اللفظ حقه من المعنى، وتحب المعنى إذا كان حيا يلوح، وظاهرا يصبح،  
وتبغضه إذا كان مستهلكا بالتهقيد، (٣).

(١) التبريع والتدوير ٤٠ / ٧١

(٢) المرجع السابق ٤٥ / ٨٢

(٣) التبريع والتدوير ٢٠ / ٢٧

ويقول وأصفا ما عرض به الله عن القصر من سمات الحسن المضحكة :  
« فوالله إنك لجيد الهامة ، وفي ذلك خلف من حسن القامة ! وإنك لحسن  
الخط ، وفي ذلك عوض من حسن اللفظ ! وإنك لقليل الشيب قليل البول ،  
وإنك لتجد مقالا ، وإنك لتعد خصالا » . (١)

#### د - التهم الظاهر الضاحك :

وذلك بذكره أعاظه كاذبة مضحكة تنتزع الاتسام من القارىء انتزاعا  
كقوليه حين يصوره الغاية في كل شيء وطغيانه على كل شيء حتى الجماد : «  
جعلت فداك ، ما لقي منك الذهب ، وأى بلاء دخل بك على الخمر ؟ كانا  
يقبضان بطول العمر ، ويتهجان ببقاء الحسن أفلا أرى حسنك على حسنهما  
وعمر طول عمرك أعمارهما ، ذلا بعد العز ، وهانقا بعد الكرامة ! » ،

ويلغ نهاية التهم بقوله : « وما لي فيك قول إلا قول الأعرابي حين  
ضل الطريق في الظلمة : فلما عرف قصده عند ضلوع القمر ، رفع رأسه شاكرًا  
وهو يقول : « ما أفرل ؟ ، أفول : رفعتك الله ، وقد رفعتك ؟ أم أفول :  
جملك الله ، وقد جملك ، أم أفول : « عمرك الله ، وقد عمرك ؟ وليكن أفول :  
« وهل أنطق إن نطق إلا رجيمًا ، وأفول وما قلت إلا لغوا ؟ » (٢)

ويتهم به ناسبا إليه - كذبا - بغض الشهرة فيقول : « يعجبني - جعلت  
فداك - منك بغض الشهرة ... استغناء بنفسك ، وصبرنا لقدرك ... وما أقل -  
بحمد الله - ما سبقك به إبليس ، وما أيسر ما فاتك به آدم ! » (٣)

ويقارن - متهكما - بينه وبين إبليس في موضع آخر فيقول : « وولست

(١) المرجع السابق ٢٤ / ٣٥

(٢) التبريع والتدوير ٥٥ / ٣٣

(٣) المرجع السابق ٢٤ / ٥٨

جعلت فداك - كإيليس ، وقد تقدم الخبر في بقائه إلى انقضاء أمر العالم وفناءه ؛ ولولا الخبر لما قدمته عليك ولا ساووته بك ، وأنت أحق منه بعذر ،...<sup>(١)</sup>

ويتمكم به حينما يصف أعضاء نافذة من جسمه فيقول : ... أما كفك : فهي التي لم تخلق إلا للتقيل والتوقييع ، وهي التي يحسن بحسنها كل ما انفصل بها ، ويختال بها كل ما صار فيها ، كما أصبحنا وما ندرى : الكاس في يدك أحسن أم القلم ، أم الرمح الذي تحمله ، أم الخصرة أم العنان الذي تمسكه أم السرط الذي تعلقه ... وأما قدمك : فهي التي يعلم الجاهل كما يعلم العالم ويعلم البعيد الأقصى كما يعلم القريب الأدنى ، أنها لم تخلق إلا لمخير نمر عظيم ، أوركاب طرف كريمة ... وأما فرك ... إلخ ،<sup>(٢)</sup>

وهكذا يلعب به بوصفه وصفاً مادياً لا يليق إلا بالحسان ، ويتولع به بوصف أجزاء من جسمه لا تذكر بجانب إنسان وقور إلا انتزعت من الوقار انتزاعاً

ويرجع في نهاية الرسالة إلى سوق حديث على لسانه متسائلاً عن السبب في التنويه بذكره قائلاً : « وسنقول : مادعاك إلى التنويه بذكري ، وتعريف الناس مكاني ، وقد تعرف حشمتي وانقباضني ونفوري واستبحاشي ( أي أنه يبعض الشهرة كما ذكر قبل ) ... ولولا أنك - جعلت فداك - مسؤول في كل دمان والغاية في كل دهر ، لما أفردتك بهذا الكتاب ولما أطمعت نفسي في الجراب ؛ وإمكانك كنت أذنت في مثلها لهرمس ثم لافلاطون ثم لارسطاطاليس ، ثم أجبت معبد الجنى ..... فتريه كفك والناسي . نعم جناحك أحق بذلك وأولى ، وقد كان يجب أن تكون على ذلك أحرص به وأعنى ،<sup>(٣)</sup>

(١) التبريع والتدوير ٧٢ / ٤١ .

(٢) المرجع السابق ١١٠ / ٦٢ .

(٣) التبريع والتدوير ١٦٦ / ٨٨ .

ويخلفه أنتهم أ عن أشيائه تلغية أو خرافة قائلا : « كم بين عدد وسواع  
وغيره ويعوق ؟ ومنذ كم نكح إسلاف نائلة ؟ »<sup>(١٤)</sup> وما تقول في الهام ؟ وخبرني  
عن شيبان ... وأين كان مسجل شيطان الأعشى من عمرو شيطان الخيل ؟<sup>(١٥)</sup>  
وخبرني عن الشق وعن واقواق ... وشعب رضوى<sup>(١٦)</sup>.

### ٢ - العناصر الفنية في سخريته ، أو أسلوبه الساحر :

الانقاط المضحكة : وقد زعموا - جعلت فداك - أن أكل ما طال  
عمره من الحيوان زائد في شدة الأركان ، وفي طول العمر ، وصحة الأبدان  
كالورشان ... فإن كان هذا حقا ... وكان هذا العلاج نافعا ، وكنت له  
مستعملا ... أخذنا منه بنصيب ، وكيف لي بذلك ، وأنا صغير الأذن وأذنك  
أذن أبي مهبل ؟ وأنا صغير الرأس ، ورأسك رأس جالوت<sup>(١٧)</sup> .

الجل الإعتراضية الدعائية : وقد مر في الفقرات السالفة أمثلة واضحة  
على مقدار كل جملة دعائية ساحرة في ثنايا الكلام مثل - « حفظك  
الله »<sup>(١٨)</sup> ، وجعلت فداك ، وقد ذكرها أكثر من عشرين مرة<sup>(١٩)</sup> وأبقاك  
الله<sup>(٢٠)</sup> وبرحمك الله ، وأطال الله بقامك .

الطريقة الإنشائية كالاستفهام والأمر والتسليم مثل : « فليجربك

(١٤) المرجع السابق ٣٨ / ٦٦ .

(١٥) المرجع السابق ٢٩ / ٦٩ .

(١٦) المرجع السابق ٤١ / ٧٣ .

(١٧) المرجع السابق ٣٢ / ٥٢ .

(١٨) المرجع السابق ١٠ / ١٦ ، ٩ / ٢٠ ، ٢٤ / ٥٧ .

(١٩) المرجع السابق ٢٦ / ٤٠ ، ٢٩ / ٤٦ ، ٣٦ / ٤٩ ، ٣٢ / ٥٣ ، ٣٣ / ٥٥ .

(٢٠) المرجع السابق ١٣ / ١٤ ، ١٨ / ٢٥ ، ٢٥ / ٢٥ ، ٣٣ / ٣٣ ، ٦٠ / ١٠٧ .

إلى هذا ، وما يدعوك إليه ، وأشباهك من القصار كثير (٢٦ / ٢٠) .  
 « فقل ممرؤفاً ، فإننا من أعوانك ، واقتصد فإننا من أنصارك ، وهات ،  
 فإنك لو أسرفت لقلنا قد اقتصدت ، ولو جرت لقلنا قد اهتمدت » (٢٤ / ٣٦) .  
 فيا قعيد العالم كيف أمسيت ؟ ويا قوة الهوى كيف أصبحت ؟ ويا ناسر  
 لقمان كيف أصبحت ؟ (٢٥ / ٣٨) .

### التهكميات :

وذلك بتوجيه أسئلة يستحيل الإجابة عليها كقوله : كيف رأيت  
 الطوفان ؟ ومتى كان سيل العرم ؟ ومذكم مات عوج ؟ ومتى تبلبلت الألسن ؟  
 وما حبس غراب نوح ؟ وكم لبثتم في السفينة ؟  
 وقد استغرق هذا الجزء من الرسالة صفحات عديدة ، وأخذ الجاحظ  
 يعرض معلوماته الكثيرة في شتى العلوم والمعارف التي كان يزخر بها عصره  
 فأخذ ينتقل من علم الحيوان إلى النبات ، إلى الجغرافيا إلى التاريخ إلى الهندسة  
 إلى الجبر إلى الموسيقى ، ثم يسأله في أثناء ذلك عن أشهر رجال كل علم ، والقضايا  
 العامة التي يشتمل عليها . . . . . وهكذا عرض الجاحظ لذلك العقل المستنير  
 الذي كان يحمله ، وأخذ يداعب به ضائره الصغير « أحمد بن عبد الوهاب »  
 والغريب أنه يسكسه بطريق توجيه السؤال مصرغاً صياغة توحى بواقعيته  
 كقوله : لم لم تبرز في وجه فرعون ؟

فقد علمت ما ذكروا من عمر نابغة بنى جعدة . . . وأنت أبقاك الله -  
 تعرف ميلاد آبائهم وأجدادهم وقبائلهم وعماثرهم وأصولهم وأجدامهم . . . .  
 فخبرني : أكذبوا أم صدقوا ، أم اقتصدوا أم أسرفوا ؟

ويسأله عن النعال السنية : وزعم إسماعيل بن علي أنك أنت الذي كنت  
 أمرت باتخاذها ، وأشرت بصنعها وأنت تكتم السر الذي فيها . . . (١) .

ومن السمات التي تلوح على سخريته : السجع الذي يختص به بعض  
عبارات السخرة كقوله : ونحب المعنى إذا كان حياً يلوح وظاهراً  
بصريح ، ( ١٧ / ٢٠ )

وفي موضع آخر : فقل نسمع . وأشرقتبع ( ٥٧ / ٢٤ )

## أبو العيناء

هو محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر بن سليمان ، ويكنى بأبي عبد الله ، وأصل قومه من بني حنيفة من أهل اليمامة ، ولحقهم سبأ في أيام المنصور ، فلما سار دياسر ، في قيد ، أعتقه ، فولأوهم لبني هاشم . وتروى روايتان إحداهما عن إساءة جده سليمان مخاطبة علي بن أبي طالب ، والأخرى عن غضب عبد الله بن حسن على جده خلاد في أيام المنصور ، وكل منهما دعا على جديه وعلى ولده بالعمى .

ولم يذكر شيء عن أبيه ، أو البيعة التي عاشا فيها اللهم إلا أن والده القاسم بن خلاد عاش في كورة بخوزستان حيث ولد ابنه محمد سنة ١٩١ هـ بعد نكبة البرامكة بسنوات ، وقبل وفاة الرشيد بسنتين . وعاش طفولته الأولى حين يبيع للأمين بالخلافة بعد وفاة أبيه في طوس ، وأضحى في السابعة من عمره لدى مقتل الأمين ، ونشأ أحول العين مخضوباً بالحرارة خضاباً ليس بالمشع ، فأمضى في الأهواز سنوات من طفولته ، ثم انتقل منها إلى البصرة فأمضى فيها بقية حياته وكل شبابه وجانباً من كهولته ، في عصر المأمون الذي استمر عشرين عاماً ، فأصبح أبو العيناء في ربيع السابعة والعشرين ، ثم عاصر المعتصم الذي ظل ثمانية أعوام ، فأضحى أبو العيناء في السادس والثلاثين ، ثم عاصر الواثق بالله الذي ظل خمسة أعوام لخازن أبو العيناء حدود الأربعين .

وحينذاك اعتلت عيناه فكف بصره بعد حول لازمه صباه وشبابه وكهولته . وكان ذلك بعد مغادرته البصرة إلى بغداد ليقضى فيها الشطر الثاني من حياته المديدة .

وقد تلقى العلم وهو في البصرة على أيدي جلة من شيوخها : فسمع من



أبي عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١١ هـ) وأبي سعيد الأصمى (ت ١٢١ هـ)  
وأبي زيد الأنصارى  
ومحمد بن عبيد الله اللعبي وغيرهم ،  
وكان يروى عن الأصمى كثيرا

وروى عنه أحمد بن محمد بن عيسى المكي وأبو عبد الله الحكيمى ،  
ومحمد بن يحيى الصولى ، ومحمد بن العباس بن نجيح ، وغيرهم ، وقرأ عليه  
الأخفش والقاضى أبو بكر بن كامل وجعفر بن قدامة الكاتب . ولم يسند  
من الحديث إلا القليل ، والغالب على رواياته الأخبار والحكايات .

ولم يعرف له من الأولاد إلا جعفر وعبد الله أو عبيد الله الذى به يكنى  
أما زواجه فلم تذكر منها إلا واحدة ورد ذكرها حينما حاول الزواج  
بأخرى من قرابته فأتى ذلك عليه أحد مولايه . وما يروى عن أخبار أسرته  
حديث دار بيته وبين أبيه بعنوان « أنا أول عاق بالبصرة » وهناك حديث  
دار بينه وبين ابنه حينما سأله - وهو مريض - ماذا تشتهي ؟ فقال : « يتم !  
أما ما عدا هذا ، فلم يذكر شئ . عن حياته الاجتماعية ، إما لتقص الأخبار التى  
رويت عنه ، والتى لم تهتم إلا بالناحية الطريفة من حياته ، وإما لعدم وجود أخبار  
تتعلق بالأسرة لهدوء حياته الزوجية هدوء تاما وهذا نادر بالنسبة لغيره  
من الأئمة ، فإنا بالمتابع بخص كمالى العيناء كذلك لم يرد شئ عن هيئته  
أو شكله أو جسمه ، إلا أنه كان قبيح المنظر ، وهذا النقص الكبير فى مثل  
تلك الأخبار بقليل - بل يضاف - من قيمة المحاولة التى نقوم بها لوضع أو  
تصور شخصيته تصورا أقرب إلى الدقة .

وقد التقى فى حياته بكثير من رجالات عصره : فعاصر ثمانية خلفاء  
بعد الأربعين هم المتوكل الذى استمر فى خلافته أربعة عشر عاما فامسى  
أبو العيناء فى السادس والخمسين ثم عاصر ابنه المنتصر الذى حكم ستة أشهر  
ثم المستعين الذى خلع بعد خلافة دامت أربعة أعوام فكان أبو العيناء فى الواحد

والستين ، ثم المعز الذي خلع نفسه بعد ثلاثة أعوام فأصبح أبو العيناء  
في الرابع والستين ، ثم المهدي الذي خلع بعد أقل من عام فأضحى أبو العيناء  
في الخامس والستين ، ثم المعتصم الذي ظل ثلاثة وعشرين عاما فأشرف  
أبو العيناء على الثامن والثمانين ، ثم المفروض الذي خلع نفسه في السنة ذاتها ،  
وأخيرا شهد ثلاث سنوات أو أربعا من خلافة المعتضد قبل وفاته سنة اثنتين  
وثمانين ومائتين أو سنة ثلاث وثمانين ومائتين في رواية جعفر بن أبي العيناء<sup>(١)</sup>  
والتقى بكثير من الكتاب وعلى رأسهم الجاحظ الذي صادقه ، وبالوزراء  
والقضاة كعلاء بن أبي دؤاد ، ومحمد بن عبد الملك الزيات وأبي الصقر إسماعيل  
بن بلبل الوزير ، والشاعر أبي علي البصير ، وصاعد بن محمد النصراني ، ومحمد  
بن مسكرم ، وإبراهيم بن المدبر ، وإبراهيم بن عتاب ، وإبراهيم المصعبي ،  
وأحمد بن سعيد الباهلي ، وغيرهم كثيرون<sup>(٢)</sup> .

ولا شك أن امتداد عمره حتى بلغ قرنا لا قليلا قد أتاح له فرصة الاطلاع  
على طائفة عمدة من مواكب الدهر ، رأى في خلالها ملوكا تعز وتذل ،  
وحكومات تحيا وتموت ، ، وأبطلا يسوقون الناس إلى الموت ثم يشربون  
من نفس الكأس ، ورجالا أكبروا النظام فأسسوا وبنوا ، وجماعات  
استجبروا الفوضى فهدموا وحطموا وكان لهذه الحوادث الجسام والمشاهد  
المتناقضة آثار جليلة عملت في نفسه عملما ، فكانت تجارب صقلته وحسنه  
فعرف ضعف الإنسان وإن تولى المناصب وارتقى أعلى المراتب ، وانحمرت

---

(١) انظر ثلاث مقالات بعنوان د أبو العيناء : من ظرفاء العصر العباسي ،  
د الاستاذ صبحي إبراهيم الصالح نشرت في مجلة الرسالة الأعداد من ٧٧١ الى  
٧٧٣ سنة ١٩٤٨ م .

(٢) انظر مقدمة كتابنا عن أبي العيناء وفهرس الاسماء فيه .

ثقت به بالناس وتمكنت ثقت به بنفسه ، ورأى بهجة الدنيا لا تستحق العناء لما  
قاسها بمصائبها التي تذكر صفوها ، فإذا هو يبكي على حرمانه ، ثم يزهد  
زهادة الفقير الضعيف ، ثم يتشكى إلى نفسه ويهتف :

تولت بهجة الدنيا	فكل جديد لها خلق
وخان الناس كلهم	فأأدرى بمن أثق
رأيت معالم الخير	تسدت دونها الطرق
فلا حسب ولا أدب	ولا دين ولا خلق

فنهض في تلك الآيات القلق والاضطراب بل التشاؤم يرين على قلبه  
وبخاصة حينما صدم بتلك الحقيقة التي كمنقل من جيل إلى جيل وهي سوء  
حال العلماء والأدباء إذا ما قيس بترف الأغنياء وما يعيشون فيه من بجموحة  
العيش ، فيفيض شعره حسرة وهو يقول :

من كان يملك درهمين تعلت	شفتاه أنواع الكلام فقلا
وتقدم الفصحاء فاستمعوا له	ورأيت به بين الوري مختلا
لولا دراهمه التي في كيسه	لرأيت به شر البرية حالا
إن البغي إذا تكلم كاذبا	قالوا : صدقت وما غلطت محالا
وإذا الفقير أصاب قالوا لم تصب	وكذبت يا هذا وقلت ضلالا
إن الدراهم في المواطن كلها	تكسو الرجال مهابة وجلالا
فهي اللسان لمن أراد فصاحة	وهي السلاح لمن أراد قتالا (١)

ميزاته :

وكان أبو العيناء من أحفظ الناس ، وأفصحهم لساناً وأسرعهم جواباً ،  
وأحضرهم فائدة ، شاعراً <sup>(١)</sup>

وقد ضرب به أبو حيان التوحيدى المثل في سرعة البديهة ساخراً  
بالمصاحب بن هباد حين قال : قد استدرك مولانا على الخليل في العروض ؛  
وعلى أبي عمرو في اللغة وعلى أبي العيناء في البديهة <sup>(٢)</sup> .

وقال المسعودى : وكان له من اللسان وسرعة الجواب والذكاء ما لم  
يكن عليه أحد من نظرائه <sup>(٣)</sup> . وقال عنه ابن خلكان : وكان من أحفظ  
الناس وأفصحهم لساناً ، وكان من ظرفاء العالم <sup>(٤)</sup> وبينه وبين أبي على البصير  
مكاتبات ومهاجاة ، وكذلك بينه وبين أبي هفان ، وله أخبار حسان وأشعار  
ملاح مع أبي على البصير وغيره .

قال الثوري : وهو ممن اشتهر بالبحون ، وله نوادر وحكايات مستظرفة  
ومراسلات عجيبة <sup>(٥)</sup> . وقال ابن كثير : له معرفة تامة بالأدب والحكايات  
والملاح ، أما الحديث فليس له منه إل القليل . وقال الحمصى : وكان  
أبو العيناء أحد الناس خاطراً ، وأسرعهم جواباً ، وأبلغهم خطاباً <sup>(٦)</sup> .  
والحقيقة أن أبا العيناء - كغيره من ظرفاء عصره كالحمدوني - لم يتم

(١) الفهرست ١٨١ ، تاريخ بغداد ٣ / ١٧٠ - وفیات الاعیان ١ / ٧١٩

(٢) معجم الادباء ٦ / ١٨١

(٣) مروج الذهب ٤ / ١٧٠

(٤) وفیات الاعیان ١ / ٧١٩ ومعجم الادباء ١٨ / ٢٨٦

(٥) نهاية الارب ٤ / ٨٤ ، البداية والنهاية ( طبعه السعادة بمصر سنة ١٩٣٢

١١ / ٧٣ ، نكت الهميان ٢٦٦

(٦) زهر الاداب ٢٨١

أحد بتسجيل حياته بدقة ، اللهم إلا ما يستشف من أخباره التي جمعت في عصره وبعد عصره ، ونثرت هنا وهناك في كتب الأدب ، ولكنها لا تغني شينا عن الإحاطة بشخصيته .

أخلاقه :

كان يشعر شعوراً تاماً بالنقص والحرية والآلم لفقد بصره وبخاصة بعد أن استمتع به في شبابه وكهولته ، وكذلك باحتقار الناس إياه أو الولوج بمشاكسته على الرغم من ذكائه المفرط : فلما يدل على ذلك ، ما سأله أحمد ابن أبي دؤاد : ما أشد ما أصابك في ذهاب بصرك ؟ قال : أبدأ بالسلام وكنت أحب أن أكون المبتدئ ، وأحدث ما لا يقبل على حديثي ، ولو رأيته لم أقبل عليه <sup>(١)</sup> .

فمن هذا نستشف تلك الحساسية ، وتلك الفسوة التي كان يتن تحتها من جراء فقدان بصره ، وما يروى في ذلك أن قينة قالت له : أنت أيضاً أعمى ؟ فقال لها : ما أستعين على وجهك بشيء أصلح من العمى

ونستطيع أن نورد أمثلة أخرى مما دار بينه وبين المتوكل حينما قال له : لولا ذهاب بصره لنا دمناء ، فألقمه أبو العيناء جواباً لا ذعاب جواب بشار الذي رده به على خال الخليفة المهدي <sup>(٢)</sup> .

ولما ولد له ولد ، ذهب له ابن مكرم ، فوضع له حجرأ بين يديه ، ثم انصرف . فلما أحس به ، سأل عن أحضره ، فقيل له : أبو البصير ولا شك أن مثل هذه العادة وغيرها مما يؤثر فيه تأثيراً بيناً : وقد شعر بذلك المتوكل حينما سأله ألا يكثر الوقعة في الناس ، فرد عليه أبو العيناء : إن لي في بصرى

(١) تاريخ بغداد ٣ / ١٧٤ ، ومعجم الأدباء ١٨ / ٢٩٠

(٢) الأغاني (طبعة دار الكتب المصرية الأولى) ٣ / ١٥٩

شغلا عن ذلك ا فقال المتوكل : ذاك أشد لحقدك على أهل العافية ا ولما قال له المتوكل : ما أشد مامر عليك من فقد بصرك ؟ رد مستهزئا : ما حرمت منه النظر إليك أبها الأمير <sup>(١)</sup> .

إذن فقد ولد العمى في نفسه - بالإضافة إلى ما استتبعه من مهاجمة الناس لياه ومحاولتهم العبث به - ولد في نفسه حقدا دفيناً ، وبخاصة أنه كان إلى من الأربعين مبصرا - فطبعته تلك الحالة بطابع خاص هو الاستعداد للنم الناس وهجائهم ، بل محاولته بدهم بذلك ، وخاصة أن الناس كانوا مولعين بمعاكسته ومضايقته والحز به ، ويدل على ذلك ما قاله المتوكل له : إن سعيد بن هبذ الملك يضحك منك . ويذكر النويرى حديث قتي أراد العبث بأبي العيناء فنهى عن ذلك ، ولكنه سأله : متى أسلمت <sup>(٢)</sup> ؟ وذكر في موضع آخر أن قتي من أبناء الكتاب - كانت فيه جرأة - قال له عابثاً : كل الناس لك - يا أبا العيناء - زوجة ، وأنت زوجة أبي على البصير ا فرد عليه أبو العيناء رداً مفجعاً <sup>(٣)</sup> . وقال له بعض الرؤساء : لو مت لرقص الناس <sup>(٤)</sup> طرباً ا وقد عبث به ابن منارة الكاتب في حضور أبي عبد الله ابن المربزان <sup>(٥)</sup> .

وقال له المتوكل ا في حديث طويل - إنك رافضى . وفي مجلس آخر : إنك قواد (مع أنه أعمى ) وذلك ليضحك الناس منه . وقال له رجل هاشمي :

(١) زهر الآداب ٧٩٣

(٢) نهاية الأرب ٨٤/٤

(٣) نهاية الأرب ٨٤/٤

(٤) المرجع السابق

(٥) جمع الجواهر في الملح والنوادر ١٨٣

إنك بغاء (١).

أما خلقه ، فلم يصفه لنا ماصروه وصفاً دقيقاً شاملاً ، ولا نعرف منه إلا ما نستشفه من خلال أخباره ، فأظهر ما يلاحظ عليه - كأغلب العميان - جراته حتى على المتوكل : يدل على ذلك ما قاله المتوكل - حينما قال له : قد والله اشتقتك - فقال : إنما يشفق العبد ، لأنه يتعذر عليه لقاء مولاه ، وأما السيد فتى أراد عبده دعاه . وكذلك سخر به لما قال : لولا ذهاب بصره لناقمناه . فقال : إن أعفاني من قراءة النقوش ورؤية الآلهة صلحت لذلك . وكذلك قال له بعض الوزراء : إنك أكثرت من ذكر البرامكة ، وبالغت في وصفهم بالجود ، وإنما هذا تصفيف الوراقين ! فقال له أبو العيناء : فلم لا يكذب الوراقون عليك (٢) ! وقد تجرأ على ابن الزيات فاضطر إلى حبسه (٣).

ولا شك أن هذه الشجاعة والجرأة من جهة ، وعقدة النقص التي تشعره بالحقق الدفين على الناس من جهة أخرى ، قد ولدت عنده من المراقبة ما جعله من الطبعي أن يحاول إزالتها أو التخفيف منها باستهتاره بالحياة والأحياء ، وقد ولدت فيه جرأته واستهتاره وخفة روحه صفة الجنون التي اتسمت بها أفعاله وكثير من نواحي سلوكه إزاء الناس . فأن يقول لجارية من الجوارى (أولمعتية) : أنا أشتى أن أرى . . . مع أنه كان قد جاوز الأربعين ، ومزقته الحبل بسر من رأى وعدم استحيائه أو خجله من الرد الذي رده : كل ذلك قد جعله يلوح للناس مستهتراً غير آبه بالأحياء ، ويدل على عدم توقيره لنفسه . ذلك الرد الذي رده على من سأله : لم اتخذت خادمين أسودين ؟

(١) زهر الآداب ٢٨٤

(٢) وفيات الأعيان ٧٩١/١

(٣) جمع الجواهر ٢٤٨

فقال : أما أسودان فلئلا أتهم بهما ، وأما خادمان فلئلا يتهما بي<sup>(١)</sup> .  
وكذلك موقفه من الكلام على أبيه حينما سأله المتوكل يوماً : أكان  
أبيك في البلاغة مثلك ؟ فقال : لو رأى أمير المؤمنين أبى ، لراى عبداً له  
لا يرضانى عبداً<sup>(٢)</sup> له ! واعتزاه بأنه أول من أظهر العقوق بالبصرة حينما  
حاج أباه لما قال له : يا بنى ، إن الله قرن طاعته بطاقتى فقال : وأن اشكر لى  
ولو الديك ، فرد عليه قائلاً : يا أبت إن الله ائتمنى عليك ، ولم يأمنك على  
فقال تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ، نحن نرزقهم وإياكم »<sup>(٣)</sup> .

خفة روحه :

وقد كان خفيف الروح حلو الحديث ، ويدل على ذلك حرص كثير من  
أهل عصره على حضور مجلسه وفي مقدمتهم الخليفة المتوكل الذى ألح عليه  
فى ذلك على الرغم من رده عليه . ولما غاب عنه قال له : قد والله اشتقتك .  
وضحبه رجل مفلس وهو فى جماعة ، فقسموا للرجل قسمة ، فاشتري دابة  
وكسوة ، فكان إذا حلف : يقول : وإلا فدائى حبيس ، وثيابى صدقة ،  
ثم قسموا له قسمة أخرى فاشتري داراً وخادماً فكان إذا حلف يقول :  
وإلا فدائى حبيس ، وثيابى صدقة وغلामى حر ، ودارى مقبرة . فقال  
أبو العيناء : طالت أيمانه ابن الزانية !

وأكل عنده سائل فأكثر ، فقال : يا هذا ، أطعمناك رحمة فصيرتنا رحمة !  
ودخل يوماً على المتوكل ، فقدم إليه طعام ، فغمس أبو العيناء لقمته فى خل  
كان حامضاً ، فأكلها وتآذى بالحوضة ، وفطن المتوكل له فجعل يضحك ، فقال :

(١) معجم الأدباء ٢٩٧/١٨

(٢) زهر الآداب ٢٨٥

(٣) زهر الآداب ٧٩٣ ، معجم الأدباء ٢٩٩/١٨



لا تلتنى يا أمير المؤمنين فقد بحث حلاوة الإيمان من قلبي ا وروى أبو العيناء  
أنه أدخل على المتوكل رجل قد تنبأ ، فقال له : ما علامة نبوتك ؟  
قال : أن يدفع إلى أحدكم امرأته ، فإنى أحبلها فى الحال . فقال :  
يا أبا العيناء : هل لك أن تعطيه بعض الأهل ؟ فرد عليه أبو العيناء : إنما  
يعطيه من كفر به ا

وبأت أبو العيناء عند ابن مكرم ، فحمل ابن مكرم يفسو عليه ، فقام  
أبو العيناء ، وصعد السرير ، فارتفع إليه فساؤه ، فصعد السطح ، فباخته  
رائحته فقال : يا بن الفاعلة : ما فساؤك إلا دعوة مظلوم (١) .

وكان من صفاته سرعة الإجابة التى تتطلب الجراءة ، والذكاء النادر ،  
وهو أشبه بحريز حينما كان يسلام على حبه للهراس فيقول : يسدؤ وننى ثم  
لا أعفوا ومن الغريب أن ابنه أيضاً كان سليط اللسان ، فقد قال لابنه وهو  
مريض : ما تشهى ؟ قال : اليتيم (٢) .

وقد أخص لما دخل على إبراهيم بن المدير وعنده . الفضل بن اليزيدى  
وهو يلقى على ابنه مسائل من النحو — فقال : فى أى باب هذا ؟ قال :  
فى باب الفاعل والمفعول به . قال : هذا بابى وباب الوالدة حفظها الله ا

(١) يشير الى الحديث المشهور عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال . قال  
رسول الله صلى الله عليه وسلم : د ثلاثة لا يجردهم عنهم : الصائم حتى يفطر ،  
والإمام العادل ، ودعوة المظلوم : يرفعها الله فوق الغمام ، ويفتح لها أبواب  
السماء ، ويقول الرب . وعزنى لأنصرنك ولو بعد حين .

(أخرجه الإمام أحمد ، والنزمدى ، وابن ماجه ، وابن خزيمة وابن حبان فى  
صحيحهم ما .)

(٢) جمع الجوامر ٢٣٠ .

فغضب الفضل وانصرف ، وكان البحترى حاضراً فصاغ هذه العبارة شعراً قللاً :

جل ما عنده التردد في الفأ هل من والديه والمفعول (١)

وقد كان وضاعاً : فوضع حديث فذلك ، وصنع خبر ابن رباح ، ونسبه المسعودى إلى أبي تمام خطأ (٢) .

وأخيراً نذكر كلمة الصفدى عن قوة حفظه إذ قال : قل أن وجد أعمى بليداً ، ولا يرى أعمى إلا وهو ذكى : منهم أبو العيناء وأبو العلاء .. والسبب الذى أراه فى ذلك أن ذهن الأعمى وفكره يجتمع عليه ، ولا يعود متعباً بما يراه ، ونحن نرى الإنسان - إذا أراد أن يتذكر شيئاً نسيه أغمض عينيه ، فيقع على ما شرد من حافظته . وفى المثل : أحفظ من العميان (٣) .

والظاهر أنه عاش أغلب حياته فقيراً ، لأنه سأل كثيراً ممن اتصل بهم وشكا لإيهم (٤) عوزة ، فقد دخل على الحسن بن سهل ، فشكا ضيقته ، فأمر له بخمسة آلاف درهم ، فقال : أصلح الله الوزير ، لا أستقل قليلك ولا أستكثر كثير (٥) .

(١) زهر الآداب ٢٨٢ .

(٢) مروج الذهب للمسعودى ١٩/٤ وانظر الخبر فى نهاية النص من أخبار أبي العيناء التى حققناها ، وانظر ما عرف عن الجاحظ من الوضع فى رسالة البخلاء لعله الجاحزى طبع دار المعارف الأولى ص ٤٠ .

(٣) تكتم الهيمان للصفدى ص ٨٣ .

(٤) أخبار الطراف لابن الجوزى ص ٥١ .

(٥) انظر طبقات ابن المقرب ص ٤١٥ .

فن أبي العيناء :

كان أبو العيناء راوية للأخبار والقصص ، ونوادير الأدب يتميز بخفة الروح ، وعذوبة الحديث ، ولاذع الكلام ، مما كان يزيل صدا القلوب ، بجلاوة طرائفه ونوادره وتهكمه ، فأقبل الناس عليه : يحدثنه ويسمعون منه ، وقد زاد ذلك مهارته في صياغة ما يروى بالأسلوب الذي يجب أن تصاغ به النادرة أو الفكاهة ويمش اسماعها النليس ، إذ ليس كل راو قادرا على حفظ النادرة أو صياغتها بالطريقة التي تهفو لها قلوب الناس ، وتعلمهم يقبلون على سماعها ، وقد لاحظت ذلك - وسوف أبينه في إبانه - حينما جمعت أخباره وحققها ووجدت أن بعض الرواة - في الكتب المتأخرة - يصوغون النادرة ويروونها بطريقة أو بأسلوب يفسدها كل الإفساد ويبعدها عن الروح الفكاهية مما ينفر من استماعها .

إذن ، فرواية النادرة في الحقيقة فن لا يستطيع إتقانه إلا من وهبه الله الميزات التي تعينه على ذلك ، وقد كان أبو العيناء من المبرزين في ذلك إلى حد أن قال عنه ابن خلسكان : كان من ظرفاء العالم أو قد بالغ في ثعته بذلك لفرط إعجاب الناس به ، كما يعجب الناس في العصر الحديث فيطلقون على أم كلثوم ، كوكب الشرق ، .

وذكرت متنزهات الدنيا بين يدي ابن دريد ، فقال : هذه متنزهات العيون فإين أتم من متنزهات القلوب ؟ قالوا : وما هي ؟ قال : كتب الجاحظ وأشعار المحدثين ، ونوادير أبي العيناء (١) .

وأكثر كتب الأدب رواية لأخباره ونوادره : معجم الأدباء (٢) لياقوت

(١) أدب الجاحظ للسندوني ص ٧٩

(٢) معجم الأدباء لياقوت ١/ ٨٢ ، ٦/ ١٨١ ، ٧٠٤٣٧٩ ، ١٧٧٧ ، ٨/ ٢٥٠ ،

١٢/ ٢٥٥ ، ١٦/ ٧٩ ، ٨١ ، ٨٩ ، ١٢٧٤٨١ ، ١٧٨٥ ، ١٧/ ٢٣٢ ، ١٧٨٨

ثم زهر الآداب (١) للحصرى . أما الأمالى للقائى والأغانى (٢) فلم يذكر  
فيهما إلا لهما . وفي معجم الأدباء ذكر أنه حدث عن وهب بن جرير ، وقعب  
الهاهلي ، وكيسان ، وخلف الأحمر ، والفتح بن خاقان ، والجاحظ ، والأصمعي  
وأحمد بن أبي دواد ، وإبراهيم بن رباح ، ومحمد بن يحيى .

ومما رواه أبو العيناء من النوادر قال : دخل أبو الصقر - قبل وزارته -  
على صاعد وهو الوزير حينئذ ، وفي المجلس أبو العباس بن ثوابة ،

فسأل الوزير عن رجل ، فقال : أنفى ( يريد : نفى )  
فقال ابن ثوابة : في الحرم .

فتضاحك به أهل المجلس ، فقام أبو الصقر مغضباً .

وروى أيضاً هذه القادة : استودع رجل عند إمام محلته قارورة زنبق ،  
لجده (٣) إياها ، وقام يصلى بهم في شهر رمضان ، وقرأ : د قالوا وأقبلوا  
عليهم ماذا تفقدون (٤) . . . وكررها . فقال الرجل : قارورة زنبق أو حكي  
أبو العيناء ، قال : اجتمعنا في مجلس ابن الأعرابي - ومعنا الجاحظ والجماز -  
تتناشد الأشعار ، وننذاكر الأخبار ، ووقع الجاحظ والجماز في كيد  
وملاحة . . . (٥) إلخ . وروى أيضاً قصة طريفة بين الجاحظ ومحمد بن  
عبد الملك الزيات (٦) .

(١) زهر الآداب للحصرى ١٧٢ - ١٧٣ ، ٦٩٨ ، ٧٨٨ ، ٨٨٢ ، ٢٧٧

(٢) الأغانى ٨ / ١٥ والأمالى ١ / ٧٠ ،

(٣) أى أنكرها .

(٤) الآية ٧١ من سورة يوسف

(٥) ثمار القلوب للتعاليى ص ٤٦٤

(٦) أدب الجاحظ للسندي ص ١٧١

الشعر :

لم يروله الرواة إلا مقطعات قليلة في الشعر الغزلى ، ذكرلة بأقوت ، في معجم الأدباء منها تسع مقطوعات قصيرة ، وذكر بعضها في كتب متفرقة مما اهتمت بأخباره .

أما كتابته فقد كان له رسائل إخوانية يبعث بها إلى إخوانه ، وغرضه غالبا هو استمناحهم بعض العطاء أو الهدايا ، وقد ذكرت فيها جمعت من أخباره رسالتين طويلتين إحداهما يذم فيها أحمد بن الحبيب على لسان الكتاب والرؤساء والقواد وغيرهم ، وهى طويلة ، والآخرى عن اها إلى بعض الأعراب يتحدث فيها عن أكثر أهل عصره ومنهم إبراهيم بن وباح الذى يقصده أبو العيناء بهذه الرسالة ، وقد جمع له الأستاذ أحمد زكى صفوت كثيرا مما أنشاه <sup>(١)</sup> . وقد قال فيه محمد بن مكرم : من زعم أن عبد الحميد أكتب من أبى العيناء إذا أحسن بكرم أو شرع فى طمع ، فقد وهم .

سخرية أبى العيناء :

ورث أبو العيناء سلاطة اللسان والجرأة عن أجداده <sup>(٢)</sup> وتمكنت طهارة عقدة الشعور بالنقص بسبب عاهته التى ابتلى بها بعد بلوغه الأربعين ، فزبد على ذلك ما جبل عليه من الاحساس الفكاهى Sense of Humour ، فكانت تلك العوامل هى الأسس القويمة التى جعلت منه الأدب الساخر المعاصر لصنوه فى ذلك ، وأغنى به الجاحظ .

(١) انظر كتابه (٢)

(٢) انظر كتابه (٣)

(١) جمهرة رسائل العرب - ص ١٥٢ - ١٥٥ - ٣٦٢ - ٣٢٣ - ٣١٦

(٢) انظر كتابه (٣)

٣٢٧ -

(٢) وقد مر خبر ذلك فى الصفحات السابقة من الكتاب . (٣)

وتنقسم سخريته قسمين : أولهما وهو الأكثر والأشهر ويظهر في ردوده الساخرة إما مبتدئا وإما مدفوعا إلى ذلك بسبب إغاضة الناس إياه ، لعدم ذكائهم وحقهم ، أو لسبهم إياه ومحاولتهم النيل منه ، أو لعدم إعطائه ما يطلب — كالخطيئة الشاعر المخضرم المشهور — ولذلك ردهلى المتوكل حينئذ سأله : إلى كم تمدح الناس وتذمهم ؟ فقال : ما أحسنوا وأساءوا . وقد قال له مرة أخرى : بلغنى عنك بذاء ، أو بلغنى أن فيك شرا .

والقسم الثانى من سخريته هو رسائل كتبها فى هجاء بعض الأشخاص ، كما حمد بن الحصب وعيسى بن فرخا نشاء وغيرهما .

#### (١) ردوده الساخرة :

وهو فى ذلك يشبه عامرا القمي وكان من كبار الحفاظ (١) والشاعر حافظا إبراهيم — شاعر النيل — الذى جرت النكتة الساخرة العامة على لسانه ، وكذلك الشيخ عبد العزيز البشرى (٢) والساخر الأيرلندى برناردشو ، وهو من هذا الجانب يعتبر الأديب القمي الساخر بالرد السريع من غير حاجة إلى تفكير طويل أو عمد ، لا يجلس الجلسة الطويلة ويقدم زناد فكره لى يرد على من غاظه ، بل يسدد إليه ويقذفه بالكلمة اللاذعة ، التى تساوى قصائد هجائية بأكلها ، فىكون لها من قوة الرنين ، ما يملأ المجلس ضحكا بلجلا ، وما يجعل الناس يخافون منه ويحشون هذه الخاصية اللسانية اللاذعة ، وقد سخر برناردشو من الشعب الانجليزى كثيرا بسبب احتلالهم بلاده فما قاله

(١) عاش بين سنتى ١٩ - ١٠٣ أو ١٠٩ هـ وكان شديد الذكاء ، سريع الجواب سديده ، وكان خفيف البدن صغير الجسم فقال متهمكا تعليلا لذلك : لقد زوحت فى الرحم ؟

(٢) مؤلف كتاب « فى المرأة » ، المطبوع فى دار الكتب المصرية سنة

لسيدة إنجليزية لم تكن تعرفه - في قطار - وقد سألته : « أظنك إنجليزياً من ... ، فرد عليها مريعاً : لا ، أنا (بني آدم) »<sup>(١)</sup> No , I am a human Being

أما أبو العيناء ، فكان صغور « شو » في هذا القبيل ، وقد استخدم عدة عناصر في سخريته كاللضمين وبخاصة الآيات القرآنية ، كما في الزادرة الآتية :  
« لما سلم نجاح بن سلمة إلى موسى بن عبد الملك الأصهباني ليستأديه مالا ، عاقبه فتلف في المطالبة . فلقى بعض الرؤساء أبا العيناء وقال له : ما عندك من خبر نجاح بن سلمة ؟ »

فقال : « فركزه موسى ففضى عليه ، وكان استخدامه هذه الآية وفيها اسم القاتل وما فعله بالضبط استخداماً رائعاً لا يتمكن منه إلا من أوتي حظاً كبيراً من الذكاء . »

وبلغت كلبة أبي العيناء السابقة موسى بن عبد الملك ، فلقية في الطريق وتهده ، فقال : « أبي تولع ؟ » والله لا قوم لك . فقال أبو العيناء ساخراً : « أريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس ؟ » ، وقيل له : « إن ابن نوح النصراني عاتب عليك . »

فقال : « وإن قرضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، . »

وقدم صديق له من بعض الأعمال السلطانية ، فدعاه إلى منزله وأطعمه ، وجعل الرجل يكثر الكذب . فالتفت أبو العيناء إلى من كان معه فقال :  
« نحن كما قال الله تعالى : « سماعون للكذب أكالون للسحت » . »

ودخل عليه يوماً مرسى بن عبد الملك - وعنده نجاح بن سلمة ، وأحمد

---

(١) آثرنا هذا التعبير العامي لأنه التعبير المستساع لترجمة الفكته .

(٢) تولع : استخف .

ابن إسرائيل - يسارانه ، فقال : يا أبا الحسن ، « تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » ، وقال نجاح : كذبت يا عدو الله . فقال : « لكل نبي مستقر وسوف تعلمون » .

وقال له يوماً المتوكل : إن سعيد بن عبد الملك يضحك منك . فقال : « إن الذين أجروا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » .

\*\*\*

وكان أحياناً يستخدم المفاجأة في السخرية ، فن ذلك قوله لصاعد : أنت خير من رسول الله ! فقال : ويلاك . كيف ؟ قال : إن الله تعالى قال له : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك » . وأنت فظ ، واسنا ننفض (١)

ونلاحظ استخدام الجناس والسجع في جملة الأخير ، بين ( فظ ، ننفض ) ، مما يزيد من السخرية كما يفعل أكثر الساخرين بالنكتة الجنسية أو التورية ، ومن هذا القبيل تلك القصة التي عث فيها بصاعد :

قال له صاعد يوماً : ما الذي أخرجك عنا ؟

قال . بنيتي !

قال : وكيف ؟

قال : قالت لي يا أبت قد كنت تغدو من عندنا فتأني بالخلة السرية ، والجائزة السنية ، ثم أنت الآن تغدو مسرفاً وترجع معتما ، فإلى من ؟ قلت : إلى أبي العلاء ذي الوزارتين ؟

قالت : أعطيك ؟

قلت : لا .

(١) مع مراعاة نطقها ظاء كما تنطق في بعض اللهجات ( في محمد والمراق )



قالت : أيسف عليك ؟

قلت : لا .

قالت : أفيرفع مجلسك ؟

قلت : لا .

فقالت : يا أبت « لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ؟ »  
ودخل على عبيد الله بن عبد الله بن طاهر - وهو يلعب بالشطرنج - فقال :  
في أى الحيزين أنت ؟

فقال : فى حيز الأمير - أيده الله .

وغلب عبيد الله ، فقال : يا أبا العيناء ، قد غلبنا ، وقد أصابك من الندب  
خمسون رطلاً ثلجاً ، فكن فى حيلتها .

قال : فقام ومشى إلى ابن ثوابة ، وقال : إن الأمير يدعوك .

فلما دخل قال : أيد الله الأمير ، قد جئتكم بجبل همدان وماسبذان ،  
نخذ منه ما شئت ا

• • •

وقد تكون سخريته بجملة قصيرة مضحكة كما فعل صاعد لما استوزر  
عقب دخوله من النصرانية فى الإسلام ، فلما صار إلى بابه قيل له : يهلى .  
فعاده ، فقيل يهلى فقال : « معذور ، لكل جديدة لذة » ا

وقال له ابن مسكرم : كان ابن الكلابى صاحب البر يدىحب أن يشم الحرا ؟

فقال : لو رأك « لترشفك » ا

وقال يوماً لرجل سلم عليه : من أنت ؟

قال : رجل من ولد آدم .

قال : ادن منى ، عانقنى ، فاظننت أنه بقى من هذا النسل أحد ا

وزحمه رجل على حمار بالجرس ، فضرب يده على آذان الحمار وقال :  
يا إنسان قل للحمار الذى فوقك يقول : الطريق !

ووعده ابن المدبر أن يحملاه على بغل . فلقبه فى الطريق ، فقال له : كيف  
أصبحت يا أبا العيناء ؟

قال : بلا بغل !

فضحك من قوله ، وبعث به إليه .

\* \* \*

ومن تصويره الساخر السريع ما قاله لابن الجواز المغمى يوماً وهو راكب  
على حمار صغير فقال : لقد ساء فى حين اضطررك الدهر إلى ركوب أصغر أولادك !  
وقال له يوماً : هل تذكر سالف معاشرتنا ؟

قال : إذ تضيئنا ونحن نستعفيك !

. . .

☞

وأكثر نوادر أبى العيناء الساخرة كان يقولها ساخراً بمن أرادوا أن  
يسخروا به : قال له أبو عبد الله بن المرزبان : يا أبا عبد الله ، لم لبست جباة ؟

قال : وما الجباة ؟

قال : التى بين جبة ودراعة ! .

قال أبو العيناء : إنك صفيد !

قال : وما صفيد ؟

قال : الذى هو ما بين صفعان وتديم !

وقال له الكافى كيف أكتب اللوم ؟ بلام أو لامين ؟

فقال : صور نفسك !

( م - هـ ) ( الصخرية )

وقال له السدرى: أشتى أن أرى الشيطان .

فقال : انظر فى المرأة !

ودخل يوماً على المتوكل ، فقدم إليه طعام ، فغمس أبو العيناء لقمته فى خل كان حامضاً ، فأكلها فتأذى بالحامضة ، وفطن المتوكل له فجعل يضحك .

فقال : لا تلمنى يا أمير المؤمنين : فقد بحث حلاوة الإيمان من قلبى !  
وكان يميل فى بعض الأحيان إلى استخدام الجفاس فى سخرياته كقوله لما تقنطر بعبيد الله فرسه : قتل الجواد الجواد !

وأكل عنده سائل فأكثر ، فقال : يا هذا أطعمناك رحمة فصيرتنا رحمة !  
وقدم ابن مكرم من سفر ، فقال له أبو العيناء : ما أهديت لى ؟  
قال : قدمت فى خوف .

قال : لو قدمت فى خوف لخصى<sup>(١)</sup> روحك !

ومن ردوده اللاذعة ما قاله للمتوكل حينما قال : لولا ذهاب بصري  
أبى العيناء لنادمناه .

فقال : قولوا له : إن أعفانى من قراءة النقوش ورؤية الأهله صبحت لذلك .  
ولما غضب من الجاحظ بسبب خطاب توصية طلبه منه وكتب له الجاحظ :  
« كسبى إليك سألنى فيه من أخافه لمن لا أهرفه ، فافعل فى أمره ما تراه ، والسلام ،  
عاب الجاحظ على ذلك ، فقال له : لا تنكر ذلك فإنها أمانة بينى وبينه  
إذا عنيت برجل .

فقال : بل أنت ولد زنا لم تكن قط لرشدة<sup>(٢)</sup> .

(١) وفى رواية : لخصت .

(٢) ولد لرشدة : ضد لونية .

قال . أتشتمنى ؟

قال : إنها أمانة لي عند الشفاء على إنسان !

وزار الجاحظ وهو متقلد ديوان الرسائل في خلافة إبراهيم بن العباس ، فلما جاء إلى الديوان ، جاءه أبو العيناء ، فلما أراد أن يخرج من عنده تقدم إلى من يحجبه أن لا يدعه يخرج ولا يدعه يرجع إليه إن أراد الرجوع . فخرج أبو العيناء يريد الانصراف ، فنزع من الخروج ومن الرجوع إلى الجاحظ ، فنادى أبو العيناء بأعلى صوته : يا أبا هيثم ، قد أرايتنا قدرتك ، فارنا عفوك !

وعما يشبه هذا ما قاله لمحمد بن عبد الملك حينما سجنه لكثرة كلامه : قد علمت أن الحبس لم يكن من جرم تقدم إليك ، ولكن أحببت أن ترى مقدار قدرتك هلى ، لأن كل جديد يستلذ ، ولا بأس أن ترىنا من عفوك حسب ما أرايتنا من قدرتك ، فأمر بإطلاقه .

فلقيه بعد أيام ، فقبل : يا أبا العيناء : ما تزورنا حسب نيتنا فيك . فقال : أما نيتك فتأكدة ، ولكن أرى أن الذى جدد الاستبطاء فراغ حبسك فأحببت أن تشغله بى !

وقال له عبيد الله بن سليمان : إن أخبار البرامكة فى السخاء وكثرة العطاء أكثرها من تصنيف الوراقين وأكاذيبهم .

فقال : ولم لا يكذبون على الوزير - أيده الله ؟ !

وكان أبو العيناء كثيراً ما يستعمل الجملة الاعتراضية الدعائية فى سخريته كالمثال السابق ، وكما قال للفضل بن اليزيدى وهو يلقي على ابن لإبراهيم ابن المدبر مسائل من النحو : فى أى باب هذا ؟ قال : فى باب الفاعل والمفعول به .

قال : هذا بابى وباب الوالدة - حفظها الله ! !

وقال له رجل : ما أنتن لإبطك !

فقال : نأفأك - أعزك الله - بما يشبهك !

ودخل أبو العيناء على بعض الرؤساء بكرة ، فاستسقى ماء ، فقال له الرجل : أنى هذا الوقت تمطش ؟

قال : أصلحك الله هذا أمان لك من الغداء !

ووعده محمد بن عبيد الله . بن خاقان أبا العيناء أن يرسل إليه دابة ، فتأخر عنه دون أن يبق له بوعده ، ثم لقيه ، فقال : كيف حالك يا أبا عبد الله ؟

قال : راجل ، أصلحك الله !

(٢) القسم الثانى من سخرياته ، رسائله :

وإذا تصفحنا ما بقى من رسائله المكتوبة ، وجدناه يهدف بها إلى طلب معونه من أحد الولاة أو كبار رجال الدول ، أو أنها هجاء مباشر أو سخرية .

ولا يعنينا فى هذا المقام إلا النوع الثانى .

ونلاحظ عليه ميله إلى الحدة أو التعريض حتى فى موقفه موقف السائل الذى يبخى العطاء ، كما قال لأبى الوليد بن أبى دؤاد :

« جعلت فداك ، مسنا وأهلنا العسر ، وبضاعتنا المودة والشكر ، فإن تعطنا أكن كما قال الشاعر :

أنا الشهاب الذى يحمى دياركم لا يحد الدهر إلا ضوؤة يقدر

وإن لم تفعل : فالسنا عن يلعمرك فى الصدقات ، فإن أعطوا منهارضوا ، وإن لم يعطوا منها إذا هم يستخطون . »

ويسدد سهام سخريته إلى أكثر أهل عصره ، ولكنه ينسبها إلى غيره لما له من باع طويل فى الاختلاق والوضع :

فإن ذلك أنه كتب رسالة يشنى فيها على إبراهيم بن رباح ، ولم يفرد

بالرسالة وحده ، بل عرض له في أثناء ذمه أكثر رجالات عصره ، وقد نسب هذه الرسالة إلى أحد الأعراب ، وزعم أنه لقيه في الصحراء ، وسأله عن أهل عصره ، مبتدئاً بالخليفة ثم بغيره من الولاة والقضاة والقواد والكتاب وبصوغ ذمه لطولاً في جبل قصيرة موجزة مسجوعة ، فما قاله عن ابن الزيات : ذاك رجل وسع الورى شره ، وبطن الأمور خبره ، فله كل يوم صريغ لا تظهر فيه آثار مخلب ولا ناب ، إلا بتسديد الرأي .

وقال عن الفضل بن مروان : ذاك رجل حشر بعدما قبر ، فله نشرة الأحياء ، ومعه خفوت الموتى . وقال عن أبي الوليد : إخاله كبش الزنادقة ، ألا ترى أن الخليفة إذا أمهله ، خضم <sup>(١)</sup> فرتع <sup>(٢)</sup> ، وإذا أمر بقتضه أمطر فأمرع <sup>(٣)</sup> .

وهناك رسالة أخرى أطول من السابقة ، تتضمن ذم رجل واحد هو أحمد بن الحصب ، وقد أنطق جل أهل عصره بذمه ، بطريقته السابقة وهي الجمل الموجزة ، المسجوعة غالباً : فقال على إسان أبي العباس محمد بن عبد الله بن طاهر : مازال يحرق ولا يرتع ، ومازالت منذ ارتفع ، أتوقع له الذي فيه وقع . وقال على إسان جعفر بن عبد الواحد : أحسن حسناته سيئة ، وأصغر سيئاته كبيرة <sup>(٤)</sup> .

وذمه على إسان هرون بن عيسى فقال : كانت دولته دولة المجانين ، خرجت من الدنيا والدين . وقال على إسان موسى بن بقا : لولا أن القدر

---

(١) الخضم : الأكل ، أو باقعى الاضراس ، أو ملء الفم بالاكل .

(٢) فرتع : أكل بشره

(٣) أمرع الوادى : أكله .

(٤) أى كبيرة من السيئات .

يعشى البصر ، لمأمنه فينا ولا أمر ! وقال على لسان صالح بن وصيف -  
شامناً هازناً - تجبر وتكبر وتذمر ، ودبر ، فدمر ! فساكن أبا العيناء هنا  
يلخص قصته الطويلة وتاريخ حياته مع الناس في أربعة أفعال ثم يختتمها  
بسخريته القدر به ، فدمر ، وقد استمد سخريته في أغلب هذه الجمل من  
قصرها ، وما زودها به من سجع لاذع كما جاء في الجملة السابقة ، وكما جاء على  
لسان سليمان بن يحيى : لم تنم له نومة ، لأنه لم تكن له في الخير همة ! وقال ساخرأ  
على لسان الفضل بن مروان : فما أجهل من يستجمله . أو لم يخبر بأمر يجهله ؟

وقال على لسان ميمون بن إبراهيم : لو تأمل رجل أفعاله فاجتنبها لاستغنى  
عن الآداب أن يطلبها ! وقال على لسان ابن أبي الشوارب : كان محمد المحسنين  
ويجتنب أفعالهم ، ويذم المسيئين ويعمل أعمالهم !

وحاول أبو العيناء أن يشنع عليه ، فقال على لسان إبراهيم بن المدبر : كنت  
يوماً عنده ، فقدم الطعام - وفيه هليون (١) - فأكب عليه ، فقلت : أراك  
راعباً في الهليون .

فقال : إنه يزيد الباه .

وقال على لسان آخر : كنت إذا وقع لفظه في سمعي ، أحسست النفهان  
في عقلي !

وقال على لسان بعض كتابه : كنت أرى قلم ابن الحبيب ، يكتب بما لا  
يصيب ، وقد نطق بنوك (٢) صجيب .

وأخيراً أذكر ما قاله على لسان خالد بن صبيح : هو كما قال : فلان ملا

(١) نبت حار رطب .

(٢) الذوك : الحق .

يساره سلحا ، وبسط يمينه سطحا ، وقال : أمطروا في سطحي ، وإلا لاطختكم  
بسلحي !

والظاهر أن هذه الرسالة أطول مما أورد في نثر الدرر ، لأنها أوردت  
بعض زيادات في جمع الجواهر في الملح والغرادر : ثم قال في نهايتها : وهي  
أطول من هذا .

° °

وسخر مرة من أبي الصقر الوزير حينما تأخر توقيعه عنه برسومه ،  
فكتب إليه . . . أما والليل إذا عسعس ، فالبنان ، ابنة الدنان ، وملامسات  
الحسان ! وأما والصبح إذا تنفس ، فالبنان للعنان ، وموامرات السلطان ،  
فمن أبو العيناء القرنان ؟ (١)

وسخر ذات مرة من صديق له تولى ناحية ، فكتب إليه : أما بعد ،  
فإني لا أعظك بموعظة ، لأنك غني عنها ، ولأنك أعلم بها مني ! ولا أرغبك  
في الآخرة لمعرفتي بزهدي فيها ! ولكني أقول كما قال الآخر :

أحار بن بدر قد وليت ولاية فكن جرذا (٢) فيها نخون وتسرق  
وكأثر تميما بالغنى إن للغنى لساناً ، به المراء الهيوبة ينطق

وأعلم أن الحياة فطنة . والأمانة خرق ، والجمع كيس ، والمنع صرامة ،  
وليست كل يوم ولاية ، فاذكر أيام العطلة ، ولا تحقرن صغيراً ، فمن الذود  
إلى الذود (٣) لابل ، والولاية رقدة فتنبه قبل أن تنبه !

(١) القرنان : الديوث المشارك في قرينته .

(٢) الجرذ : ضرب من الفأر .

(٣) الذود : ما بين الثلاثة إلى العشرة .



ولا يخفى مادسه أبو العيناء في هذه الرسالة الساخرة من تمسككم واستخدمه من أساليب السخرية المختلفة : كالاستشهاد ، والجرم والنهى والأمر الخارجة عن معناها كما يقول البلاغيون القدماء - إلى السخرية والهزء .

\* \* \*

وأخيراً - وليس آخراً - نورد سخريته عن طريق الوصف المضحك لهدية : إذ حمله عبد الله بن يحيى بن خاقان على دابة ، فأخذها منه ابنه محمد ، وقال : أبعت إليك بخير منها .

فتأخر عنه ذلك ؛ فآقيه ، فقال ، : ما خبرك ؟

فقال : بخير ، يا من أبوه يحمل ، وهو يرجل !

فقال : أنا أنفذ إليك بغلا فارها بخير تأخر .

فتأخر عنه . . . ثم آقيه ؛ فقال : كيف حالك يا أبا عبد الله ؟

قال - ساخرأ - راجل - أصلحك الله !

فضحك ، وأنفذ إليه بغلا ، وزعم أبو العيناء أنه غير فاره ، فكاتب إلى أبيه ساخرأ من هذه الدابة ، واصفاً إياها قائلاً : أمر لي بدابة تقف للذثرة ، وتعر بالبعرة ، كالفضيب اليابس عجفاً ، والعاثق المجهود دثفاً ، وقد أذكرت الرواة عروة العذرى ، والمجنون العامرى ، مساعد أعلاه لأسفله . . . إلخ

ومن الصورة المضحكة وصفه قائلاً : حباه (١) مقرون بسعالة ، فلو

أمسك أترجيت أو أفرد التعزيت ، ولكنه يجمعهما في الطريق المعمور ،

1

والمجلس المشهور، كما أنه خطيب مرشد ، أو شاعر منشد اثم يبالغ في إحاطة  
الصورة بهذا الإطار المضحك : تضحك من فعله النسوان : ويتأغى من أجله  
الصبيان ، فمن صائح بصيح : داوه بالطباشير ، ومن قائل يقول : نقوا له  
الضمير !

وينتقل إلى صورة مضحكة ثالثة : قد حفظ الأشعار ، وروى الأخبار ،  
ولحق العلماء في الأمصار . فلو أعين بنطق ، لروى بحق وضد ، عن جابر  
الجمفي ، وعامر الشعبي .

وهكذا نرى أبا العفاء بجملة الموجزة المريعة ، وبسجته للظريف الذي  
لا يسكاد يتركه ، يحاول السخرية بمحمد بن عبيد الله وهو يتندر بذلك البغل  
الذي أهداه إليه .

## ٥- الحمدونى

هو إسماعيل بن إبراهيم ، ويختلف الرواة فى اسم جده : أهو حمدون أو حمدونة أو حمدويه، وينفرد أبو الفرج الأصفهاني<sup>(١)</sup> (ت ٢٥٦ هـ) برواية حمدويه بضم الدال أو فتحها، وتابعه فى ذلك ابن خلكان فقال الحمدوى . وكان حمدونه أو حمدويه جده صاحب الزنادقة أيام الرشيد<sup>(٢)</sup> والغريب أن جميع ما بأيدينا من مصادر قد أجمعت على إهمال تحديد سنة وفاته وباتتلى الفترة التى عاش خلالها ولم تشف غلتنا بأخبار هذا الشاعر ، لىكى توضح شخصيته أكثر بما نراها الآن. غير أننا يمكن أن نحدد جزءا من الفترة التى عاش خلالها إذا رجعنا إلى الأخبار التى تذكر اتصاله ببعض شخصيات معاصرة له : فهو قد سمع دعبل بن على ( ت سنة ٢٢٠ هـ) يقول : أنا ابن قولى :

لا تمجى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبىكى  
وسمع أبا تمام ( ت سنة ٢٣١ هـ) يقول : أنا ابن قولى :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

وذكر خالد السكاتب ( المتوفى سنة ٢٣١ هـ أو سنة ٢٦٩ هـ) فى إحدى مقطوعاته البائية ، والتقى بالمبرد (٢١٠-٢٨٦ هـ) وبسعيد بن حميد سنة ٢٤٩ هـ وبعبد الصمد بن المعتدل الشاعر ( ت حوالى سنة ٢٤٠ هـ) والخليفة العباسى المتوكل فيما بين سنتى ٢٣٥ هـ ، ٢٤٩ هـ

(١) الأغاني ( طبعة دار الكتب المصرية ) ٢٠ / ٢٢٦ ووفيات الأعيان

( بيروت ) ٧ / ٩٥ والانساب للسمعاني ٤ / ٢٤١ .

(٢) زهر الآداب للحصرى ص ٥١٣ .

إذن نستطيع أن نحدد تلك الفترة مطمئنين بثلاثين عاما تنحصر بين سنتي وفاة دعبل سنة ٢٢٠ هـ وفاة المتوكل ٢٤٩ هـ ولا بد أن تمتد سنوات قبلها ويجوز بعدها أيضاً .

وما زلت أظن ظننا لا يرقى إلى مرتبة اليقين أن هناك صلة بينه وبين شخصية تدعى حمدون بن إسماعيل بن داود ، يقال إنه كان نديم المتوكل العباسي وتوفي سنة ٢٥٤ هـ

هـ. كذا ضمن معاصرونا علينا وعليه بإلقاء الضوء على شخصيته، فلم يذكره أمثال المبرد في كتبه مع أنه روى عنه أبياته في الشماة والطيلسان ، وكذلك عبد الله بن المعتز صاحب الطبقات ( ت ٢٩٦ هـ ) ، أو أبو الفرج أقرب المعاصرين له شبها به ، وما أجدر كتابيا كالآخاني أن يحيط به خبرا

ويبدو أن الحمدوني شاعر خاض في أكثر من غرض من أغراض الشعر : فروى له شعر غزلي ، ومنه قصيدة يعارض بها لامية تأبط شرا

إن بالشعب الذي دون سلع لقتيلا دمه ما بطل  
تبلغ ٢٨ بيتا يقول في مطلعها :

لك الحاظ مراض ودل غير أن الطرف عنها أكل<sup>(١)</sup>  
وله أبيات قافية منها :

زعموا أن من تشاغل بالحب سلا من حبيبه وأفاقا  
كتبوا ما كذا بلونا ولكن لم يكونوا فيما أرى هشاقا<sup>(٢)</sup>  
وروى له ابن الشجري في حماسته بيتين في العود<sup>(٣)</sup>

(١) المقدم الفريد ( طبعة لجنة التأليف ) ٢ / ٢٤ - ٢٦

(٢) المرجع السابق ٥ / ٣٤٣ .

(٣) حماسة ابن الشجري ص ٢٦٠ .

وله في « سعيد بن حميد ، وقد ولي ديوان الرسائل سنة ٢٤٩ هـ  
لبس السيف سعيد بعدما عاش ذا طمرين لا نوبة له  
إن لله لايات وذا آية الله فيما منزه (١)

والظاهر أنه كان فقيرا ، فكان يتكسب من مجونه ومن تظاهره بالحق  
ولذلك عدله بعض أصحابه على تحامقه ، فقال : حماقة نعوانى ، خير من عقل  
أعوله ، ثم أزد :

عدلونى على حماقة جهلا وهى من أعقلهم الذواحل  
حقيق اليوم قائم بيمالى ويموتون - إن تعاقلت - ذلا (٢)  
والظاهر أنه كان ماجنا ، وقد روى قصة لوطى وبناء معه ، جرت  
بغداد (٣) وأغلب الظن أن شطرا كبيرا من حياته كان بالبصرة ، لما لذلك نسبة  
إليها ابن خلكان (٤) .

وكان مواعا بالهجاء ، فرويت له أبيات نونية تعرض فيها للأشاعر الهجاء  
الحديث عبد الصمد بن المعذل الذى هدده فامتلا فرقا منه وقال :

ترح طعنت به وهم وارد إذ قيل إن ابن المعذل واجد  
هيأت أن أجد السبيل إلى الكرى وابن المعذل من مزاحى حارد (٥)  
ولكن للسخرية غلبت عليه ، فقال فى ثقل :

(١) الطبرى حوادث سنة ٢٤٩ هـ .

(٢) غرر الخصائص للوطواط ص ١٣٣ .

(٣) طبقات ابن المعتز ص ٣٧١ .

(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان فى ترجمة يوسف بن رافع ٨١/٦ ص ٥٢٩

(٥) الاغانى (دار الكتب المصرية) ١٢ / ١٣٥ وانظر هجاءه الذى رواه

الحصرى فى زهر الآداب ١٠٤٩ .

مشى ، فدعا ، من ثقله الحوت ربه وقال : إلهى زبدت الأرض ثانيه  
وقال :

سألتك بالله إلا صدقت      وعلى بأنك لا تصدق  
أتبغض نفسك من ثقلها      وإلا فأنت إذن أحمد<sup>(١)</sup>  
وقال فى قيمة ذات صنان :

من كان لا يدرى لها منزلا      فقل له يمشى ويسنشق<sup>(٢)</sup>  
ولكنه اشتهر بشعره الذى قاله متاجنا ساخر فى شاة سعيد ، وطيلسان<sup>(٣)</sup>  
ابن حرب .

أما شاة سعيد : فقد أهداها إليه سعيد بن أحمد بن جواسبيدان وكانت  
أضحية مزولة ، فاستوحى ما قاله أبو الخطاب البهلى فى خروف أهدى  
إليه وكان مهزولا<sup>(٤)</sup>

(١) زهر الآداب للحصرى ص ٤٤٢ وجمع الجواهر له ص ٣٢

(٢) ثمار القلوب للثعالبي ص ٨٢

(٣) الطيلسان من لباس المعجم أصله تالسان

(٤) وهذا هو رجز أبي الخطاب كما ذكره ابن الجراح فى كتاب الورقة ص ٦٢

أهدى إلينا معمر خروفا

كان زمانا عنده مكتوفا

يلفقه الكشيح والسفوف

والفارقون بعده، دوف

حتى إذا ما صار مستجيفا

أهدى فأهدى قصبا ملفوفا

جلل جلدا فوقه وصوفا

وكان من فعاله موزوفا

فقال عدة مقطعات . قال الثعالبي : كان المثل يضرب بشاة منيع ، ثم تحول المثل إلى شاة سعيد لكثرة ما قال الحمدوني فيها<sup>(١)</sup> : كذلك استوحى الحمدوني قول أبي حمران السلمي في طليسانه ، وكان قد أخلق حتى يلي :

يا طليسان أبي حمران قد برمت بك الحياة فما نلتذ بالعمر  
في كل يوم له رفا يجده هيات ينفع بجديد مع الكبر  
إذا ارتداه لعيد أو لجمعه تنكب الناس أن يبلى مع النظر<sup>(٢)</sup>

والطليسان الذي ظفر بتهكم الحمدوني هو طليسان أهداه إليه أحمد ابن حرب المهلبى - وكان من المنعمين عليه المحسنين إليه - فلم ير ضه ، قال أبو العباس المبرد : وأئمتنا فيه عشر مقطعات استجليا مذهبه فيها ، فجعلها فوق الخمسين ، فطارت كل مضار ، وسارت كل مسار<sup>(٣)</sup> وروى ابن شاعر الكتبي أنها ممتا مقطوع<sup>(٤)</sup> ، ولكن الأصح هو ما رواه ابن المعتز في طبقاته قال : وله فيه قريب من مائتي بيت في خمسين قطعة تغنى معانيها<sup>(٥)</sup> وقد جمعت هذه المقطعات وأحصيتها فوجدتها ثمانى مقطعات في الشاة ، وتسع وعشرين قطعة في الطليسان تبلغ كلها حوالى ١٦٠ بيتا . وقد بذلت جهدى فى استقصاء جمعها وتحقيقها ، وسوف أذيل بها هذا البحث .

ويعتمد الحمدوني فى تهكمه بالشاة أو سخريته بصاحبها سعيد ، على المبالغة فى وصفها بالهزال ، وجعلها تتغنى دائما - كما أنها عاشقة - بحبيبها ،

(١) ثمار القلوب ص ٣٠١ .

(٢) المرجع السابق ، ووفيات الأعيان ( بيروت ) ٩٨/٧ وفوات الوفيات

١٧/١ .

(٣) ثمار القلوب للثعالبي ص ٤٨٢ .

(٤) فوات الوفيات ١٧/١

(٥) طبقات ابن المعتز ص ٣٧١

ألا وهو العلف الذى حرمت منه ، حينما تراه، تتحرك عواطفها وتجيئ  
فتفتنى بيت بضمن من إحدى الألفان المشهورة فى عصره ، وبهذا يشخص  
الشاة، ويجعلها عاشقة مدنفه ، ولهذا فى « تضر » أى مهزولة دائماً وليست  
إلا جلد أو عظاما .

والثقافة الدينية تسيطر عليه دائماً فيتكىء عليها ويتخذها مادة  
لخياله وتشبيهه : فابن سعيد يصبح من وراء الحجرات كشاعر بنى تميم الذى  
صاح بالنبي ﷺ أن يخرج إليهم لمنافرته ومفاخرته، ويذكر قصة أصحاب  
الجنة ، والساوى الذى عبد العجل ، ويستخدم آيات كثيرة فى التضمين :  
« الروح من أمرى ربى » ، « كالكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » ،  
« أنذا كنا عظيما فخره » ، وهناك مقطوعة رائية أقامها على تضمين خمس  
آيات من سورة القمر هى ١٩ - ٢١ - ٦ - ٧ - ٢٩

وهو يثبت نفاذ شاعريته بعقريته فى اقتناص التشبيه الرائع : الطيلسان  
أقدمه أسير الله فى الأرض . يشفق عليه إشفاه على عرضه . كان شراعا أسفينة  
نوح . كالخليع الذى لا يطيع الرفاء .  
كالطور الذى تجلى له الله فذكى مثل آل فرعون فى العرض على النار بكرة  
وعشبة ، وقد فطن إلى خلود المشبه به إذ هو من القرآن الكريم فقرنه بما  
شبهه به فى شعره فغدا رائعا أخاذا . . .

ولا يكاد يترك الفكاهة فى تمكمه بل تسرى فى كل مقطوعة سريان النسيم  
العليل الذى ينعش الأبدان ويوقظ فيها الحياة : فالشاة حينما تبصر علفا  
فى نومها تنفى :

يا ما نعى لذة الدنيا بأجمعها      إنى ليفتنى من وجهك النظر ا



وكذلك في مبالغته عن الطيلسان :

لقد حالف الرفاء حتى كأنه يحاول منه أن يعمله الرفوا !

ولا يترك الظرف وإرسال النكتة اللاذعة بديهة وقد مر بابن حرب - صاحب الطيلسان - وعلى كتف الحمدوني وسادة ، فسأله ابن حرب : لآى شىء هذه يا حمدوني ؟ قال : أرفع بها طيلسانك ! فقال : ما تزال تهجوننا منشورا وموزونا<sup>(١)</sup> .

وهو خفيف الروح دائما أبدا في أبياته ، فبعد أن يذكر أن الطيلسان كان مجلبة لنعم كثيرة بتندره به ، يقول :

ولكم قد حاز لى أردية نترى وقصا  
كان دهرنا طيلسانا ثم قد أصبح شعا

وتناسب الحركة في أبياته حريصا على الواقعية التهكية التى تزيد أبياته طرافة وهى التى نعمت بالشخيص الساخر دائما :

فأناها مطعمها فأتته لتعتلف ا  
فتولى ، فأقبلت تنفخ من الأسف  
ليته لم يكن وقف عذب القلب وانصرف

وهاك بيتين رائعين من هذا القبيل :

فإذا الملا ضحكوا بها قالت لهم  
لا تهز أوا بى ، وارحمونى ترحموا

مرت على علف ، فقامت لم ترم  
عنه ، وغنت ، والمدامع سجم

والحمدوني حاذق يوفر لشمرة الذبوع بألفاظه العذبة، وبكلماته الرقيقة،  
ويتوج ذلك باستخدام البحور المناسبة لذلك التمهك الضاحك فجعل  
مقطعاته من الخفيف ، ومجزوء الرمل ، والمنسرح ، والمتقارب وكذلك  
يستخدم القافية الساكنة غالباً .

## أبو العلاء

أحمد بن عبد الله بن سليمان : سليل أسرة تفوخية يمنية معروفة ، إذ اتصل فيها العلم ، وسار المجد في ركبهم جيلا بعد جيل ، وداول الله بينهم منصب القضاء آباء وأحفاداً فكان منهم جده وأبوه وخاله وابن أخيه ، وتوارث هذا البيت الكريم العلم والشعر والأدب ، فكانوا أشبه بأسرة زهير في الجاهلية ، وجريير في الدولة الأموية .

ولد أبو العلاء بمرة النعمان بحلب سنة ٣٦٣ هـ وأصيب بالجدري وهو في الرابعة ففقد نور عينيه ، وأمسى كفيف البصر يلفه الظلام في روحاته وغشواته فكانت تلك هي الصدمة النفسية الأولى في حياته ، ومع هذا فقد أخذ ينهل من معين العلم اثر ينبع من بيته الكريم ، يغدقه عليه أبوه الذي ظل له خير هاد حتى أصيب فيه إذ اختاره الله إلى جواره وهو في الثامنة والثلاثين من عمره سنة ٣٩٥ هـ فكانت تلك هي المحنة النفسية الثانية التي امتحن بها . . . وأبى عليه طموحه وهمته أن يستكين ، وقد عوضه الله عن حبيبتيه صفاء ذهن وحدة ذكاء وشرها لا تقتاص العلم بكل جوابه وصنوفه فكان هذا حافزاً له إلى الاتصال بالبيئات العلمية المختلفة برشف من معينها الذي لا ينضب ، فكان ممن اتصل بهم علماء حلب : هؤلاء الذين ورثوا النهضة العلمية الكبرى التي خلفها عهد سيف الدولة الزاهر ودولته الحدية على العلم ، وكذلك ولى وجهه شطر أنطاكية واللاذقية وطرابلس ، ولم يجد بأساً من أن يسمع من أحد رهبان دير في اللاذقية شيئاً من فلسفه القدامى ولاهوت النصارى مما يقال إنه كان ذا أثر في بذر الشك في نفسه فيما بعد .

وقد عاش في بيئة سياسية مضطربة : إذ كانت حلب نهبا للطامعين من الحمدانيين والفاطميين والروم وأبناء مرداس ، فاهتز الكيان الاجتماعي والاقتصادي لتلك المقاطعة من الشام بسبب هذا الاضطراب ، وكان لهذا من غير شك - أثره القوي ، وبخاصة في شخصية مرهفة الحس يقظة الوجدان كشخصية أبي العلاء .

عاش شاعرنا الكبير تلك الفترة من حياته الأولى يرشف وينهل ويعمل من معين العلم ما وسعه الجهد ، وأعانته الطاقة ، وما أتاحته له فرصه المختلفة : ولعله لم يختلف عما حوله إلا في شدة حساسيته ، وما يتبع حرمانه من نور عيفيه ، أما فيما عدا هذا فلم يكن حسن العشرة ، يجالس الأصدقاء والخلان ، يشركهم أحاديثهم ، ويبادلهم تفكيرهم ، ويأخذ من أطراف الحياة بنصيب ما ، حتى لعبة الشطرنج لم تعدم فيه ، مارسها لها ، وأغلب الظن أنه كان مكفي السعي وراء العيش إذ كان له وقف يدر عليه ثلاثين ديناراً في السنة يقتسمها هو وخادمه الموكل به . . . .

وهكذا سار في درب الحياة حتى أشرأبت عنقه إلى حاضرة النور والعلم بغداد فولى وجهه شطرها وهو في الثامنة والثلاثين من عمره في أخريات عام ٢٩٨ هـ فأقام فيها سنة وسبعة أشهر : حضر في خلالها مجالس العلماء والرواة والشعراء فكانت فترة خصيبة من سنى حياته مفعمة بالنشاط العلمي والفكري ، فترة مباركة عكسها عليه بعض العلماء ومنهم الشريف المرتضى الذي قسا عليه فأمر جلأساء أن يجرّوه «إصطيلاً»<sup>(١)</sup> من قدميه ، وأقصد زاد قلقه النفسي - بالإضافة إلى إحساس بالغربة يستكن في ضميره - حقيقته إلى رؤية أمه التي امتلأت أحاسيسه لطفة على لقائهما : كل هذا قد شده إلى الإياب ، ولكن القدر امتحنه بالحنة الكبرى الثالثة بل هي ثالثة الأثافي ،

---

(١) الإصطيل هو الأعمى كما نطقها الشريف المرتضى .

لإذ وصل إلى المعرة فوجد أمه قد انتقلت إلى الرقيق الأعلى : حينذاك تبدلت حاله ، وبدأ الطور الثاني من حياته سنة ٤٠٠ هـ تقريباً مفعماً بسكرالعية الدنيا وكل ما فيها ، معتزلاً الناس إلا من يتردد عليه من الطلاب ومن يريدون أن يتزودوا بنوره ، متشامخاً ، وقد انطوى على نفسه رهين الحبس في بيت لا يكاد يفارقه طوال هذا الشطر الثاني من عمره الذي امتد حتى الخامسة والثمانين حيث ودع الدنيا في سنة ٤٤٩ هـ .

وقد تجلّت فلسفته وتأملاته العميقة ونظراته الثاقبة في كل نتاجه سواء في ديوانية سقط الزند أو اللزوميات ، أو رسائله التي منها « الغفران » تلك التي دجّجها رداً على صاحبه الحلبي ابن القارح الذي أرسل إليه رسالة طالباً منه ، راجياً إياه أن يرد عليها ، وذلك حوالي سنة ٤٢٤ هـ .

أما ابن القارح هذا فهو علي بن منصور الحلبي يكنى أبا الحسن ويلقب دوخلة : كان شيخاً قيمياً بالنحو حافظاً لقطعة من اللغة والأشعار ، راوية للأخبار ، وكانت معيشته من التعليم بالشام ومصر : فأدب بها ولدى الحسن بن جرهر القائد وكانا مختصين بالحاكم ، وكذلك أدب أبا الحسن المغربي الذي وزر ببغداد ، وسامت العلاقة بينهما - لسبب غير واضح - إلى حد أنه أمطره بأهاج كثيرة جعلت أبا العلاء المعري يذكر ابن القارح - حينما ذكره - مذسوباً إلى هجائه ذلك بقوله عنه « أعرفه خبراً ، هو الذي هجا أبا القاسم بن علي بن الحسين المغربي ( ٣٧٠ - ٤١٨ هـ ) ومع هذا فقد كان ابن القارح على علاقة حسنة بوالده أبي الحسن المغربي بمصر ، فأنى عليه في رسائله بعكس موقفه من ابنه الذي يرى أبو العلاء مستهجنًا هذا الموقف مما يستشف من رسالة الغفران في قسمها الثاني الذي رد فيه علي ابن القارح بعض مزاعمه .

وعما هجاه به ابن القارح قوله :

لقيت بالكمال سترًا على فقصك ، كالباني على الخصر  
فصرت كالسكنف إذا شيدت بيض أعلاهن بالخص  
جامرة الدنيا بلا غرة ويا طويس الشوم والحرص  
قتلت أهليك وأنهت يد ت الله بالمرسل تستمعي

ويقول يافوت عنه أيضا : وكان بينه وبين شخص يدعى «الكسروي»  
مهاجرة ومهاجرة ومماظنة وشعره يجرى يجرى شعر الملعدين ، قليل الخلاوة ،  
خاليا من الطلاوة . ولم يتزوج ولا أعقب . ولد بحلب سنة ٢٥١ هـ ، وكان  
موجودا حتى سنة ٤٦١ هـ (١) ، فإن صح هذا فيكون قد عمر حتى جاوز  
المائة عام .

ومبلغ علمي أن الدكتور الفاضلة محمقة الغفران لم تتعرض لشخصية  
ابن القارح بالدراسة المستفيضة فيما يتصل من مؤلفاتها حرل الغفران أو  
أبي العلاء ، فألمحت إليها في دراستها للغفران ، دون أن تتعرض لها  
بالفصيل ، واهتمت بشخصية أبي العلاء ، المحروم ، وبالظروف السياسية  
والاجتماعية والاقتصادية التي اكتشفت عصره وحياته ، دون أن تلمح ضوء  
على ابن القارح ، وهو الذي لا بد وأن يكون الباعث الأول الذي حرك  
أبا العلاء إلى ما خاض في دروب رسالته ، وما جعله يتقمص شخصية الهازي .  
الأكبر من الدنيا ومن فيها ، واكتفت بالشعور بنحوه بالاشمئزاز الحاد لما ذكره  
في آياته الصادية السالفة الذكر وما توجيه به كلمة «السكنف» من تقزز حاد ،  
وكذلك نعتته في كتابها الذي حاولت فيه جاهدة عد الرسالة «مسرحية مكتملة  
البناء» (٢) ، نعتته بالخيانة إذ انضم إلى الحاكم الذي انقلب عليه وقلب له

(١) معجم الادباء لياقوت ٨١/١٥ -- ٨٨

(٢) صدر الكتاب في بيروت سنة ١٩٧٦ م .

ظهر المجن فباء بغضب الناس وسخرية الدهر منه ، وتغير الحاكم وقلبه له  
ظهر المجن : أغلب الظن أن تلك هي شخصية ابن القارح في مخيلة الدكتور  
محقق الغفران منذ سنة ١٩٥٠ م ، تلك المحققة التي ضربت صفحا عن بيتين  
أوردتهما ياقوت في كتابه معجم الأديباء ضمن ما اختاره له من أبيات مصدرة  
بأنها في المداعبة ، وهي في ظني تعد مفتاح شخصيته .

وقد تكون السبب الأقوى - إن لم أكن مخطئا - في سخرية أبي العلاء  
بإبن القارح . ويؤيد زعمي اقتصار السيوطي <sup>(١)</sup> في البغية على هذين البيتين  
ولم يرو غيرهما ، كأن البيتين خلا - حتى عصر السيوطي على الأقل - أشهر  
ما يروى لابن القارح وأفضل ما يمثل شخصيته ، ولا بأس من إيرادهما على  
الرغم ما نشعر به من غضاضة في إيرادهما :

أين من كان يوضع الآ ... لإجلا لا على الراس عنده ويأس  
أين من كان عارفا بما يدبر الآ ... الكبار ا مات الناس ا ا

وقد قصد ابن القارح في البيتين - كما نرى - إلى التفكك ولا شك ، أو  
إلى هجاء مخفئ ، أو إلى التعرض إلى لعب ، وأغلب الظن أنهما قد صكبا -  
فيما وصل من شعر ابن القارح وأدبه - أسماع أبي العلاء ، مع ما عرف به  
من هجو والوزير أبي القاسم المغربي ، والذي نعته بهجوه أبو العلاء في الغفران ،  
كأن ابن القارح لا يعرف إلا بهذا الهجو ، بالإضافة إلى هذه النقيصة الحاققة  
التي تستقط صاحبها حينها يأخذ جانب حاكم ظالم وينأى بجانبه من رعية  
مظلومة بغية وفده ، وإذا بالحاكم يتنكر له ولا يعطيه سؤله ، بل ينتقم منه  
بحرمانه ، كل هذا ولا شك كان هالة أحاطت بصورة ابن القارح وشخصيته

في مخيلة أبي العلاء حينما قرئت له رسالة ابن الفارح : فنهاله تمحذاق هذا الشيخ الكبير ذي السبعين عاما أو ما ينيف عليها ، في رسالته ، ومحاولته إثبات مقدرته اللغوية من جهة ، ولكي تعلو منزلته في عالم الأدب إن هو ظفر بشيء أبي العلاء عليه من جهة أخرى ، متلفها ، بل ملحا على تلقي جواب أبي العلاء عليها إذ ختمها بقوله : وأسأله - أدام الله عزه - تشريني بالجواب عنها ، فإن هذه الرسالة - على ما بها - قد استحسنيت وكتبت عني وسمعت عني ، وشرفتني باسمه - وطرزتها بذكره ، ، .... ، وإذا جاء جواب هذه ، سيرتها بحلب وغيرها إن شاء الله . . . ،

وهكذا ندرك الظروف النفسية الخاصة التي حدث بأبي العلاء إلى أن يدبج رسالته متعاليا على هذا الشيخ الفاني المغرور - ابن الفارح - الذي أحاط المحون باسمه ولا شك - بل ربما لطنحه - بسبب هذين البيتين الداعرين اللذين اكتفى السيوطي بالتمثل بهما عنوانا على شعره وربما على شخصيته ، وأغلب الظن أن شعرا آخر من هذا القبيل قد عرف له ولكنه ضاع فيما ضاع من شعر كثير .

والغريب أن ابن الفارح - في أواخر رسالته - يروي بدون حياء نادرين لأجدامنا تتعلق بأبنة أخته سرقت ثلاثة وثمانين ديناراً له . فلما هددها السلطان أخرجت إليه بعضها وقالت : والله لو علمت أن الأمر يجري كذا ، كنت فتلته ! وكان الأجدر به أن يستحي من ذكر ما بمس عرضه هكذا ، ويعمل بقوله : وإذا بليتيم فاستتروا ، ، ولم يفك أبا العلاء أن يتهم به فأطال تهكمه بالشيخ وبالثمانين ديناراً وبذكره لهذه الفادرة في ضحكة طويلة استغرقت عدة صفحات من أواخر رسالته .

أما الأخرى فتلك الوديمة - وكانت جارية - استودعت صديقا ، فأراد



أن يجرها ، فلاكتشف أنها ثيب وليست بكرًا ، كما لدمى صاحبها :  
وهكذا نقرأ ناهرة باردة أشبه بالغيث ، ومع هذا فليس لها موضع يدعو  
إلى سردها في الرسالة ، وإن دلت على شيء في ظني - وأغلب الظن كذلك  
عند أبي العلاء - فإنها تدل على صدورهما عن شيخ مهتر لم يرح حرمة لمن  
ولا لمساكنة أبي العلاء حتى يحمو رسالته بهذه الأباطيل التي كان يعرفها أبو العلاء  
عن البشر وعن ابن القارح ولا شك في شبابه أو كهولته ، ولكنه ولا شك  
يستبعد صدورهما عن شيخ كابن القارح ذي السمين عاماً (١) وهو الذي كان  
يجدر به أن يكون أكثر وقاراً وأبعد همة ، إلا إذا كان قد خرف وأهتر.

ولا تحوى الرسالة موضوعاً خطيراً ، ولكنها تحوى محاولة لإظهار البراعة  
اللغوية والأسلوبية من خلال اللفظ المختار والجملة الرصينة أحياناً ، والاستطراد  
إلى أفكار جانبية ، وعرض لما يخزنه عقل ابن القارح من بعض مصطلحات  
طائفة من العلوم الكيماوية والرياضية وغيرها ، والاستشهاد بالأمثال ونصوص  
الشعر المحفوظة والأخبار الأدبية التي كان يحصوها منها كثيراً ، وهو لا ينسى  
ما خلق على روح العصر من محسنات بديعية أظهرها السجع كما جاء فيها :

... بعد أن منيت بربضها بالدرخمين وأم حبو كرى والفتكرين ،  
بل رميت بأبد الآباد والناهية التآد ... ،

وتبدو الرسالة متقطعة الاوصال في بعض أجزائها مما يسبب خللاً فيها  
ويغشيها بسحابة من الغموض كما ظهر في الصفحة ٢٢ من طبعة دار المعارف .

ويسوق خبر رسالة أبي الفرج الزهرجى السكاكب ، تلك الرسالة التي  
حملها إلى أبي العلاء ، ولكنها سرقت منه ، فيظهر استيائه من ذلك ، وشكوى

---

(١) انظر قول ابن القارح في رسالته ص ٤١ : فلما بلغت عشر الخافين .

أمره ، وبث شقوقه ، وإطلاعه طلع حجره وبجره . . . طلع ، ثم يستطرد  
إلى بيت للمنتبى :

أذم إلى هذا الزمان أهله . .

ويتقد شاعر العربية الكبير الذى ادعى النبوة ، ويخرج من ذلك مستطرداً  
إلى الحديث عن الزنادقة حديثاً مطولاً ، ثم سن الشيخوخة وأنها بلاء ، ربما  
كانت عاقبته صروف الفوائى عنه ثم يستطرد منه إلى صبر النبي - صلى الله  
عليه وسلم - على البلاء فى حديث طويل ، ثم عرج على حفظ نفسه ، ومنه  
خرج إلى الدفاع عن نفسه وتبرئها مما اتهمه به أبو العلاء من هجاء الوزير  
أبى القاسم المغربي وما دار بينه وبين أبيه فى مصر عنه ، وأخيراً يثنى على  
أبى العلاء رسائله وعقائل ألفاظه وحفظه .

#### السخرية فى رسالة القفران :

بدأ أبو العلاء يرد على ابن القارح واضعاً نصب عينيه أو فؤاده الذكى  
وحافظته النادرة كل ما تضمنته الرسالة من أفكار وما ظهر به الكاتب من  
تقمر فى الأسلوب فأول المعرى أن يخمده ويظهره قزماً إذا ما قرن به :

ففى أسلوب أبى العلاء حمد ضخم لألفاظ أحسن غرائبها وحوشيتها  
ووعورتها فأول شرح معظمها ، بادئاً إياها بقوله : قد علم الجير - الذى  
نسب إليه جبرئيل - أن فى مسكنى حماة . . . ويستطرد إلى معانى الحماة ،  
ثم إلى معانى الأسود . . . وهكذا يستمر حتى يصل إلى ذكر رسالة ابن  
القارح ويبدأ فى السخرية منه ذاماً إياها بأسلوب المدح ، أو مادحاً إياها  
على الحقيقة ، تهنيئاً للسخرية به : « عجبت من استأق عقودها الفخخرة ،  
ومثلها شفع ونفع ، وقرب إلى الله ورقع ، وألفيتها مفتحة بشميد ، صدر عن

بليغ مجيد... وفي قدرة ربنا - جلت قدرته - أن يجعل كل حرف منها  
شبح نور ، لا يمتزج بمقال الزور... ولعله سبحانه قد نصب لسطورها  
المنجية من اللهب معاريج من الفضة أو الذهب، تخرج بها الملائكة من الأرض  
الراكدة إلى السماء.... وهكذا يلجأ أبو العلاء إلى خياله الرائع وإلى السجع  
في بث سحره : سطورها تنجي من اللهب.... معاريج من الفضة أو  
الذهب.... وأى قيمة ضخمة للرسالة حتى تخرج بها الملائكة... ؟

ويبدأ أبو العلاء في إدخال شيوخه ابن القارح جنته ثم جحيمة عارضا  
ما فهم ما من ألوان النعيم : أنهار من غسل مصفى... خمر... أباريق... أسماك  
دنان الخمر... مقابلا بين ذلك وما قيل فيها من شعر في الدنيا الفانية ،  
وكذلك بعض ألوان العذاب ، ويجعله يلتقى بعشرات من الشعراء والفحاة  
والرواة وبعض الشخصيات ذات المقام العالي كعلي بن أبي طالب وفاطمة  
الزهراء رضي الله عنهما وقاضى حلب... وغيرهم<sup>(١)</sup>.

أما القسم الثاني من الرسالة فيرد فيه على رسالة ابن القارح ردا مباشرا  
تفصيليا ، بينما يعد فيها سلف من القسم الأول منها قد ردّ ردا رمزيا : فيبدأ  
أبو العلاء مدافعا عن المتنبي الذي هاجمه ابن القارح متعرضا لذكر الزنادقة  
والملاحدين حتى يصل إلى نهايتها ، وهو لا يكاد يترك شيئا مما ذكره ابن  
القارح إلا تعرض له ، غير ما يدل على تفاهة الكاتب فقد ضرب عنه صفحا ،  
وبما تعرض له « الدنانير » التي سرقت منه ، وتستغرق اثنتي عشرة صفحة<sup>(٢)</sup>  
يجوس خلالها بتحكم رائع ، وكذلك « الثمانين » وهو هددها فيستغرق ثمانين  
صفحات ، ويستمر متندرا بأبن القارح من خلال ذكر نصوص أدبية تتصل

(١) رسالة الغفران ( طبعة دار المعارف الأولى ) ص ١٢١ - ٢٧١ .

(٢) المرجع السابق من ص ٥٥١ - ٥٦٢ .

بها . . . وهكذا يتخذ من عناصر كثيرة مواد - يجعلها مدار سخريته أو محور هزئه وتندرته: فهو الشيخ الهرم الذي ضرب في أعماقه روح ما جن لا يستحق إلا التندر المستمر : تصعد الملائكة بكلمات رسالته وبسطورها المكونة منها إلى السماء فوق معارج من الفضة . . . أو الذهب ( بادئا بهذا تندرته ) مستقيما بآيتين<sup>(١)</sup> كريمتين فيهما ذكر الكلام الطيب ، شبيها كلا منها بشجرة طيبة ، ويستطرد إلى جزاء ما أثنى به على الله بشجر في الجنة ضخم ذي ظل يملأ ما بين المشرق والمغرب . . . وهكذا يجد ابن القارح نفسه في الجنة وقد بدأ يتلعب به المعري راوية للاخبار في الدنيا ، فيظل هكذا في فردوس الآخرة حيث يجعله يلتقي بهؤلاء الرواة والعلماء الذين روى عنهم: سيديويه والمبرد والأصمعي وعشرات غيرهم ، وملتقيا بطائفة كبيرة متفرقة من الشعراء في الجاهلية والإسلام والعصر العباسي حتى أبي تمام ، ويجعل ابن القارح يقول : د لقد شقيت في الدار العاجلة بجمع الأدب ، ولم أحظ منه بطائل ، وإنما كنت أتقرب به إلى الرؤساء فأحتلب منهم ( ص ٢٨٤ من الغفران ) ويجعله يقول في موضع آخر : وإنما أنا صاحب قلم وسلم . . ( الغفران ص ١٧٣ ) ويتعجب من حفظ الشيخ ابن القارح أدبه في الآخرة ورده أنه كان يدعو الله أن يمتعه بأدبه في الدنيا والآخرة ، ( ص ٢٣٣ من الغفران ) وهذا منتهى التهم . ويسخر به لامزا الملعدين وهو أحدهم بقوله على لسان امرئ القيس : د وأما الملعبون في الإسلام ففيروهم على حسب ما يريدون ، ولا بأس بالوجه الذي اختاروه . . ( ص ٣١٠ من الغفران ) والمعري دائما أبدأيستخدم الجمل الاعتراضية نهكما عليه ، ولا يكاد يذكره إلا متبوعا بهذه الجمل التي منها : فيقول - خلد الله أفاضله في ديوان الأدب<sup>(٢)</sup> ،

(١) الأولى من سورة فاطر الآية ١٠ والثانية من سورة ابراهيم الآيتان ٢٤، ٢٥

(٢) رسالة الغفران ص ٢٢٨

ومنها دوى مرعى له أدلم الله الجمال يبقائه - الشوق إلى نظر سحاب ،<sup>(١)</sup>

وتنها : د فيهم الشيخ - لازالت همته عالية - ،<sup>(٢)</sup>

ولئن كان ابن القارح هو مدار سخرية المعرى ، فإن المواد التي استخدمها في السخرية قد جعلها - فالسخرية أيضا ، كما فعل حينما سخر من الرواة الذين يوردهم السخرية من ابن القارح : فيدير ممركة بن الأصمى والمأزنى حول وزن لوزة - كأنها شيء خطير - ويجعل الأول يشتم الثاني بقوله :  
يا فاضل<sup>(٣)</sup> .

وكذلك يسخر من الرواة حينما يفضح التسلط للشر أو تصحيفهم في روايته : فيجعل الطائفة الجعدي يقول بصد أبحاث غيبية وضمت عليه :  
ما جئت النين قط روبا ،<sup>(٤)</sup> ويجعل أحنى تيس يقول : د ما هذه ما حدر عني ، وإنك منذ اليوم لم تلعب بالمنحولات ،<sup>(٥)</sup>

ويذكر قصة خلاف مع أصحابه وسؤاله لإياهم عن كيفية إيراد قافية البيت الثاني من النص الآتي :

ألم بصحيتي وهم هجوع خيال طارق من أم حصن  
لما عانتشني : عسلا مصفى إذا شئت يوحوارى بسن<sup>(٦)</sup>

إذا ما كانت الرواية د من أم حفص ، بدلا من أم حصن

(١) المرجع السابق ص ٢٦٧ .

(٢) د د د ص ٢٨٤ .

(٣) رسالة الغفران ص ٢٧٥ .

(٤) د د د ص ٢٠١ .

(٥) د د د ص ٢٠٤ .

(٦) د د د ص ١٤٥ ، ١٤٦ .

ويخرج من هذه الحكاية فيقول : ويأخذ في اقتراح أسماء أخرى مثل : لم  
جزء... : الخ القوافي كلها ، وبذلك يظهر أبو العلاء اقتداره على النظم من جهة  
وسخريته من الوضاعين كخلف من جهة أخرى ١

ولا يكتفى بسخريته الخفية من ابن القارح المعلم الراوى ، بل يسخر منه  
من ناحية ماعرف عنه بالبحر : فيستطرد في الكلام عن الجنة بذكر المدام  
ويخرج منها ذكر الأباريق متلعبا بالأسلوب بمثل قوله : هيهات هذه  
أباريق ، كأنها في الحسن أباريق ١ ، ثم يبدأ في شرح مفرداتها جازما بطريق  
خفى ياخفاف ابن القارح في التفتن إلى مدلول الكلمات الثلاثة : ثم يخرج  
من ذلك إلى الانتقال إلى أدب الدنيا متناولا ماقاله عدى بن زيد عن المدام  
والصيد ، ثم يخرج إلى ذكر لوانى الخر ويجعلها أو تصورها على هيئة الطير  
الساجدة ، فهو بهذا يلعب بعقربنا أو بخيال ابن القارح ، ثم يبالغ في وصف هذه  
الخر لاقى ليس لها مثيل ... ويستمر في وصف الخر مزيها على النمر بن  
تولب قوله في الدار العاجلة ... وهكذا ينتقل بين الآخرة والدنيا موردا  
محفوظه من نصوص مزيها على أمثال ابن القارح ما يحفظه من نصوص ، ولا  
يكتفى بهذا ، بل يكمل له خياله الذى لا يكاد ينفى شيئا إلا أحاطه بما  
هو بسبيل تطوله : السحك بعد الخر ، الندامى ، الزهدة وما تحتاج إليه من دابة  
تركب ، ولا يكتفى أبو العلاء بالسخرية الشخصية من الراوى المقتصد  
بالسخرية وهو ابن القارح أو الرواة والشعراء والعلماء الآخرين ، بل يدس  
عبارات وصوراً تحمل السخرية في طياتها أو برتبتها : فما هي صورة رف من  
إوز الجنة تغنى للأعشى ما يطلبه من غناء (١) وقوله على لسان زفر : وأحسب  
هذا الذى نجيتنى به .. يعنى الشعر - قرآن إبليس المارد ، ولا ينفق على الملائكة

إنما هو للجان وعلوه ولد آدم ا،<sup>(١)</sup> وفي موضع آخر :

« وحسبنا شهيدا على ذلك الآية المتلوة في فرقان محمد ا،<sup>(٢)</sup> ومن الصور قوله على لسان لييد : ... فلا يؤمن أن يسمى فاعلو ذلك أزواج الإوز ، فتضرب الجماعة عن اقتسام أولئك القيان ...<sup>(٣)</sup> »

ومن لمزه جعله علجا وحشيا يدخل الجنة لأن صائدا صادف بمخلب ، وكان إهابه كالسلب ... وتظهر بنزيعه الصالحون ، فشملته بركة من هؤلاء ا،<sup>(٤)</sup> وكذلك لمزه حسان بن ثابت ذكره الخزفي أول مدحة مدح بها الرسول .<sup>(٥)</sup> وكذلك جعله وسيلة الشيخ في دخوله الجنة هذه الجمل التي كان يكتبها في نهاية كل كتاب « وصلى الله على سيدنا محمد . . . وعلى عترته الأخيار الطيبين . . . »<sup>(٦)</sup> وجعله يبحر في مجوره الصراط حتى تهبه السيدة فاطمة الزهراء جارية تحمله على الصراط بصورة مضحكة ، منشدا :

ست إن أعياك همي فاحمليني زفقونه ا

ويقول عقب ذلك أبو العلاء على لسان ابن القارح متهمكما به :

... فلذلك بقى على حفظي ما نزفته الأهوال ولا نهك تدقيق

الحساب ،<sup>(٧)</sup> متناسيا قوله تعالى : يوم تذهل كل مرضعة عما أرضعت ا،

(١) المرجع السابق ص ٢٤٤

(٢) د د ص ٣٥٢

(٣) رسالة الغفران ص ٢٢٦

(٤) د د ص ٢٢٧

(٥) د د ص ٢٤٩

(٦) المرجع السابق ص ٢٥٤ وقارن ذلك بما جاء في قوله تعالى : « وأن ليس

للإنسان إلا ما سعى ».

وما أكثر التقاطه ما ذكره ابن القارح في النصف الثاني من رسالته ، ورده عليه متبحرا بلغته ، وققريعه بسبب غضبه من ابنة أخته للدنانير التي سرقته والثمانين التي ربما زادت عدا عليها ، فكأنه قط يلعب فأرا كما فعل حين ذكره الدنانير<sup>(١)</sup> وهذا يذكرنا بسخرية الوزير بالملك فيما سلف من قصة « إبلاد وإبلاد وإراخت ، في كيلة ودمنة .

وهناك عبارات لم يتورع أبو العلاء عن أن يفوه بها سخرية متبحرا على رب العزة ، في مثل قوله على لسان النابغة الجعدي مخاطبا الأعشى : « أسكت يا ضل بن ضل ، فأقسم أن دخرك الجنة من المنكرات ، ولكن الأقضية جرت كما شاء الله ! لحقك أن تكون في الدرك الأسفل من النار ، ولقد صلي بها من هو خير منك ، ولو جاز الغلط على رب العزة ، لقلت : إنك غلط بك ، ومع استخدامه حرف الامتناع « لو ، فإن هذا لا ينفي ما في العبارة من سم السخرية<sup>(٢)</sup> ويقول على لسان أوس : « ولقد دخل الجفة من هو شر مني ، ولكن المغفرة أرزاق ، كما أنها النشب في الدار العاجلة . . . »<sup>(٣)</sup>

وهكذا سخر سخرية لازعة من الشيخ المعلم الراوية ابن القارح مخاطبا بالنحاة الذين تشتملهم سخريته حينما يحملون عدى بن ربيعة للتغلب لا يشتهر إلا ملحقا أو مضافا إلى هذا البيت :

ضربت صدرها إلى وقالت      يا عديا لقد وفئتك الأواق  
وكأنما صارت نكتة نحوية في بيت أو بيتين لشاعر من الشعراء هي أهم

(١) رسالة الغفران من ص ٥٤ ، إلى ٥٦٩

(٢) رسالة الغفران ص ٢٢٢

(٣) المرجع السابق ص ٢٢٢ - ٢٢٣



طاع عرف به وما يذيع به اسمه ، كأن تلك النكبة التي تهم النحويين صارت  
لهم من إبداحة الخفى في اللهنا العجيلة ١١

وهكذا نرى أن الرسالة كلها ضحكة كبرى ، بل فقهية مكتومة تسمى  
عن فم أبي العلاء الذي لعله - في الطور الثاني من حياته - لم يعرف الضحك  
أو الابتسام هكذا في دنيا الرفاق وفي سمر المتفككين ، فكانت رسالة ابن  
القارح سببا في إطلاق تلك السخرية اللاذعة من معقلها الذي استكنت فيه دهرأ  
طويلا منذ صار رهين الحبسين ، تلك السخرية التي صارت لحمية الرسالة  
وسداها من خيوطها ، ولعل للعقاد كان أصدق من عبر عنها بقوله ، وحسبنا  
أن نقول إن الرسالة كلها في وضعها وفي تركيبها ، وفيما بدا من معانيها  
القريبة ، وما انحطت عليه من المعاني البعيدة والمضامين الخفية ، إن هي إلا  
ضحكة واحدة متصلة ، يجر بها المعرى حيناً ، ويوارب بها أحيانا ، وقد  
يفرق في الصخر حين يوارب ويدارى حتى تحاله ساخرا من السخر مترفعا عن  
الاهتمام بإظهار قصده ، لشدة استخفافه وقلة مبالاته ، (١)

ومع هذا فقد علق طه حسين على ما كتبه العقاد بقوله : « إن المتن  
يقرأ رسالة الغفران ويفقه ما فيها من سخرية ، لا يستطيع أن يعلم بأن  
أبا العلاء كان مسلما حقا ، وقد أفهم أن يتجنب العقاد مثل هذا البحث ، لأن  
فيه شيئا من الحرج ، ولكني أحب أن يكون الناس مثلي ، يكرهون أنصاف  
الحقائقي ، ويؤثرون العلم والتاريخ على كل شيء . »

وأغلب الظن أنها حالات نفسية كانت تغلب شخصية أبي العلام الحساسة

(١) مطالعات في الكتب والحياة للعقاد (طبعة التجازية سنة ١٩٢٤ م)

فتتكيف بها آراؤه ، فيرى أنا قد اقترب من هاوية الكفر ، ويرى أنا آخر  
قد رجع وأتاب ، ومن يقرأ ما كتبه الصفدى وما رواه من مرويات كثيرة  
عنه وعن معاصريه إزاءه ، يتبين له صدق دعوانا ، وقد كتبت رسالة الغفران  
غالباً فى ظروف سيطرت عايمه وأحاطته به ، فخيّل إليه أنه فى قمة الجمال  
الإنسانى وصار يذعر إلى الناس من هل وكأنهم إزاءه قد انحدروا إلى هاوية  
الانحطاط والضعفة ، انحطاطاً يذكّر بالساخر الإنجليزى سوينف مؤلف  
رحلات جلفر ؛ فتلك الحالة هى التى ولدت عنده حالة السخرية العميقة من  
ابن القارح والناس والمجتمع وما فوقهم فكانت رسالة الغفران ١ ، ،

ذيل

## مقطعات الحمدونى فى الشاة والعطلسان

(١)

وكان المثل يضرب بشاة منيع ، ثم تحول المثل إلى شاة سعيد ، لكثرة  
ما قال الحمدونى فيها ، وتسميره الملح فى وصف هزالها :<sup>(١)</sup>

ما أرى إن ذبحت شاة سعيد	حاصلا فى يدى غير الإهاب <sup>(٢)</sup>
ليس إلا عظامها لو تراها	قلت : هذى أدارن <sup>(٣)</sup> فى جراب
كم تغنت بحرقة حين تطعمو	م لم تذق غير سف التراب <sup>(٤)</sup>
رب لا صبر لى غير ذا العذاب	بليت مهجتى وأودى شبابى

---

(١) ثمار القلوب ص ٣٠١ والورقة لابن الجراح ص ٦٢ ، وفوات الوفيات .  
وهى من بحر الخفيف .

(٢) الإهاب : الجلد الذى لم يدبغ .

(٣) أدارن : جمع الدرن وهو الوسخ . ورويت فى د الورقة ، لابن الجراح :  
أرزان . والأرازن : جمع أرزن : وهو شجر صلب يتخذ منه العصي . ورواية  
فوات الوفيات : أزانف .

(٤) روى هذا البيت وما يليه فى فوات الوفيات هكذا :  
من حبسا الشياه اللواتى إذا ما . : أبصروهن قيل شاء الشهاب  
ستراهن كيف يهصقن فى وجد . : به المضحى بهن يوم الحساب .

(٢)

وقال :

صاح بي ابن سعيد	من وراء الحجرات <sup>(١)</sup>
قرب الناس الأضاحي	فأنا قربت شاتي
شاة سوء من جلود	وعظام نخدرات
كلنا قدمتها للـ	ذبح قالت : واحياتي !

(٣)

وقال :<sup>(٢)</sup>

أبا سعيد لنا في شاتك العبر	جاءت وما إن <sup>(٣)</sup> لها بول ولا بر
وكيف تبهر همة عندكم مكثت	طعامها الأبهضان الدمس والقمر
لو أنها أبصرت في نومها علفا	غنيت له ، ودموع العين تنحدر
يا مانعي لذة الدنيا بأجمعها <sup>(٤)</sup>	إني ليفتني من وجهك النظر

(٤)

وقال :<sup>(٥)</sup>

شاة سعيد في أمرها عبر لما أتتنا وقد مسها الضرر

(١) الأبيات من مجزوء الرمل .

(٢) زهر الآداب ٥٤٩ - وجمع الجواهر ١٣٥ - ونهاية الأرب ١٠ / ١٣١ وفوات الوفيات ١ / ١٨ وهي من بحر البسيط .

(٣) جمع الجواهر : وليس لها .

(٤) جمع الجواهر : بما رجبت . إني ليمتني . وفي نهاية الأرب والوفيات : ليقنني .

(٥) الآداب ٥٤٩ - وجمع الجواهر ٢٩٤ - ونهاية الأرب ١٠ / ١٣١ - وفوات الوفيات ١ / ١٨ وهي من المنسرج .

وهي تغني من<sup>(١)</sup> سوء حالتها      حسبي بما قد لقيت يا عمر  
مرت بقطف<sup>(٢)</sup> خضر ينشر      ها قوم فظفت بأنها خضر  
فأقبلت نحوها لتأكلها      حتى إذا ما تبين الخبر  
وأبدلتها الظنون من طمع      يأسا تغنت والدمع منحدر  
كانوا بعيدا وكنت أمهم<sup>(٣)</sup>      حتى إذا ما تقر بوا هجروا

(٥)

وقال : <sup>(٤)</sup>

لسعيد شوية      سلما<sup>(٥)</sup> الضر والمعجف<sup>(٦)</sup>  
قد تغنت وأبصرت      رجلا حاملا علف  
بأبي من بكفه      برء دأى من الدنف  
فأتاهما مطمعا      فأتته لتعتلف  
فتولى<sup>(٧)</sup> فأقبلت      تغني من الأسف  
ليته لم يكن يقف      عذب القلب وانصرف !

(١) جمع الجواهر : لسوء .

(٢) القطف : جمع قطيفة : دثار مخمل .

(٣) جمع الجواهر : أمهم ! .

(٤) العقد الفريد ٤ / ٢٩٠ - وزهر الآداب ٥٥٠ - وجمع الجواهر ٢٩٥ -

وفوات الوفيات ١ / ١٨ - ونهاية الأرب ١٠ / ١٣٢ وهي من مجزوه الخفيف .

(٥) العقد : نالها .

(٦) فوات الوفيات : والتاف .

(٧) العقد : ثم ولي .

(٦)

وقال: (١)

جاء سعيد لي بشا	ة ذات سقم ودنف
فاحلة الجسم إذا	ماهي مرت بالجيف
صاحت عليها هنا	يا أختنا ذات العجف
تحنقها العبرة إن	مرت بأصحاب العلف
كم تغني ولها	شرق لإيها ولطف
قد تقطعت إلى	وجهك شوقا وأسف

(٧)

وقال الحدوني في أضحية أهداها إليه سعيد بن أحمد بن جوسبنداد: (٢)

أسعد قد أهديتني (٣) أضحية	مكنت زمانا عندكم ما تطعم
نضوا (٤) تغامزت (٥) الكلاب بها وقد	شدوا عليها كي تموت فيقضوا
فإذا الملاضحكوا بها قالت لهم	لاتهزأوا بي ، وارحموني ترحموا
مرت على علف ، فقامت لم ترم	عنه ، وغنت ، والمدامع سجم (٦)

(١) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي ص ٣٠٢ .

(٢) الآداب ٥٤٩ - وجمع الجواهر ٢٩٤ - وفورات الوفيات ١ / ١٨ وهي من بحر الـ كامل .

(٣) زهر الآداب : أعطيتني .

(٤) النضو : المهزول .

(٥) زهر الاداب : تعاقرت .

(٦) المرجع السابق : تسجم .

وقف الھوی بی حیث أنت فلیس لی

متاخر عنه ولا متة — دم (۱)

(A)

**وقال : (٢)**

بشاة سعيد وهى روح بلا جسم  
تقول لى الآخران حين طبختها  
فقلت : كلوا منها ، فقالوا تهزأ  
وكم قد تغتت إذ تطاول جورعا  
ألا أيها الغضبان بالله ما جرى

تمثلت الأمثال فى شدة السقم  
أنطبخ شطرنجا عظاما بلا لحم ؟  
أنطمننا ملبوس قوم من العجم !  
ولم تر عند القوم شيئا من الطعم  
إليك فقد أبليت جلدى على عظمى

(9)

وقال المحدثون في طيلمان ابن جرب (١٣):

قل لابن حرب مقالة العائب  
أما رأيت الرفاء يجريني<sup>(٤)</sup>  
أنفاه جور البلي عليه كما  
ولست فيما أقول بالكاذب  
برفوه طيلسانك الذهاب ؟  
أفنى الهوى قلب خاله الكاتب<sup>(٥)</sup> ١

(٦) البيت لأبي الشيمس وكان معاصره أبو نواس ممجّياً بالقصيدة التي منها هذا البيت إعجاباً شديداً (الأخاني ١٦ / ٣١٩) .

(٧) ثمار القلوب ص ٣٠٢ وهي من بحر الطويل .

(١) اللشبيات المشرقية لابن أبي عون (مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٧١٤٠ ز) ص ٢٣٣ وقد طبع حديثاً . والطليسمان من أروية العجم مغرب وتالسان .

(۲) یحییٰ بن یسلیخ :

(٣) في الاعلام للزركلي ٢ / ٣٤٣ : د خالد بن يزيد البغدادي أبو الهيثم المعروف بالكاتب : شاعر غزل من الكتاب ، أصله من خراسان ، عاش وتوفي =

(١٠)

وقال (١):

أيا طيلسانى أعيت طي      أسل بجسمك أم داء حب ؟  
ويا ريح صيرتني أتقيك      وقد كنت لا أتقى أن تهبي  
ومستحبر خبر الطيلسان      فقلت له: الروح من أمر ربى (٢)

(١١)

وقال (٣):

قل لابن حرب      طيلسا      نك قوم نوح منه أحدث  
أفتى القرون      ولم يزل      عن مضى من قبل يحدث (٤)  
فاذا العيون      لحظته      فكانه باللحظ يحدث  
يودى إذا لم      أرفه      وإذا رفوت فليس يلبث

= بغداد . كان أحد كتاب الجيش في أيام المعتصم ، وكان يهاجى أبا تمام ، وغلبت عليه السوداء ، وعاش عمرا طويلا حتى دق عظمه ورق جلده . شعره رقيق أكثره غزل . له ديوان مخطوط توفي سنة ٢٦٢ هـ أو سنة ٢٦٩ هـ ( انظر المنتظم لابن الجوزى ٥ / ٣٥ - والأخاى ٢١ / ٣١ - وفوات الوفيات ١٤٩ / وإرشاد الأريب لياقوت - ٤ / ١٧١ - وتاريخ بغداد ٨ / ٣٠٨ ) .

(١) زهر الاداب ٥٥٢ هـ وهى من المتقارب .

(٢) الاية الكريمة ٨٥ من سورة الاسراء .

(٣) وفيات الاعيان ( طبعت بيروت ) ٧ / ٩٧ وروى البيت الثالث :

يعرث . والآيات من مجزوء الكامل ورويت أيضاً في جمع الجواهر ١٢٤ وفوات الوفيات ١ / ١٧ .

(٤) روى هذا البيت في فوات الوفيات وفيات الاعيان ( بيروت ) ٧ / ٩٧

هو طيلسان لم يزل . . . عن مضى من قبل يورث



كالكب إن تحمل علب ٤ الدهر أو تتركه يلمت<sup>(١)</sup>

(١٢)

وقال<sup>(٢)</sup> :

يابن حرب كسوتنى طيلساناً يزرع الرفو فيه وهو ضباخ<sup>(٣)</sup>  
مات رفاؤه ومات بنوه وبدا الغيب فى بنهم وشاخوا

(١٣)

وقال<sup>(٤)</sup> :

يابن حرب كسوتنى طيلسانا مل من صحبة الزمان وصدا  
فحسبنا نسج العناكب لوقيد<sup>(٥)</sup> من إلى ضعف طيلسانك سدا<sup>(٦)</sup>

---

(١) الآية الكريمة ١٧٦ من سورة الأهراف .

(٢) وفيات الأعيان ( بيروت ) ٩٧ / ٧ - وفوات الوفيات ١٧ / ١  
والتشبيهات ٢٢٣ .

(٣) أعقب ابن أبى عون فى التشبيهات المشرقية ٢٢٣ البيت الأول مايل  
هون أن يذكر الثانى الذى أثبتته ابن خلكان فى الوفيات :  
تستطير الغزور طولاً وهرضا فيه حتى كأنهن رعاخ

(٤) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٢٧١ - وجمع الجواهر ص ١٢٥  
وثمار القلوب ٤٨٢ - وزهر الاداب ٥٥٠ ووفيات الأعيان ( طبعة القاهرة )  
٨١ / ٦ ص ٥٢٩ ، ٤٣٧ / ٣ وفى طبعة بيروت من الوفيات ٩٦ / ٧ أورد  
الأول والرابع فقط بروايه : فصدا - ورويت الآيات أيضاً فى فوات الوفيات  
١٧ / ١ وهى من بحر الخفيف .

(٥) زهر الاداب : قد حال .

(٦) هذا البيت والذى يليه لم يذكر فى ثمار القلوب .

إن تنفست فيه ينشق شفا      أو تنحنحت فيه ينقد قد (١)  
طال ترداده إلى الرفو ح      لو بعثناه وحده انتهى

( ١٤ )

وقال (٢)

يا قاتل الله ابن حرب لقد      أطال إلتعابي على عمدا  
بطي لسان خلعت أن البلى      تطلبه بالوتر والخذ  
أجد في رفوي له والبللى      يلمو به في الهزل والجدا  
ذكرني الجنة لما خدا      أصحابها منها على جرد (٣)  
أن أتهم الرفاء في رفوه      مضى به التزيق في نجد  
غنيته لما قضى راحا      يا واحدى تتركنى وحدى (٤)

( ١٥ )

وقال (٥) :

بطي لسان لابن حرب جمادى      قد قضى التزيق منه وطره  
أنا من خوف (٦) عليه أبدا      سامرى (٧) ليس بألو حذره  
يابن حرب خذه أوفابه ث بما      نشترى (٨) عجلا بصفر عشره

( ١ ) روى هذا البيت في جمع الجواهر ص ١٢٥ هكذا :

إن تنفست فيه ينجر جرا      أو تنحنحت منه ينقد قد

( ٢ ) زهر الآداب ١٠٤٧

( ٣ ) الآية ٢٥ من سورة القلم .

( ٤ ) انظر الأغاني ٦ / ١٧٢ ، ١٦٣

( ٥ ) زهر الآداب ص ٥٥٢ ، وجمع الجواهر ص ١٢٥ .

( ٦ ) جمع الجواهر : من خوفى .

( ٧ ) السامرى : الذى عبد العجل ، كان عظيما من بنى إسرائيل .

( ٨ ) جمع الجواهر : يشترى .

لعل الله يحيمه لنا      إن ضربناه ببعض البقرة  
فهو قد أدرك نوحا فمضى      عنده من علم نوح خبره  
أبدا يقرأ من أبصره      أنذا كنا عظاما نخره<sup>(١)</sup>

(١٦)

وقال<sup>(٢)</sup>:

طيلسان لابن حرب جاءني      خلعة في يوم نحس<sup>(٣)</sup> مستمر  
فإذا ما صحت فيه صبحه      تركته كهشيم المحتظر<sup>(٤)</sup>  
ولإذا ما الريح هبت نحوه      طيرته كالجراد<sup>(٥)</sup> المنتشر  
مقطع<sup>(٦)</sup> الداهي إلى الرافي إذا      ما رآه قال: ذاشيء ذكر<sup>(٧)</sup>  
ولإذا رقاؤه حاول أن      يتلافاه تعاطى فقمر<sup>(٨)</sup>

(١٧)

وقال<sup>(٩)</sup>:

فيا كسانيه ابن حرب معتبر      فانظر إليه، إنه إحدى الكبر<sup>(١٠)</sup>

(١) الآية ١١ من سورة النازعات .

(٢) زهر الآداب ص ٥٥٢ .

(٣) الآية ١٩ من سورة القمر .

(٤) الآية ٣١ من سورة القمر . والمحتظر : صاحب الخطيئة .

(٥) الآية ٧ من سورة القمر .

(٦) المبطع : الساكت المنطلق إلى من هتف به .

(٧) الآية ٦ من سورة القمر .

(٨) الآية ٢٩ من سورة القمر .

(٩) طبقات الشعراء لابن المعتز ص ٣٧١ - وثمار القلوب ص ٤٨١ .

(١٠) الآية ٣٥ من سورة المدثر .

قد كان أبيض ثم مازلنا به زفره ، حتى اسود من صده الإبر

( ١٨ )

وقال (١) :

طيلسان لابن حرب      يتداعى لامسا سا (٢)  
قد طوى قرنا فقرنا      وأنا سا      فأنا سا  
لبس الأيام حتى      لم تدع فيه لبسا  
غاب تحف الحس حتى      لا يرى إلا قيا سا

( ١٩ )

وقال (٣) :

طيلسان لابن حرب      ذو أباد لبس تحصى  
أنا فيه أشعر النا      س ، إذا ما الشعر نسا  
وأرائى صرت أدنى      بعدما قد كنت أقصى  
واتقانى الناس وازدا      دوا على شعري حرصا  
ولكم قد حازلى      أردية تنزى وقصا  
كان دهر طيلسانا      ثم قد أصبح شعا

( ٢٠ )

وقال (٤) :

ولى طيلسان إن تأملت شخصه      تيقنت أن الدهر يقنى وينقرض

( ١ ) زهر الاداب ص ١٠٤٨ وهى من مجزوء الرمل .

( ٢ ) الاية ٩٧ من سورة طه .

( ٣ ) الجواهر ص ١٢٤ وهى من مجزوء الرمل .

( ٤ ) زهر الاداب الجواهر ص ١٠٤٦ - وجمع الجواهر ص ١٢٥ وهى من

بحر الطويل .

تصدع حتى قد أمنت انصداهه وأظهره الأيام من عمره الغرض  
 كماني لإشفاقي عليه ممرض أخو سقم بما تمادى به المرض (١)  
 فلو أن أصحاب الكلام يرونه لما روك (٢) فيه وادعوا أنه عرض!

( ٢١ )

وقال (٣):

وطيلسان إن تأملتته قد دته بالطول والعرض  
 كمان إشفاقي عليه إذا غدوت إشفاقي على عرضي  
 لو أنه بعض بني آدم كمان أسير أسير الله في الأرض (٤)

( ٢٢ )

وقال (٥):

ولى طيلسان ناحل الجسم غير أنه ثبوت لهبات الرياح الزعازع  
 وما ذاك إلا أنه متهتك يخل سبيل الريح غير منازع  
 أراه كضوء الشمس بالعين رؤية ويمعنى من نمسه بالأصابع  
 وثقل اسم الطيلسان لضعفه فسميته « سانا » فهل ذاك ناعفى!

( ١ ) لم يروى في جمع الجواهر .

( ٢ ) رواية جمع الجواهر : رأوه ما ما يروك

( ٣ ) التشبيهات المشرقية لابن أبي عون ص ٢٢٣ - ووفيات الأعيان

٩٣ / ٦ وثمار القلوب ص ٤٨١ دون ذكر البيت الثاني وروى الشطر الثاني من البيت الأول : شقيقته .

( ٤ ) اقتبس مما جاء في الخبر : أين للمبد إذا بلغ تسعين سنة ، كتبت له

الحجرات وكفرت عنه السيئات ، وسمى أسير الله في الأرض ،

( ٥ ) التشبيهات المشرقية ص ٢٣٣ وهو من بحر الطويل

(٢٣)

وقال : ٩

وهبت<sup>(١)</sup> لنا ابن حراب طيلسانا      يزيد المرء ذا<sup>(٢)</sup> الضمة انضاعا<sup>(٤)</sup>  
 يسلم صاحبي فيمرد شتمى      لأن الروح يكسبه انضاعا<sup>(٥)</sup>  
 أجبل الطرف في طرفه طولا      وعرضا ، ما أرى إلا رقاعا  
 فلست أشك أن قد كان قدما      انوح في سفينته شراعا  
 فقد<sup>(٦)</sup> غنيت إذ أبصرت منه      جوانبه<sup>(٧)</sup> على بدني تداعى  
 ققى قبل التفرق يا ضباعا      ولايك موقف منك الوداعا<sup>(٨)</sup>

(٢٤)

وقال : ٩

يا ابن حرب إنى أرى فى زوايا      يبتنا مثلما كسوت جماعه

- 
- ( ١ ) زهر الآداب ص ٥٥٣ - ووفيات الأعيان ( مصر ) ٣ / ٣٢٧  
 ( وبيروت ) ٧ / ٩٦ - وجمع الجواهر ص ١٢٥ والايات من بحر الوافر .  
 ( ٢ ) روى هذا الشطر فى الوفيات هكذا : رأينا طيلسانك يا ابن حرب ...  
 ( ٣ ) جمع الجواهر : فى الضمة .  
 ( ٤ ) يروى ابن خلكان بعد هذا البيت :  
 إذا الوفاء أصلح منه بعضا      تداعى بعضه الباقى انضاعا  
 ( ٥ ) روى هذا البيت فى وفيات الأعيان ، وجمع الجواهر هكذا :  
 يسلم صاحبي فيمرد شبرا      به ، وأقد فى ردى ذراعا  
 وروى الحصرى فى جمع الجواهر ( له ) بدلا من ( به ) .  
 ( ٦ ) الوفيات ( بيروت ) : وقد  
 ( ٧ ) الوفيات ( القاهرة ) بقاياها على كفى  
 ( ٨ ) البيت للقطامي عمير بن شبيب التغلبي . وضباعة : اسم امرأة .  
 ( ٩ ) زهر الاداب ص ١٠٤٨ - وفيات الأعيان ٣ / ٤٣٥ - فوات  
 الوفيات ١ / ١٧ وفيات ( بيروت ) ٧ / ٩٧ برواية : ( مثل من ) بدلا من  
 ( مثل ما ) .

طيلسان رفوته ورفوت الر رفو منه حتى رفوت<sup>(١)</sup> رقاها  
فأطاع البلى وصار خليعا<sup>(٢)</sup> ليس يعطى الرفاء فى الرفو طاعه  
فاذا سائل رآنى فيه ظن أنى قى من أهل الصنائه<sup>(٣)</sup>

(٢٥)

وقال فى الطيلسان وكتبها إلى بعض الرؤساء<sup>(٤)</sup>

دعى أبكى كسوتى إذ ودعت فلازمن على البسكا إذ أزفعت  
يابن الحسن أما ترى دراهقى سملا تردت بالبل وتدرعت  
فيها من التمزيق مالو أنه مرت بها ريج الصبا لتفطعت  
يحكى<sup>(٥)</sup> تخرق طيلسانى إنها منه تعلمت البلى فتضمضت  
لافرج الرحمن منه إنه أهدى ليابى كلها فتقطعت  
فلتحمد الله الجبال فانها لو قارنته لحفمت<sup>(٦)</sup> وتصدعت

(٢٦)

وقال<sup>(٧)</sup>

إن ابن حرب كسانى ثوبا نظير انجرافه

(١) فوات : رقعة ...

(٢) فوات : خليقا .

(٣) فوات : الضيافة .

(٤) وفيات الأعيان (القاهرة) ٦ / ٩٣ - (بيروت) ٧ / ٩٦ ومى

من بحر الكامل .

(٥) وفيات (بيروت) : تحكى .

(٦) المرجع السابق : تخضمت .

(٧) زهر الاداب ١٠٤٧ - وجمع الجواهر ١٢٨٨، وعروضه مستغلن فاعلاق .

أظّل أدفع عنه وأتقى كل آفة  
فقد تعاملت من خشة بيّ عليه الشفاهة ١

(٢٧)

وقال (١) :

وطيلسان إن تأملته لج من التمزيق في محك  
كأنه من طول رفيقى به يملكنى زصار في ملكى ١

(٢٨)

وقال (٢) :

لطيلسان ابن حرب نعمة سبقت به تبين فضلى فهو متصل  
قد كنت دهرأ جهولا ثم حنفت عليه خوفا من الاقوام إن جهلوا  
أظّل أجنب الإخوان من حذر كأنما بي جرح ليس يندمل  
يا طيلسانا إذا الألحاظ جلن به فعلن فعل سهام فيه تاتصل  
لئن بليت فكم أليت من أمم ترى ، أبادتهم أيامك الأول  
وكم رآك أخ لى ثم أنشدنى ودع هريرة إن الركب مر نحل (٣)

(٢٩)

وقال (٤) :

وطيلسان هرم يحتمى عليه أكل الخل والبقل  
كان كمي إذا انضمتا عليه خوفا الريح في غل

(١) التشبيهات المشرقية ص ٢٣٣ .

(٢) زمر الاداب ص ١٠٤٦ وهى من بحر البسيط .

(٣) لأعشى قيس .

(٤) التشبيهات المشرقية ص ٢٣٤ .



(٣٠)

وقال : (١)

طيلسان مازال أقدم في الدهر	زمن الدهر ! ما لراقية حيله !
وترى ضعفه كضعف عجوز	رثة الحال ذات فقر معيله !
غمرته الرقاع فهو كحصر	سكنته نزاع (٢) كل قبيله
إن أزيته يابن حرب بذي	خزير (٣) قد زان قبلي بجيله

(٣١)

وقال : (١)

قل لابن حرب طيلسانك قد	أوهى قواى بكثرة القدم (٥)
متبين فيه لمصره	آثار رفسو أوائل الأمم
فكانه (٦) الخمر (٧) التي وصفت	في دياشقيق النفس (٨) من حكم
فاذا رمناه ، فقيل لنا	قد صح ، قال له البلى : انهدم

(١) زهر الآداب ص ١٠٤٧ - والتشبيهات المشرقية ص ٢٣٥ بدون الرابع  
وهى من الرمل .

(٢) النزيع : الغريب ، كالنزع . وجمعه نزاع .

(٣) جرير بن عبد الله البجلي رضى الله عنه ؛ صحابى . وقد ذكره الشاعر  
غسان في هجائه جرير بن عطية الشاعر الأموى المشهور :

لعمرى لئن كانت بجيلة زانها . . جرير ، لقد أخزى كليباً جريرها .

(٤) زهر الآداب ٥٥١ ، ٥٥٢ - وجمع الجواهر ١٢٦ .

(٥) زهر الآداب : الغرم .

(٦) زهر : وكأنه .

(٧) الخمر التي وصفت من قول أبي نواس :

ياشقيق النفس من حكم . . نمف عن ليل ولم أنم

(٨) زهر الآداب : الروح .

مثل السقيم برأ<sup>(١)</sup> ، فراجعه نكس<sup>(٢)</sup> ، فأسله إلى سقيم  
أشدت حين طغى فأعجزني ومن العناء رياضة الهرم  
(٣٢)

وقال: <sup>(٣)</sup>

يا بن حرب كسوتني طيلساناً أمرضته<sup>(٤)</sup> الأوجاع فهو سقيم  
فإذا ما لمصته<sup>(٥)</sup> قلت : سبحا نك تحي العظام وهي رميم  
طيلسان له إذا هبت الوبح عليه عنكبى هنيم<sup>(٦)</sup>  
لو يدب الحولى مر ولد الذر عليه لأنوبته الكلوم<sup>(٧)</sup>  
(٣٣)

وقال: <sup>(٨)</sup>

يأملك في جبة مخرقة أطول أعمار مثلها يوم

(١) المرجع السابق . بره فعاوده . . .

(٢) النكس : عود المرض .

(٣) زهر الاداب ١٠٤٧ - جمع الجواهر ١٢٦ - وفيات الاعيان ( مصر )  
٤٣٧ / ٣ - ٥٢٩ / ٨١ / ٦ - ( بيروت ) ٩٦ / ٧ وهي أيضاً في ثمار القلوب -  
والايات من بحر الخفيف .

(٤) في الوفيات روايتان : أنحلته الأوجاع - أنحلته الأزمان وهو .

(٥) في الوفيات ( بيروت )

فإذا ما رفوته قال : سبحانك حيي العظام . . . وفي زهر الاداب : لبسته . . .

(٦) زهر الاداب : هميم . وبعد البيت الثالث أنضرت زهر الاداب

بهذا البيت :

أذكرني بيتاً لحسان فيه . : حرق للفرّاد - ين أقوم

ولم يذكر البيتان (٣) ، (٤) في الوفيات .

(٧) للبيه من قصيدة لحسان بن ثابت في ديوانه .

(٨) النغميات المشرقية ص ٢٣٣ .

وطيلسان كالآل يابسه على قيص كأنه غيم

(٣٤)

وقال : (١)

إن ابن حرب جادلي كاسياً بطيلسان هـرم قشعم  
انظر إلى كثرة تمزيقه كأنما مـزق في مآتم  
ذمي له وهو ذميم كمن يبنى بناء فوق مستهدم  
يصـدعه اللحظ بإيماضه صدع فؤاد العاشق المنغم  
يذكرني كثرة تمزيقه تفرق الناس عن الموسم

(٣٥)

ومن ملح مضمنات الحمدوني قوله : ويقال إن أول شعر قاله فيه ، وقد  
قال فيه خمسة من مقطوعا<sup>(٢)</sup> يريد إبراهيم بن المهدي - وهذا الشعر له -  
وتنمته :

كساق ابن حرب طيلساناً كأنه فتي ناحل<sup>(٣)</sup> بال من الوجد كالشن  
يغني لإبراهيم لما<sup>(٥)</sup> لمسته ذهب من الدنيا وقد ذهب مني<sup>(١)</sup>  
ذهب من الدنيا وقد ذهب مني<sup>(٧)</sup> هوى الدهر لي عنها ، وولي لها غنى  
فإن أهلك نفسي ، أهلك نفساً نفيسة وإن أحسبها أحسبها على ضن

(١) المرجع السابق وكذلك الصنحة .

(٢) فوات الوفيات للصلاح الكتبي ١ / ١٧ وثمار القلوب ص ٤٨١ .

(٣) ثمار القلوب : عاشق .

(٤) الشن والشننة : القرية القديمة .

(٥) ثمار : حين .

(٦) هذا الشطر روى في الأغاني ( بيروت ٥ / ٢٦٠ ولم أذكر على بقية البيت .

(٧) هذه البيت والذي يليه لم أفرد بروايتها للصلاح الكتبي في الوفيات .

(٣٦)

ومن طريف شعره قوله :<sup>(١)</sup>  
يا طيلسان ابن حرب قد همت بأن<sup>(٢)</sup>      تودى بجسمى كما أودى بك الزمن  
ما فيك من حيلة تغى ولا ثمن      قد أوهنت حيلتى أركانك الوهن<sup>(٣)</sup>  
فلو ترانى لدى الرفاء مرتبطاً      كما أنى فى يديه الدهر مرتين  
أقول<sup>(٤)</sup> حين رآنى الناس أرمه      كأنما لى فى حانوته وطن  
من<sup>(٥)</sup> كان يسأل عنا أين منزلنا      فالأفحوانة<sup>(٦)</sup> منا منزل قمن<sup>(٧)</sup>

(٣٧)

وقال فيه أيضاً :<sup>(٨)</sup>

طيلسان لو كان لفظاً إذن ما      شك خلق<sup>(٩)</sup> فى أنه بهتان

(١) جمع الجورم ص ١٢٥ - وزهر الاداب ص ٥٥١ - وثمار القلوب  
ص ٤٨٢ والايات من بحر البسيط .

(٢) ثمار القلوب : بما ... يودى

(٣) لم يروى فى ثمار القلوب .

(٤) ثمار القلوب : غنيت .

(٥) البيت للحارث بن خالد الخزومى ، وكان أمير مكة على عهد عبد الملك  
بن مروان ، وبعده فى الأغنى ( طبعة صادر ) ٣ / ٢٢٠

إذن فليس العيس صفوا ما يكدره      طعن الوشاة ولا ينفو بنا الزمن  
ليت الهوى لم يقربنى اليك ولم      أعرفك إذ كان خطى منكم الحزن

(٦) موضع قرب مكة .

(٧) قمن : خليق وجدير أن تسكنه أو معناه قريب .

(٨) وفيات الأعيان ( مصر ) ٦ / ٩٣ ( وبيروت ) ٧ / ٩٧ - وثمار

القلوب ص ٤٨١ ٤٨٢ - والايات من بحر الخفيف .

(٩) ثمار القلوب : إنسان .

فهو كالطور إذ تجلى له إلا ه فذكرت قواه والأركان  
كم رفوناه إذ تمزق حتى بقى الرفو وانقضى الطيلسان  
(٣٨)

وله من أبيات (١) :

أقد حالف الرفاء حتى كأنه يحاول منه أن يعلمه الرفوا  
(٣٩)

وقال : (٢)

يابن حرب أطلت ظالي (٣) برفوى طيلسانا قد حكنت عنه غنيا  
هو (٤) في الرفو آل فرعون في العـ رض على النار بكرة (٥) وعشيا  
زرت فيه معاشرًا فازدروني فتغنيت إذ رأوني زريا (٦)  
جئت في زى سائل كي أراكم وعلى الباب قد وقفت مليا

(١) وفيات الأعيان (مصر) ٦ / ٨١ / ٥٣٩ - (بيروت) ٧ / ٩٦  
وهو من بحر الطويل .

(٢) جمع الجواهر ص ١٢٤ - وطبقات ابن المعتز ص ٣٧١ - والتشبهات  
المعرقية ص ٢٢٤ - وزهر الاداب ص ٥٥٣ - وثمار القلوب ص ٤٨١ - ووفيات  
الأعيان (مصر) ٣ / ٤١٧ (بيروت) ٧ / ٩٦ وهي من بحر الخفيف .

(٣) زهر الاداب - والوفيات - والتشبهات - وابن المعتز : فقرى .  
الوفيات أيضاً : وترى .

(٤) الوفيات ، وزهر الاداب : فهو ...

(٥) زهر : غدوة . وهو يشهد إلى الآية الكريمة رقم ٤٦ من سورة غافر .  
ونهاية الآية ٦٢ من سورة مريم .

( أنظر سبب هذه الأبيات في جمع الجواهر ص ٤٩ )

(٦) هذا البيت والذي يليه لم يرويا إلا في زهر الاداب .



الموضوع	صفحة
الباب الثاني : العاخرون	٨٣ - ٣٥٧
أدب السخرية في عصر صدر الإسلام والعصر الأموي حسان والحطيئة	٨٣
جرير	٨٨
أدب السخرية في العصر العباسي	١١٢
ابن المقفع	١١٥
الجاحظ	١٤٩
أبو العيناء	٢٠٧
الحدوني	٢٣٤
أبو العلاء المعري	٢٤٢
ذيل : تحقيق مقطعات الحدوني في الشاة	٢٥٨
في العايلسان	٢٦٢
المراجع	٢٧٩

## المراجع

- الأخبار الطوال للدينوى مصر ١٩٧٢ م
- أخبار الأذكياء لابن الجوزى تحقيق محمد مرسى الخولى مصر ١٣٧٠ هـ
- أخبار الظراف والمتماجنين لابن الجوزى القدس ١٨٤٣ م
- أدب الجاحظ للسندوبى (التجارية بمصر) ١٩٤٢ م
- أدب الدنيا والدين للماوردى القاهرة ١٩١٢ م
- أساس البلاغة للزمخشري دار الكتب المصرية ١٩٢٦ م
- الأعلام لخبر الدين الزركلى مصر ١٩٥٤ م
- الأغانى لأبى الفرج الأصفهاني (دار الكتب المصرية) ١٩٢٦ - ١٩٧٥ م
- الأمالى لأبى على القالى دار الكتب المصرية ١٩٣٦ م
- البانشتاتر ترجمة د. عبد الحميد تونس الكويت ١٩٧٢ م
- البخلاء للجاحظ تحقيق د. طه الحاجرى دار المعارف ١٩٥٨ م
- البيان والتبيين للجاحظ (مصطفى الحلبي) ١٩٠٢ م
- تاريخ الرسل والملوك للطبرى (دار المعارف) ١٩٦٢ م
- تاريخ بغداد للخطيب البغدادى (المانجى) سنة ١٩٣١ م
- القصة والنقد فى الأذنب العربى للسباعى السباعى بيومى
- (دار نشر الثقافة بالاسكندرية) سنة ١٩٥٠ م
- تأويل مختلف الحديث لابن قتبية القاهرة سنة ١٣٢٦ هـ
- التشبيهات المشرقية لابن أبى عون المخطوط والطبوع مصر ١٩٦٨ م
- تفسير الفيضاوى طبع صبيح بالقاهرة ١٩٢٦ م
- تفسير الفهرى (دار المعارف بمصر) ١٩٦٥ م
- تفسير الكشاف مصطفى الحلبي بمصر



- تحقيق ما للهند من مقولة للبيروني      الهند ١٩٢٤ م
- ثمار القلوب في المضاف والمنسوب للثعالبي      مصر ١٩٥٨ م
- الجاحظ لإفرايم البستاني (عدد ١٩ من مجموعة الروائع : بيروت)
- الجاحظ د. طه الحاجري      دار المعارف ١٩٦٢ م
- الجاحظ حنا الفاخوري      دار المعارف ١٩٦٤ م
- الجاحظ شفيق جبري      دار المعارف ١٩٦٦ م
- جحا الضاحك المضحك لعباس محمود العقاد (دار الهلال) بمصر ١٩٥٦ م
- جرير حياته وشعره د. نعمان محمد أمين طه      دار المعارف ١٩٦٨ م
- جمع الجواهر في الملح والنوادر للثعالبي عيسى الحلبي      ١٩٥٠ م
- حكم قرالوش د. عبد اللطيف حمزة      عيسى الحلبي مصر ١٩٥٥ م
- الحماسة لأبي تمام بشرح للرزوقي لجنة التأليف والترجمة بمصر ١٩٦٥ م
- الحماسة لابن الشجري      طبع حيدر آباد الدكن بالهند
- الحيوان للجاحظ      طبع مصطفى الحلبي بمصر ١٩٣٨ م
- خزانة الأدب للحموي      مصر ١٩٠٤ م
- دراسات في الأدب الإسلامي الأستاذ محمد خلف الله لجنة التأليف ١٩٤٧ م
- ديوان امرئ القيس نشر السنديوني      بالمكتبة التجارية ١٩٤٩ م
- وتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم " بدار المعارف ١٩٥٨ م
- ديوان أبي نواس      لجنة التأليف بمصر ١٩٥٤ م
- ديوان زهير بشرح ثعلب      دار الكتب المصرية ١٩٣٨ م
- ديوان جرير د. نعمان محمد أمين طه      دار المعارف ١٩٧٠ م
- ديوان حسان بن ثابت      طبعة البرقوق ١٩٢٩ م
- والدار القومية بمصر ١٩٧٤ م

- ديوان الخطبة د. نعمان محمد أمين طه  
الخلبي ١٩٥٨ م
- ذكر المعتزلة المرتضى  
حيدر آباد بالهند
- رسائل الجاحظ ( على هامش السكاهل المبرد )  
مصر ١٩١٨ م
- رسائل الجاحظ  
نشر الخانجي بمصر ١٩٠١ م
- رسالة الترييع والتدوير للجاحظ تحقيق شارل بلات دمشق ١٩٥٦ م
- رسالة الغفران للمعري  
دار المعارف بمصر ١٩٠٩ م
- زهر الآداب المصرية ( تحقيق البجاوي )  
الخلبي ١٩٥٨ م
- زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع  
مصر ١٩٠٦ م
- شرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة  
مصر ١٩٧٠ م
- السيرة لابن هشام بتحقيق مصطفى السقا  
الخلبي ١٩٤٢ م
- سيكولوجية الضحك الحمد عطية الله  
عيسى الخليلي بمصر ١٩٤٧ م
- سيكولوجية الفكاهة والضحك زكريا ابراهيم  
مكتبة مصر ١٩٥٨ م
- ضحى الإسلام لأحمد أمين  
لجنة الأليف ١٩٣٨ م
- الضحك لهنري برجسون ترجمة صامى للدروبي
- دار الكاتب المصري ١٩٤٨ م
- طبقات الشعراء لابن المعتز  
دار المعارف بمصر ١٩٦٢ م
- طبقات فحول الشعراء لابن سلام  
دار المعارف بمصر ١٩٥٢ م
- كتاب الشعر لأرسطو ترجمة د. إحسان عباس دار الفكر ١٩٥٢ م
- كتاب الشعر لأرسطو ترجمة د. شكري محمد عياد
- دار الكاتب العربي بمصر ١٩٦٧ م
- العصر العباسي الأول د. شوقي ضيف  
دار المعارف
- العصر العباسي الثاني د. شوقي ضيف  
دار المعارف

- العقد الفريد لابن عبد ربه  
مصر ١٩١٣ م
- ولجنة التأليف والترجمة ١٩٤٧ م
- أبو العلام المعمرى د. عائشة عبد الرحمن  
مصر ١٩٦٧ م
- أبو العلاء المعمرى (رسالة الغفران) العدد ١٧ من مجموعة الروائع  
لإفرايم البستاني الطبعة الثانية بيروت ١٩٤٢ م
- أبو العلاء المعمرى فاقد المجتمع لركى المحاسنى  
مصر ١٩٥٣ م
- نحوه الخصائص الواضحة للوطواط جمال الدين القاهرة ١٢٩٩ هـ
- فصول مختارة لعله حسين (بالاشتراك) دار الطباعة الحديثة ١٩٥٦ م
- الفكاهة فى الأدب د. أحمد الحوفى دار نهضة مصر بالقاهرة ١٩٥٨ م
- الفكاهة فى مصر د. شوق ضيف (كتاب الهلال) ١٩٥٨ م
- فن تكوين النكتة لجون ويزدم مقال بمجلة علم النفس  
دار المعارف ١٩٤٨ م
- الفهرست لابن التديم تحقيق فلوجل طبع ليسك ١٨٧٢ م
- فوات الوفيات لمحمد بن شاكر الكتبى (بيروت) ١٩٦٧ م
- العقل الباطن وعلاقته بالأمراض النفسية تعريب عباس حافظ  
القاهرة ١٩٤٦ م
- كشف الخفا ومزيل الإلباس فيما اشهر من الحديث على أسنة الناس  
للمعولون مصر ١٩٣٦ م
- كليلة ودمنة (طبعة مكتبة دار الهلال بمصر) ١٩٢٤ م
- كليلة ودمنة (نشر الأب شيخو) بيروت ١٩٣٦ م
- كليلة ودمنة (تحقيق المرحوم د. عبد الوهاب عزام)  
دار المعارف ١٩٤٢ م

- لسان العرب لابن منظور الأفريقى مصر ١٣٠١ هـ
- مجلة الاثنين مصر ١٩٤٨ م
- مجموع رسائل الجاحظ ( الساسى ) ١٩٠١ م
- مروج الذهب للمسعودى ( نشر محمد محيى الدين عبد الحميد ) ١٩٤٨ م
- مطالعات فى الكتب والحياة للمقاد ( التجارية ) ١٩٢٦ م
- معجم الأدباء لياقوت مصر ١٩٣٨ م
- المفضليات للعبى ( دار المعارف بمصر ) ١٩٤٨ م
- ابن المقفع للدكتور عبد اللطيف حمزة مصر ١٩٢٦ م
- ابن مائى د . عبد اللطيف حمزة الحلبي بمصر ١٩٤٦ م
- مناهج الدراسة الأدبية د . شكرى فيصل بيروت ١٩٧٠ م
- نتائج الفطنة فى نظم كيلة ودمنة ( بيروت ) ١٩٠١ م
- نثر الأدر فى المحاضرات للأبى زين الكفافة منصور بن الحسين مخطوط
- النثر الغنى د . زكى مبارك مصر ١٩٣٢ م
- نهاية الأرب فى فنون الأدب للنويرى دار للكتب ١٩٤٨ م
- نوادى أبى العياد ومحاضراته د . نعمان طه مطبعة المدنى بمصر ١٩٧٢ م
- الهجاء والهجاءون د . محمد محمد حسين مكتبة الآداب ١٩٤٧ م
- الورقة لأبى عبد الله محمد بن داود الجراح ( تحقيق د . عزام )
- دار المعارف ١٩٥٣ م
- الوزراء والكتاب للجهشياري ( تحقيق مصطفى السقا ) الحلبي ١٩٤٨ م
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان ( نشر محمد محيى الدين عبد الحميد ) بمصر ١٩٤٢ م وبيروت ١٩٧٠ م
- يتيمة الدهر فى شعراء أهل العصر للثعالبي القاهرة ١٩٣٤ م

Edgar Johnson : Treasury of Satire .

Newyork / 1944.

G. G. Sedjewick Of Irona Especially in Drama Toronto 1948

Sterhen Potter : Sense joy Humouy / Newyork 1954.

Harms Worth's Universal Encc / Iran.

The Americana.

La Rousse

Encylopydia Britanicca

## استدراك

- سقط سهواً من ص ٢٠٦ الفقرة الآتية -

وقد حذا حذو الجاحظ الشاعر الاندلسي الناثري ابن زيدون (ت ٤٦٣ هـ) فتهج نهجه في رسالته الهزلية المشهورة التي بدأها متحدثاً بها على اسان ولادة تخاطب الوزير ابن جمهور ، ثم انتقل إلى إنطاق إحدى جوارى الوزير متهمكة بابن جمهور مخاطبة إياه زاعمة ، أن المروءة لفظ أنت معناه ، والإنسانية اسم أنت جسمه وهيولاه ، قاطعة أنك انفردت بالجمال ١١

واستأثرت بالكمال ، واستعليت في مراتب الجلال ، واستوايت على محاسن الجلال ، حتى خيلت أن امرأة العزيز رأيتك فسلبت عنه ، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت ، والنطف عثر على فضل ما ركزت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقبصر رعى ماشيتك ...

وهكذا نلاحظ أنه حشد فيها كثيراً من الأسماء التي يوسىء بها إلى حوادث تاريخية وأحداث مختلفة ، وشخصيات مذكورة في التاريخ سواء عند العرب أو الفرس أو غيرهم في الجاهلية والإسلام ، مثل كسرى ، وقبصر ، والإسكندر وبلقيس ، والزباء وغيرهم من القواد والخطباء والشعراء والحكماء والولاة . وتنبئنا الرسالة بكثرة محفوظ ابن زيدون من روائع الأدب العربي ، وهو ينزع فيها إلى استخدام السجع الاوزدواج .

\* مختارات شعراء العرب لابن الشجري : وقد أوشك على الصدور  
في ثوب قشيب .

\* ديوان جرير : وقد صدر عن دار المعارف في د عاثر العرب ، سنة ١٩٧٠  
\* جرير حياته وشعره : د د د د د مكتبة الدراسات الأدبية ،  
سنة ١٩٦٨ م

\* ديوان الحطيئة : في طبعة جديدة ومنقحة .

\* هاشميات السمكيت : تحت الطبع .

\* نوادر أبي العيناء : وهي سخریات طريفة وردود لاذعة . صدر  
سنة ١٩٧٢

\* رسالة الترييع والتدوير للجاحظ : تحت الطبع .

\* نثر الدور في المحاضرات للآبي : تحت الطبع .

## السخرية في الأدب العربي

بحث طريف في موضوع طريف لم يسبق تناوله : تعرض فيه المؤلف للكلام  
عن الضحك والفكاهة وهما روح السخرية ومجالها الحيوى ، وتكلم عن  
صورها المختلفة وأساليبها في مصادر الأدب والبلاغة عند العرب وغيرهم ،  
وتناول بالتفصيل أشهر الساخرين في القرون الخمسة الأولى وهم : الحطائنة  
وجرير وابن المقفع والجاحظ وأبو العيثاء والخدوني وأبو العلاء المعرى :  
فربط سخريتهم بحياتهم في تحليل أدبي نفيس رائع ، كما ذيل الكتاب الذى  
يقع في ٢٨٢ صفحة ؛ بقاوعات نهكية للشاعر الخدوني .